

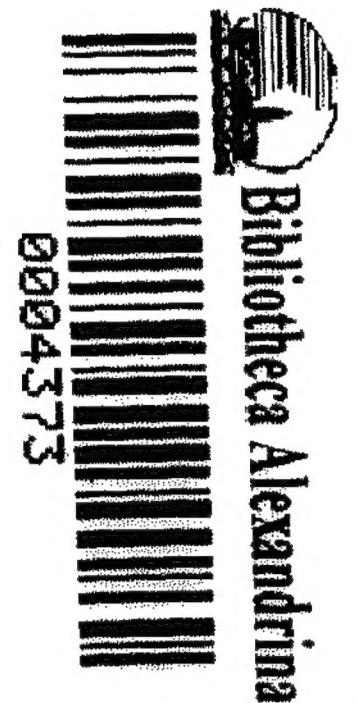
المُسْتَشْرِقُونَ وَمَشْكَلاتُ الْحَضَارَةِ

دكتورة عفاف صبره

مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية الدراسات الانسانية - فرع البنات
جامعة الأزهر

١٩٨٥

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر والتوزيع



المستشرقون ومشكلات الحضارة

دكتورة عفاف صبره

مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية الدراسات الانسانية - فرع البنات
جامعة الأزهر

١٩٨٥

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

احتلت قضية الاستشراق والمستشرقين ، أهمية خاصة بين قضايا العصر ، تجلت في اهتمام جميع علماء العالم الاسلامي بها ، محاولين تتبع مسارها ، والتحقق من كل مايكتبه المستشرقون في مؤلفاتهم ، وما يقدمونه للفكر الانساني .

ويعتبر الدين الاسلامي والحضارة الاسلامية من اهم الموضوعات التي شغلت اذهان المستشرقين ، والتي بذلوا فيها كثيرا من الجهد والعمل الدائب في سبيل دراستها ، ومناقشتها وتحليلها .

وفد اختلف المستشرقون الذين كتبوا عن الاسلام في اهدافهم ودوافعهم ، ووسائلهم وميولهم ، حتى أصبح من المسلم به ، التفاوت والاختلاف في كل ما ألفوه وكتبوه ، وأصبح لزاما على كل فرد مسلم واع أن يهتم بهذه الكتابات ، وأن يخضعها للبحث والدراسة والتحقيق ، حتى يكشف النقاب عن حقيقة الأغراض التي دفعت هؤلاء المستشرقين الى الكتابة عن الاسلام ، ويرفع الشبهات التي يحاولون بها تشويه الاسلام ودس الدسائس والاباطيل عليه .

حقيقة أن الاسلام لا يحتاج الى ايضاح ، ونبي الاسلام لا يحتاج الى دفاع ، فما كانت الحقائق العليا ، والفضائل السامية بحاجة أبدا الى من يدافع عن وجودها ، ويتحدث عن آثارها ، ويعلن عن فضلها وقدرها ، فذلك من شأنه أن يجور على مقامها ويهون من شأنها بما يوقع في النفوس من انها في خفاء يحتاج الى بيان ، وفي وجه تهمة تحتاج الى دفع ودفاع ، ولكن غايتنا أن يعرف للانسان قدره ، وللعقل مكانه ووزنه في انسانية

الإنسان ، وفى إعطائه معنى الإنسانية الأمر الذى يدعو كل ذى عقل أن يحرص على عقله حرصه على الحياة ذاتها .

ونظرا لأهمية هذا الموضوع ، فقد رأيت أن يكون لى شرف المساهمة بنصيب فى الكتابة فيه ، محاولة ، قدر جهدى ، أن استوضح كثيرا من النقاط ، وإن أرد الشبهات .

وإذا كان هذا الموضوع قد تعرض لدراسات مستفيضة ، ولجهود كثيرة من قبل العلماء الاجلاء الذين بذلوا الطاقات فى سبيل الوقوف فى وجه الحاقدين على الاسلام ، عاملين على ايراد الحقائق ، ورد الباطل ، كذلك رأيت أن أسير على الدرب ، حيث ان المستشرقين لم يوقفوا عن كتاباتهم ، ولم تتغير اهدافهم ومصالحهم ، والحملة على الاسلام ، وحضارة الاسلام مكثفة فى أيامنا هذه — التى سادت فيها الحضارات المادية والفلسفات الالحادية — فما أحوجنا فى هذه الظروف الصعبة الى مثل هذه الدراسات من أى وقت مضى .

وقد حاولت أن استعرض فى هذا الموضوع نشأة الاستشراق فى الغرب والأسباب التى جعلت النزعة الى الاستشراق تزداد هناك الى الدرجة التى نراها الآن .

وقد اثبتت هذه الدراسة أن الباعث الدينى كان من أهم البواعث التى دفعت الغرب الى الخوض فى مجال الدراسات الشرقية ، محاولين بذلك التنفيس عن عدائهم للاسلام — هذا العداء الذى يرجع الى قرون مضت منذ أن بزغ نور الاسلام على العالم على يد أشرف الرسل محمد صلى الله عليه وسلم .

ظل الصراع بين الشرق والغرب طوال التاريخ الاسلامى صراعا لاهوادة فيه ، فقد ظل السلاح مرغوعا بين الطرفين طوال التاريخ الأموى والعباسى ، بل لعل الدور الذى قاهت به بلاد المغرب الاسلامى — سواء فى المغرب أو الأندلس — لا يقل عن غيره بل يزيد .

استمر الصراع بين الطرفين حتى اتخذ صورة حملات صليبية مكثفة قام بها الغرب ضد الشرق ، محاولا تحقيق أهدافه الكبرى وسى القضاء على الاسلام .

واذا كانت الحرب والسلاح هما الوسيلة التى اتخذها الغرب للتعبير عن حقه على الاسلام ، فانهم قد استخدموا سلاحا آخر لا يقل خطورة وهو سلاح الكلمة المكتوبة الموجهة .

لذلك بدا هؤلاء المستشرقون كتاباتهم عن الدين الاسلامى ، وعلومه المختلفة ، وعن نبي الاسلام وحياته محاولين قدر جهدهم ان يشوهوا الصورة الكريمة التى رسمها الله سبحانه وتعالى للاسلام ونبي الاسلام .

واذا كنت قد بينت فى هذه الدراسة اختلاف أغراض المستشرقين ، فاننا لانسى فى هذا المجال أن نضع الحق فى نصابه ، وان نذكر أن من هؤلاء فئة محايدة ، جعلت العلم والحقيقة هدفها ، فكتبوا بأمانة علمية مطلقة ، وذكروا الحقيقة مجردة ، فكانوا شاهدا على عظمة الاسلام .

وكان منهجى فى الدراسة اعطاء كل ذى حقه، انصاف المنصفين، والرد على الضالين ، عسى أن يحقق مانصبو اليه من أهداف فى هذه الدراسة .

وقد رأيت الا أحدد موضوع كتابى بالكلام عن المستشرقين والاسلام ولكن امتكالا للغرض رأيت أن أبين كثيرا من المشاكل الحضارية التى اترت تأثيرا مباشرا على مجتمعنا الاسلامى بشتى الصور ، سواء فى الأخلاق أو الدين والعقائد أو العادات والتقاليد ، مما كان لها أسوأ الأثر على الفرد المسلم .

فقد جعلت دراستى للمشكلات الحضارية تقوم على أساس عرض للمشكلة الحضارية ايا كان نوعها عقائدية أم اقتصادية أم اجتماعية ، ثم أبين ماهيتها ونشأتها ، ثم كيف تسربت الى المجتمعات الاسلامية ، وماهى

الانار السيئة التى تركتها على المجتمع ، ثم اتعرض لموقف الاملام من هذه المشكلات حتى نستطيع ان نبين للفرد المسلم الحق من الباطل لنير له الطريق .

واننى اذ اقدم هذا الكتاب الى القارئ المسلم — ادعو الله جل وعلا ان يوفقنا جميعا للعمل على خدمة الاسلام ، وأن ييسر لنا السير فى الطريق المستقيم ، وان يكلل اعمالنا بالحق والصواب .

« ربنا لاترغ قلوبنا بعد اذ هديتنا : وهب لنا من لدنك رحمة »

صدق الله العظيم .

المؤلفة

د/ عفاف سيد صبرة

القاهرة / ١٩٧٩ م.

الفصل الأول

التطور التاريخي لنشأة حركة الاستشراق

بداية ظهور حركة الاستشراق في الغرب

يكون المستشرقون الغربيون بالنسبة للشرق الاسلامي مشكلة ثقافية ودينية كبرى ، وهذه حقيقة لا بد من الاعتراف بها اعترافا صريحا كاملا ، ثم مواجهة المشكلة ودراسة جديدة ، ونحدد موقفنا ازاءها تحديدا دقيقا .

فالامر يتصل اتصالا وثيقا بالمحافظة على قيمنا ، وصيانة تراثنا من العبث وسوء التصوير ، وربما كان من الخطأ فيما مضى أن ننجاعل وجود المستشرقين وأن نغض الطرف عن نشاطهم ومؤلفاتهم ومؤتمراتهم ، ولكن افكارهم غثها وتمينها ، صحيحها وسقيمها ، قد تسربت فعلا الى اجسواء البلاد الاسلامية ، واحتلت عقول الناس فيها ، واكتسبت منهم انصارا ودعاة وناسرين ، ولهذا لم يبق لنا عذر في الاستمرار في سياسة التفاسي والتجاهل السابقة الذكر ، واصبح من الواجب المحتوم أن ننهض دون توان او تردد لدراسة هذه الحركة دراسة علمية فاحصة ، وأن نبين اهدافها حتى نكون على بينة من كل ما يكتب وما يقال عنا وعن بلادنا ، وعن تاريخنا ، فان كان حقا قبلناه ، وان كان باطلا رددناه .

والمستشرقون اصطلاح واسع يشمل طوائف متعددة تعمل في ميادين الدراسات الشرقية المختلفة ، فهم يدرسون العلوم والفنون والآداب والديانات والتاريخ وكل ما يخص شعوب الشرق مثل الهند وفارس والصين واليابان والعالم العربي وغيرهم من أمم الشرق .

وبادىء ذي بدء لابد أن نلقى نظرة سريعة على تطور العلاقات بين الشرق والغرب أو بمعنى أصح بين المسيحية والاسلام ، ثم نبين الأسباب التي دعت الغرب الى الاقبال على الحضارة الاسلامية ودراسة ، وبيان نوعية الحضارة التي ازدهرت في بلاد الشرق ، ثم كيفية عبورها الى الغرب الاوربي ، واقبال العالم الغربي عليها ، وانشائه للمدارس والجامعات والمراكز الثقافية المختلفة التي اهتمت بعلوم الشرق .

العلاقات بين الشرق والغرب :

يهمنا فى أمر هذه العلاقات العلاقة بين الاسلام والمسيحية : وهو ما يهم بحثنا . فالمعروف أن الاسلام الذى بزغ نوره فى شبه الجزيرة العربية على يد أشرف الرسل محمد صلى الله عليه وسلم صادف معارضة قوية من الديانة المسيحية التى انتشرت فى بلدان الشرق والغرب .

لذلك بدا الصراع بين الديانتين يأخذ طريقه الى الظهور بعد استقرار الدعوة الاسلامية . فى الدور المدنى . وتأسيس الدولة الاسلامية فى المدينة المنورة . هذه الدولة التى أمرها الله سبحانه وتعالى بنشر الدعوة ليس فقط بين عظماء بني عاليا . لذلك بدأت تدق ابواب الدول المجاورة مسلمة فأرسلت كتباً تدعوهم الى هذا الدين الجديد .

أرسل الرسول كتب الدعوة الى كسرى فارس . وهرقل امبراطور الدولة البيزنطية والنجاشي فى الحبشة والقوتس عظيم القبط فى مصر والحارث الغساني . ولما لم يؤت هذه الدعوة نمارها اضطر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينفذ أمر ربه وان يخرج بدعوته عاليا .

لذلك خرجت القوات الاسلامية — بعد انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الاعلى — الى ملاقاتة الدول العظمى فخرجت الجيوش الى الميدانيين الفارسي والرومي فبدأت بالعراق فظلت الدول الفارسية تنساقط حتى انتهى ملك كسرى ، واستولى المسلمون على جميع بلاده وممتلكاته ودانت الأرض لهم .

وفى ميدان الروم سقطت ولايات الشام ، ومصر وشمال افريقيا فى حوزة المسلمين ، فبذلك تضعف ملك الروم ، وفقدوا أهم ولايات لهم فى الشرق ، هذه الولايات التى كانت تعتبر المورد الاقتصادى الهام ، حيث كانت تمدهم بالغلل والحبوب . خاصة القمح . كما أن بلاد الشام بالذات تمثل أهمية كبرى عندهم لأن بها كنيسة القيامة المقامة فى القدس ، والتى شيدتها القديسة هيلانة ام الامبراطور قنسطنطين الكبير فى القرن الرابع الميلادى ، كما كان يوجد بها صليب الصلبوت وهو أهم أثر مسيحي

عندهم في الشرق . وكان المسيحيون يحجون الى القدس ويزورون كنيسة
التيامة . فضياع القدس وتسلم المسلمين لها ، جعلت قضية الصراع بين
الإسلام والمسيحية قضية سياسية وعقائدية فلذلك بدأ الصراع يأخذ اشكالا
، خلفه بن الحاتين . كل منهما يحاول ان يخضع الآخر لنفوذه .

الصراع بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية :

تجاورت الحدود الإسلامية البيزنطية . بعد انتقال مركز الخلافة
الإسلامية من المدينة المنورة الى دمشق في عصر الدولة الأموية . فكان لابد
من حدوث صدام مستمر بين الجانبين ، فلم تتوقف الحملات التي كان يبعث
بها الأمويون محاولين اسقاط القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ،
خاصة في عهد معاوية بن أبي سفيان الذي كثرت في عهده السـوـاـتـي
والصوائف التي أعدها لمحاربة البيزنطيين ، كما كثر المرابطون على الثغور
الإسلامية ، وتلا عهد معاوية في الأهمية عصر سليمان بن عبد الملك الذي
شهد المحاولة الكبرى لاسقاط القسطنطينية على يد أخيه مسلمة بن عبد الملك
٧١٧ — ٧١٨ م ، ولكن الفشل حاق بهذه الحملة كما حاق بسابقتها نتيجة
سوء الأحوال الجوية وعدم تعود المسلمين على العيش في مثل هذه الظروف
الطبيعية ، الى جانب التقدم الحربي البيزنطي واختراعهم للنار الإغريقية التي
أتت على سفن المسلمين .

ولم يؤد سقوط الدولة الأموية في دمشق وانتقال العاصمة الإسلامية
الى بغداد الى توقف عمليات الصراع بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية
فقد حاول البيزنطيون استغلال الظروف السياسية الموجودة في الدولة
الإسلامية من سقوط الأمويين ، واعتلاء العباسيين الخلافة ، فأخذوا يمدون
نفوذهم في آسيا الصغرى وأرمينيا ، ولكن العباسيين وجهوا نظرهم تجاه
الدولة البيزنطية ، وبعثوا بحملات كان النصر فيها حليف المسلمين وقد
تركزت الحملات في عهد الخليفة المهدي الذي وصلت الجيوش في عهده
الى حدود القسطنطينية ، وأوقعوا بالجيوش البيزنطية خسائر فادحة قدرها
المؤرخون بأربع وخمسين ألف قتيل وخمسة آلاف أسير (١) .

(1) Finlay «History of The Byzantine Empire» pp. 140—117.

كما برز الصراع بين الدولتين فى عهد هارون الرشيد الذى وصلت حملته الى آسيا الصغرى . واستولت على كثير من الثغور البرية على الحدود بين الدولتين . وكذلك فى عهد المأمون الذى وافته منيته وهو متوجه على رأس حملة الى طرسوس (٢) . وفى عهد المعنصم خرجت حملة كبرى لتأديب البيزنطيين ، وتوجه فى أعماق آسيا الصغرى فاستولى على أنقرة ، وهرقل (٣) ، مما اضطر الامبراطور البيزنطى توفيلس ٨٢٩ — ٨٤٢ م الى الاستنجاد بملوك أوربا فاستنقذ بدوج البزنطية وملك الافرنج وبالامويين فى الاندلس وحقق المعنصم على البيزنطيين نصرا عظيما فى عمورية .

ولم تنقطع المناوشات بين المسلمين والبيزنطيين بعد المعنصم ، بل استمرت الفارات من الجانبين ، واستمر ضغط المسلمين على حدود الدولة البيزنطية متمثلا فى غزوات دورية . وكانت هذه الغزوات عاملا على العناية بالثغور والأربطة حيث كان يربط المجاهدون فى سبيل الله استعدادا للغزو ولدافعة الأعداء (٤) .

ثم حدثت جولة ثانية فى الصراع مع الدولة البيزنطية فى عهد بنى حمدان أمراء حلب ، وذلك منذ منتصف القرن العاشر الميلادى .

وبدأ الخطر الحقيقى يقيق بالدولة البيزنطية على يد السلاجقة الذين أخذ فرع منهم يتوغل فى آسيا الصغرى ويستوطن بها ومن ثم سـمـموا بسلاجقة الروم ، وكان من جراء هذا الخطر أن استنجد البيزنطيون بالصليبيين وكان ذلك من اسباب الحروب الصليبية .

ثم ظهر الاتراك العثمانيون على مسرح التاريخ فقتلوا على السلاجقة ، واستولوا على القسطنطينية نفسها سنة ١٤٥٣ م ، وبذلك قضى نهائيا على الدولة البيزنطية .

(٢) ابن الاثير « الكامل » ج ٦ ص ٧٦ .

(٣) ابن الاثير « الكامل فى التاريخ » ج ٦ ص ١٥٤ .

(٤) حسن الباشا « دراسات فى تاريخ الدولة العباسية » ص ٩٥ .

الحروب الصليبية :

تعتبر الحروب الصليبية حلقة جديدة في سلسلة حلقات الصراع العقائدي بين الاسلام والمسيحية .

والحروب الصليبية هي تلك الحملات التي قام بها الغرب المسيحي على الشرق الاسلامي مستترا بقناع الدين لاسترجاع الاراضي المقدسة وكنيسة القيامة ، راغبا في الحصول على خيرات الشرق والتحكم فيه ، بل هو محاولة مبكرة للنزعة الاستعمارية .

ويحدد المؤرخون الفترة من ١٠٩٥ — ١٢٩١ م تاريخا للحملات الصليبية ولكن الواقع كما ذكرنا أن الصراع الاسلامي المسيحي كان أقدم من ذلك بكثير . فما ذكرناه من الصراع مع البيزنطيين ومحاولتهم هدم الاسلام في الشرق ما هو الا حروب صليبية ، وما قام به الفرنجة في الغرب ضد مسلمي الاندلس خاصة شارل مارتل وشارلمان ، وما صورته انشودة رولان من صراع اسلامي مسيحي ووصف المسلمين بأنهم كفرة ، وسوء تصوير الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم . كل ذلك يبين على أن هذه الحروب كانت ذات طابع صليبي ، الى جانب ما قام به بابوات الغرب وحكامه في القرنين التاسع والعاشر لصد الغارات الاسلامية على شواطئ أوروبا (٥) .

والمهم في أمر الجهود التي بذلها المسيحيون في حرب المسلمين هو أنها اتسمت بالطابع الديني ، فدعا اليها رجال الدين ، وتعهدها البابوات برعايتهم مما جعل فكرة الحروب الصليبية تنشأ في أول أمرها مرتبطة بمبدأ محاربة المسلمين ودفع خطرهم أينما كانوا (٦) .

لذلك فإن العلاقة الحربية بين الاسلام والمسيحية طوال هذه الفترة وسعت فجوة العداء بين المسلمين والمسيحيين ، وجعلتهم يعملون ما في

(5) Runciman. A, history of the Crusade. Vol I P. 88.

(٦) سعيد عاشور « أوروبا العصور الوسطى » ج ١ ص ٤٢٦ .

فى وسعهم لنشر الفكر المسيحى وتشويه سمعة الاسلام والمسلمين فى جميع
مؤلفاتهم ، خاصة الكتابات التاريخية .

والدليل على ذلك ان جميع مؤلفات هذه الفترة تصف المسلمين بانهم
« الكفرة » « والسراسنة » وكانت تلصق بهم ابشع التهم واسوأ الفعال ،
وكتب الحروب الصليبية كثيرة ومملوءة بهذه المعانى ، وهى تعبر عن حقد
دفين بين الطرفين .

هذه هى طبيعة العلاقات بين الشرق والغرب فى فترة الحروب
الصليبية ، فهل من المعقول ان ننتظر ان تكون كتابات المستشرقين فى هذه
الفترة فى صالح الاسلام ؟؟ فالحقيقة التى لا مفر منها ان هؤلاء الغربيين
بدأوا ينفسون عن حقدهم فى كل ما يكتبونه من مؤلفات .

وبدا حكام الغرب بعد هزيمتهم فى الشرق يتلقفون أية ذكـرة تخدم
اغراضهم للنيل من الشرق وزعزعته ، وقد افوا فى عمل المستشرقين فرصة
ذهبية لتحقيق ما فاتهم وضاع منهم فى بلاد الشرق ، فأخذ الملوك يراعون
نشاط المستشرقين ويمهدون أمامهم طريق دراسة الشرق والاحاطة بتراته
العلمى على اختلاف أنواعه (٧) .

وقد ذكر الكونت غيليب دي طرازى فى الجزء الثانى من خرائته « ان
فى مكتبة السير بلبثان مخطوطة من كتاب « وفيات الاعيان » لابن خلكان على
هامشها حاشية بقلم أبى النصر الخازن تنصل فرنسا فى بروت فى منتصف
القرن السابع عشر خلاصتها انه فى سنة ١٦٧١ م أرسل على الجناب
الملك لويس الرابع عشر رسله الى جميع بلدان الاسلام لشراء المخطوطات
الاسلامية « لا معنى له سوى الدراسة المفرضة ، وطعن الاسلام دلعنة نافذة
عن طريق عرضه فى صورة مشوهة (٨) .

الاستعمار الحديث :

تعاقبت على الدولة الاسلامية حكومات متعددة ، وظروف مختلفة
أدت الى تخلف هذه الدولة ، والى جمودها واعادتها الى الوراء هذا فى

(٧) محمد الدسوقي « الاسلام والمستشرقون » ص ٢٣ .

(٨) منير البعلبكي « دفاع عن الاسلام » ص ٤٥ .

الوقت الذى استطاعت فيه أوربا أن تنفض عن كاهلها جهالة العصور الوسطى ، وعصر سيطرة الكنيسة الكاثوليكية والبابوية على عقلية الناس ، وبدأت تفترق من الحضارة الإسلامية ، وتتعمق وتؤلف وتزيد وتبتكر حتى وصلت الى مرحلة النهضة الأوروبية العظمى التى شهدتها فى القرون الخامس عشر .

وبعد أن وصلت أوربا الى هذه المرحلة من النضج والاكتمال فى شتى المجالات بدأت النظر الى العالم الإسلامى الذى أصابته هذه النكسة السياسية والحضارية ، لتنفس عن حقدتها القديم ، ولتعيد مرة أخرى سلسلة من مراحل الصراع بين الشرق والغرب بعد أن شعرت أن الظروف فى صالحها .

وقد بدأت المنافسة بين كل من إنجلترا وفرنسا وما وافى القرن التاسع عشر حتى اتسعت رقعة الامبراطورية البريطانية وبلغت حسدا لم يعرف غيرها فى التاريخ ، وفيه أخذت كل من ألمانيا وإيطاليا بنصيب فى الاستعمار ولم أنهما دخلتا هذا الميدان متأخرتين بالنسبة لظروفهما الخاصة .

وقد اختلطت الاهداف الكبرى من وراء تشجيع رجال الدين للسياسة الأجانب لاحتلال بلاد الشرق التى تحوى المقدسات الدينية ، معوضين الخسائر التى منى بها الغرب مرارا وتكرارا فى اعتدائه على الشرق خاصة فى فترة الحروب الصليبية . لذلك وجدت اهداف أخرى لاستعمار الغرب للشرق أهمها ايجاد أقاليم جديدة تصلح لسكنى عدد وغير من السكان الزائدين عن حاجة البلاد الأصلية ، ثم فتح أسواق جديدة متعددة لتصريف البضائع المتراكمة الناشئة عن التقدم الصناعى فى هذا العصر ، وكذلك اعداد مراكز لاستخراج المواد الأولية التى تحتاج اليها البلاد الصناعية ثم ال غدة عن الاستلاء على جهات معينة بقصد تأمين طرق المواصلات كاحتلال إنجلترا لمصر . هذا الى أن كثرة الاستكشافات فى إفريقيا وآسيا واستراليا فى هذا العصر نبهت دول أوربا الى هذه الجهات المجهولة واستنفزت أطماعها لوضع يدها عليها ولا سيما أن فكرة تكوين امبراطوريات واسعة كانت قد تملك عقول معظم كبار السياسيين فى القرن الماضى (٩) .

(٩) محمد عبد الرحيم مصطفى « تاريخ مصر الحديث » ص ٣٠٩

وقد انتهز الاستثمار الأوربي فرصة تواجده بين ظهراني الشعب الإسلامي وبدأ يعمل على نشر حضارته العلمية والعملية في بلدان الإسلام، مما جذب أهل هذه البلاد وجعلهم يتهافون على هذه الحضارة متغافلين عما تحمله في طياتها من سموم .

وأكثر الغربيون من إنشاء المدارس التبشيرية والمكتبات وإصدار الدوريات التي تعبر عن آرائهم وتذيع أفكارهم ، وكانوا يراعون فيها جمال الإخراج وجودة الطباعة لتجذب الأنظار وتستقرى الانتباه ، وقد أصبح لهذه الدوريات مكانتها الملحوظة ، وأثرها البارز في عالم التربية والثقافة، ولم يقتصر نشاطهم على إصدار الدوريات ، بل قاموا بكتابة الأبحاث العديدة في كل ما يتصل بالشرق ، وبذلوا في هذه الأبحاث الجهد والمال والوقت وكل همهم صرف أنظار المسلمين عن تراثهم والاتجاه نحو هذه الدراسات والاعتماد عليها في معرفة تاريخ المسلمين وعقائدهم حتى ننسلخ بمضي الزمن تاريخنا وعقائديا ونصبح غداً دون روحاً وفكراً (١٠) .

هذه هي طبيعة العلاقات بين الشرق والغرب ، العلاقات التي كان الدين دائماً ، في العصور الوسطى ، هو محركها ، ولكن بعد أن اصطبح الشرق والغرب بصبغة المدينة الحديثة بدأوا يبعدون عن هذا الهدف وبدأ يميز العلاقات بينهما فيما بعد علاقات من نوع جديد فيها مصالح مشتركة للطرفين .

والمعروف أن الغرب الذي كان يسيطر عليه في العصور الوسطى . أفكار الكنيسة فقط ورجال الدين ولم يميز ثقافتهم غير هذا الفكر اللاهوتي ، بدأ يحتك بالشرق عبر سبل ومعايير معينة نقلت حضارة الشرق إلى الغرب، مما أدى إلى اهتمام الغرب بدراسة علوم الشرق وآدابه وفنونه وساعد على نشأة حركة الاستشراق .

لذلك نرى أن معايير الحضارة هذه هي السبب الأول في ظهور حركة الاستشراق وهذه المعابر هي الإنديس ، صقلية ، بلاد الشام وقت الحروب الصليبية .

(١٠) محمد الدسوقي « الإسلام والمستشرقون » ص ٣٤ .

١ — بلاد الأندلس :

بلاد الأندلس أهم معبر للحضارة الإسلامية الى الغرب : فبعد أن تم للعرب فتحها سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م ظلوا قائمين فيها وأصحاب سيادة عليها حتى تم سقوط دولة بنى الأحمر العربية الخرجية في غرناطة ٨٩٧ هـ ١٤٩٢ م أي بعد نحو ثمانية قرون .

وقد راقى للعرب الأقامة بالأندلس وظنوا انفسهم خالدين فيها . فغننوا في اتقان دورهم وتنسيق حدائقهم ، وشيد الامراء والخلفاء مئات المساجد والقصور والابرار والحمامات والحدائق ، وأدخلوا الى الأندلس الأساليب الزراعية التي عرفوها في الشرق ، وجاعوها بأشجار وأغراس ازاهير من دمشق ومصر وأفريقيا والهند وعنوا بالصناعات على اختلاف أنواعها . حتى اذا تم لهم بناء الأندلس السياسي والاقتصادي والاجتماعي سعوا الى التشبه بالعباسيين في ارساء ملكهم على أسس من الفنون والآداب والعلوم ، فأسسوا المدارس وحبسوا الأموال عليها وخرجوا في طلب الكتب الى الشرق وملأوا مكتباتهم الخاصة منها ، ما خلا خزائن بعض المساجد (١١) .

ووفد على قرطبة ثم على غيرها من حواضر الأندلس أهل الفن والآداب والعلم من الشرق والغرب وعنوا بتفاصيلها تفسيراً واقتباساً وتصنيفاً ، واختلفوا الى مجامع كمجامع اليوم للجدل والمناظرة .

يقول البارو القرطبي في كتابه الدليل المنير : « وأقبل أهل مالقة على معنفات المسلمين في الآداب والفقه والفلسفة تثقيفاً بثقافتها لا للرد عليها ، وبذلوا أموالاً طائلة في تأسيس مكتباتها ، وبنطبق قوله على المستعربين في الأندلس قاطبة ، الذين جروا على عادات المسلمين في نظام الحريم وختن الأولاد واتقان العربية واستعمال حروفها لكتابة اللاتينية . ثم على الخاصة النصارى وقد آثروا أسماء العرب ولغتهم وثقافتهم ، وفي طليعة هؤلاء رجال الدين فاختلجوا الى مدارس المسلمين ومجامعهم ومكتباتهم ، ثم تبعوا في أديارهم ينقحون ذلك التراث ويترجمونه ، ويفسرونه ويصنفون فيه ويتبعونه بين الرهبان وطلاب العلم ، فينتشر انتشاراً سريعاً بفضل

(١١) نجيب العقيلي « المستشرقون » ج ١ ص ٨٨ .

(م ٢ — الاستشراق)

مدارسهم في ادبار اريبول حيث تعلم الاب جرير وترجم الى اللاتينية من مخطوطات مكتبتها المصنفات الرياضية والفلكية كالزيج المنصوري — وسان كوجات ، وسان ميليان وثيلانوبا ، وسائر مدارس المستعربين في قرطبة (١٢) .

ومنذ القرن العاشر حملت الكاتدرائيات المعباء الاكبر عن الانيار فذاعت شهرة مدارس : اوبيدو ، وليون ، وبيك ، وخيرونا ، وبرشلونة ، وسانتياجو دي كوبوستيلا ، وقامت مثيلات لها في بارس وشارتر وأورليان وتور ولان وريمس وفي كبرى مدن ايطاليا وانجلترا وبلجيكا وغيرها ، ثم انشأ الرهبان الفرنسيون دير عكا ١٢٢١ م وعلم العربية فيه الاب روبرك ومدرسة ميرامار ١٢٧٦ م فأشرف عليها رايوند ولوليو خلال عشر سنوات وتعلم فيها العربية أحد عشر راهبا . وقد عاون لوليو رايوند ومارتيني الدومينيكي وأستأنف نشاطه دي ليرا الفرنسيون في القرن الرابع عشر وقرر مجمع طليطلة سنة ١٢٥٠ م الاتفاق على ثمانية من الرهبان الدومينيكيين على رأسهم رايوند ومارتيني خلا نفر من زملائهم أرسلوا الى باريس لتعلم اليونانية والعربية والعبرية فيها سنة ١٢٥٥ م ثم كلفهم مجمع بلنسية ١٢٥٩ م تأسيس مدرسة للعربية والعبرية في قطالونيا سنة ١٢٦١ م وقد صنف أحدهم غلبوم الطرابلسي كتابا عن الاسلام .

وانتشرت مدارس الرهبان العربية في اشبيلية سنة ١٢٥٠ م وميورقة سنة ١٢٥٥ م وبرشلونة سنة ١٢٥٩ م وبلنسية سنة ١٢٨١ م ، وجاتيكا سنة ١٢٩١ م وقد تطور بعض مدارس الكاتدرائيات الى جامعات ونالت على غرارها حقا العلوم في مساعدة البابوات والملوك .

وقد ظلت طليطلة طوال عشرين مائة ملقى طلاب العلم من انجلترا وفرنسا وايطاليا والمانيا يفدون عليها وينهلون من الثقافة العربية فيها ثم يرجعون الى بلدانهم فيذيعونها بين أهلها (١٣) .

ولم يقف رجال الدين والمثقفون عند الترجمة من العربية ، بل نقلوا

(١٢) انجب العتقى « المستشرقون » ج ١ ص ٩٨ .

(١٣) المرجع السابق .

اليها وكتبوا وصنفوا فيها . كما ترجمت عن العربية بعض مؤلفات اليونانيين مثل كتب جالينوس وبقراط وافلاطون وارسطو واقليدس وغيرهم . وقد وجد من حكم اسبانيا المسيحيين من قدروا الثقافة العربية الاسلامية ومن هؤلاء الفونس الخامس ملك قشتالة وليون (١٢٥٢ — ١٢٨٤ م) الملقب بالحكيم (١٤) فقد قام بانشاء معهد للدراسات العليا في مرسية ، واختار له اعلام المسلمين والنصارى واليهود ثم نقله الى اشبيلية والحق به مجععا علميا لمزج الحضارتين الاسلامية والمسيحية في حضارة اسبانية موحدة ، كما حافظ على طابع طليطلة في مركزها الثقافي العالمى ، وجمع حوله العلماء وعهد اليهم بالترجمة بالتصنيف وكان يشرف بنفسه على التوجيه والتحرير والتلخيص ، فترجم الى الاسبانية الانجيل والقرآن والتلمود والقبالة وسر الاسرار المنحول لارسطو ثم كتاب كيلة ودمنة .

وعبرت الثقافة العربية بفضل الرهبان ولا سيما المتحقيقين بدير كلونى واللاجئين الى فرنسا — جبال البرانس والالب الى فرنسا وايطاليا وانجلترا والماتيا ثم استقرت في اشهر مراكزها .

٢ — صقلية وجنوب ايطاليا :

دخلت صقلية تحت حكم المسلمين بعد ان تمكن الاغالبة من الاستيلاء عليها سنة ٢٦١ هـ .

وقد تتابع الحكم الاسلامى على صقلية واستقرت الاوضاع فيها في القرن التاسع الميلادى ، لذلك بدأت هذه الجزيرة تحتل دورا هاما في الحضارة الاسلامية ، واصبحت من اهم المعابر الحضارية الى اوربا .

ولعل موقع صقلية جنوب ايطاليا قد جعلها قبلة للايطاليين ، ومركزا للدراسات اللاتينية واليونانية القديمة ، فكانت مكتباتها تحتوى على عدد ضخم من الكتب والمخطوطات القديمة . الى جانب انتشار الاسلام والاستقرار الاجتماعى والاقتصادى واطراد العلاقات بين مدارس صقلية ومدارس العالم الاسلامى الأخرى ، ثم التلاحم بين التقاليد العربية والتقاليد

(١٤) سعيد عاشور « النهضة الاوربية » ص ٣٢٩ .

الاعريقية الجديدة التي ازدهرت في عهد البيزنطيين وكانت لا تزال قوية
بشرق صقلية .

وكانت لصقلية صلات علمية وثيقة بالقيروان والأندلس والقاهرة ، ثم
استقلت المدرسة الصقلية ، وكانت بلرم هي الحاضرة الثقافية أكثر البلاد
امتلاءً بالمساجد والمدارس ، وقد كثر المعلمون حتى كان منهم في بلرم ما
يقل عن ثلاثمائة .

وقد ظلت صقلية قلعة للحضارة الإسلامية طوال العصر الإسلامي ،
وظل الحال كذلك بعد سقوطها في يد النورمان سنة ٤٤٤ هـ .

عندما أدخل النورمان صقلية وجدوها قلعة ثقافية وحضارية متقدمة
في جميع المجالات الزراعية والصناعية والتجارية ، لذلك فقد كان ملوك
النورمان على درجة كبيرة من الوعي ، فلم يسيئوا إلى هذه الحضارة ، ولم
يقتلوا أمام تطورها بل أصبحوا هم عاملاً مساعداً على الاهتمام بالعلماء
والأدباء ورجال الفكر ، وجعلوا من قصور أمارتهم كعبة يقصدها كل طالب
علم .

وقد برز من ملوك النورمان ، الذين يعتبرون أملاً ملوكاً علمانيين في
أوروبا ، شجعوا على حركة الاستشراق بعيداً عن العامل الديني ، وكانت
تحدوهم الرغبة العلمية الحقيقية والحب لكل ما هو شرقي برز منهم
روجر الأول (١٠٦١ - ١١٠١ م) الذي شمل العرب بعنابته ، وأحسن المحافظة
عليهم وحمايتهم ، بل كتب مراسيمه بالعربية إلى جائب اللاتينية واليونانية ،
كما أن بعض نقوده اشتمل على رمز الإسلام والبعض الآخر علم شمساً
المسيحية (١٥) .

وبرز كذلك روجر الثاني ، الذي لقب بملك الصقليتين ١١٣٠ - ١١٥٤ م
الذي ارتدى ملابس شيوخ المسلمين وكتب على حلة التتويج عبارة بالخط
الكوئي والتاريخ الهجري (٥٢٨ هـ / ١١٣٤ م) وشيّد المباني على الطراز

(١٥) سعيد عاشور « النهضة الأوربية » ص ٣٢٦ .

العربى ، وعاون على تأسيس مدرسة الطب فى سالونو ، وترك للعرب واليهود حريتهم الدينية والثقافية (١٦) .

أما أشهر شخصية فى التاريخ الصقلى فهى شخصية الامبراطور فردريك الثانى الذى اشتهر اسمه فى التاريخ كقائد للحملة الصليبية السادسة التى توجهت الى بلاد الشام .

كان فردريك الثانى مولعا بالثقافة الشرقية لأنه تربى فى كنفها ، واناض المؤرخون فى وصفهم لحب فردريك للمسلمين واعجابه بحضارتهم وعلومهم وتقريبه لهم واستخدامهم فى حاشيته حتى ان المؤذنين المسلمين كانوا يؤذنون للصلاة لكل فرض فى معسكره (١٧) .

كذلك ذكر المقرئى أن فردريك كان « عالما متبحرا فى علم الهندسة والحساب والرياضيات » (١٨) . والمعروف تاريخيا ان هناك صداقة قوية قامت بين سلطان مصر الايوبى الملك الكامل ، وبين الامبراطور فردريك لشدة نوافق طباعهما ، مما دفع بعض الكتاب الى اتهام فردريك الثانى بممالة الاسلام على حساب المسيحية (١٩) . لذلك فان رعاية ملوك النورمان للحضارة الاسلامية والعلوم الاسلامية ادى الى زيادة الاهتمام بالاستشراق وعلوم الشرق وأصبحت صقلية بذلك اهم مراكز الاستشراق فى الغرب الأوربى .

٣ — بلاد الشام زمن الحروب الصليبية :

تأتى بلاد الشام زمن الحروب الصليبية فى الاهمية الثالثة بعد الاندلس وصقلية كمعبر من معابر الحضارة الاسلامية الى الغرب ، وكمؤثر فى نشأة حركة الاستشراق فى أوربا .

ولابد لنا من توضيح وجهة نظرنا هذه فى ضوء الحقائق التاريخية .

-
- (١٦) نجيب العقيقى « المستشرقون » ج ١ ص ١٠٨ .
(١٧) سعيد عاشور « الحركة الصليبية » ج ٢ ص ٩٩٦ .
(١٨) المقرئى « السلوك » ج ١ ص ٢٣٢ .
(١٩) سعيد عاشور « الحركة الصليبية » ج ٢ ص ٩٩٦ .

فالمعروف أن العلاقة بين الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية كانت عدائية مطلقة ، فالغرب يخطط عسكريا لفزو الشرق والاستيلاء على المناطق المقدسة ، واحراز انتصارات عسكرية ، وكسب اراضى جديدة ومستعمرات ، لذلك فقد نقل الى الشرق جميع الدبلوماسية العسكرية الغربية وفنون القتال المختلفة ، وما شاع فى الغرب من بناء الحصون والقلاع والابراج ، وبدأ يأخذ من الشرق فنون الاستحكامات والخطط الحربية ، وبناء السلاسل والمخاضات .

وليس معنى كلامنا هذا أن التبادل الثقافى بين الطرفين انصدم فى فترة الحروب الصليبية ، ولكن المعروف أن هذه الحروب كان يتخللها فترات هدن طويلة فخلال هذه الفترات كان الطرفان يعيشون فى سلام مع بعضهم البعض الى درجة أن بعض الفرسان الصليبيين قامت بينهم وبين الفرسان المسلمين علاقات مودة وصداقة مثلما حدث مع الأمير أسامة بن منقذ من قلعة شيزر وبين فرسان الصليبيين ، وقد دون أسامة بن منقذ فى كتابه « الاعتبار » وصفا مفصلا لأخلاق الصليبيين وعاداتهم ووصفهم « بأنهم بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير » (٢٠) .

وقد أخذ الصليبيون عن أهل الشرق نظما زراعية كثيرة متقدمة فنقلوا الى أوطانهم نباتات وحاصلات وأشجارا جديدة لم يعرفوها من قبل كالسمسم والخروب والذرة والارز والليمون والثوم (٢١) . وفى مجال الصناعة نقلوا صناعة الزجاج عن أهل صور حتى أن الانتاج الصناعى الاوروبى ظهر بعد ذلك وعليه المؤثرات والتعبيرات الاسلامية (٢٢) ، وقد تعلم الغرب من الشرق طريقة الرسم بالحفر مما كان له أكبر الأثر فى التطور العظيم الذى حدث فى عصر النهضة الاوربية كما تعلموا كثيرا من صناعة المنسوجات مثل صناعة الحرير والكتان الذى اشتهرت به بلاد الشام (٢٣) .

(٢٠) أسامة بن منقذ « الاعتبار » ص ١٣٢ .

(٢١) باركر « الحروب الصليبية » ص ١١٧ ،

فيليب حتى « تاريخ العرب » ص ٢٠٤ .

(٢٢) كريستى « تراث الاسلام » ص ٤٧ .

(٢٣) جورج يعقوب « أثر الشرق فى الغرب » ص ٦٢ .

واخذ الغرب عن الشرق صناعة السكر من القصب ، وصناعة الجلود
والسروج ~~صناعة البسط والأثاث والصناعات المعدنية الراقية ، وصناعة~~
الورق وتجليد الكتب ~~والتصوير الاسلامي~~ (٢٤) .

ومن الملاحظ أن الصليبيين قد تزيوا بآزياء المسلمين من عمامه وقنطان
وشادوا بيوتهم على غرارهم ، وأكلوا التوابل والسكر مثلهم ، واتخذوا
البواشق والخيول وكلاب الصيد لقنصهم ، ونقلوا عنهم اصطناع النشابة
المصلية وتقلدوا الدروع والجببة العسكرية قوشارات الفرسان والاوزمة ،
والطنبور في الموسيقى العسكرية ، والحمام الزاجل لنقل أخبارهم واشغال
النار احتفالا بالظفر ، وحفلات السيف ورمي الجريد ، وأضافوا في المعمار
الطراز الشامى البيزنطى الى النمط القوطى ، اى الشرقى المحور فى بناء
أديارهم وكنائسهم وقصورهم وفنادقهم وحماماتهم وأثشوها بالرياش
الشرقى (٢٥) .

أما عن المجال الثقافى فقد تعلم الصليبيون عن المسلمين اللغة العربية،
واستعملوها لغة للتخاطب اليومى ، وحملوا معهم الى الغرب الكتاب الملكى
فى الطب لعلى بن عباس الذى نقله اسطفان الانطاكى وهو من بيزا سنة
١١٢٧م وترجمته أصدق من ترجمة فنسطنطين الافريقى ، وأضاف اليه كشافا
يونانيا عربيا لاتينيا للمصطلحات التى استعملها ديوسقوريدس ، البندقية
١٤٩٢م وليون سنة ١٥٢٣م) وقصة كأس العشاء السرى ، وكليلة ودمنة،
وتأثر شوسر بألف ليلة وليلة وبوكاتشيو بالخطابات الشرقية فى كتابه
ديكامرون وعثر فيليب الطرابلسى فى انطاكية سنة ١٢٤٧م على مخطوط
سر الأسرار بالعربية المنسوب خطأ الى أرسطو فترجمه الى اللاتينية فأضحى
أكثر المنقولات تداولاً فى العصر الوسيط (٢٦) .

وثمة نقطة هامة تفيدنا فى الدور الذى قامت به البابوية فى الغرب
لنشر المسيحية بالطرق التبشيرية المختلفة ، بعد أن أعيتها الوسائل الحربية

(٢٤) فيليب جتى « تاريخ العرب » ص ٢٠٤ .

(٢٥) نجيب العقيتى « المستشرقون » ج ١ ص ١٣٧ .

(٢٦) المرجع السابق ص ١٣٩ .

فى هذا السبيل . لذلك فقد كان من نتائج الحروب الصليبية أن قامت البابوية بإرسال البعثات التبشيرية لنشر مبادئ المسيحية بين المسلمين وتنفيذ سياستها عن طريق الاقتناع بعد أن رأت الجهود والتضحيات التى بذلتها فى الحروب الصليبية . وخيف أنها ضحت بالأموال دون أن تحصل على نتيجة واضحة . وكان أن بدأت جهود المبشرين للتبشير بالمسيحية بين المسلمين فوصل القديس فرانسيس الى مصر سنة ١٢١٩ م . وقدم مواظبه الدينية فى حضرة السلطان الكامل ، ثم استمر أتباع ذلك القديس — فضلا عن أتباع القديس دمنيك — يواصلون جهودهم فى النصف الأول من القرن الثالث عشر مؤملين أن ينجحوا فى نشر المسيحية بين المسلمين عن طريق الاقتناع . واتخذت هذه الحركة التبشيرية اتجاها جديدا عندما فكر لويس التاسع ملك فرنسا فى نشر المسيحية بين المغول جميعا . كذلك أشار لويس التاسع على البابا انوسنت الرابع بإنشاء جمعية التبشير الأولى سنة ١٢٥٣ م وهى الجمعية التى ضمت عددا كبيرا من المبشرين الفرنسيسكان والدومينكان . على أن أعظم شخصية فى هذه الحركة التبشيرية فى القرن الثالث عشر كانت شخصية أريمووند لسول Raymond Lul وهو أسبائى كرس حياته لمهمة التبشير بالمسيحية بين المسلمين بالذات . فأقنع ملك ميورقة بإنشاء كلية الثالوث المقدس فى سنة ١٢٧٦ م وهناك أخذ يعد مجموعة من المبشرين للقيام بمهمتهم ، وأهم وسائل هذا الإعداد كانت تعليمهم اللغة العربية . وبعد أن قضى ريموند عشر سنوات فى إعداد أعوانه أوغددهم الى شمال أفريقيا فضلا عن بلاد المغول والأرمن للتبشير بالمسيحية الكاثوليكية . وبفضل جهوده قرر مجمع فينسا سنة ١٣١١ م إنشاء ستة معاهد لتدريس اللغات الشرقية فى أوروبا ، وذلك لأنه لا يمكن للمبشر أن ينجح نجاحا مضمونا الا اذا عرف لغة القوم الذين يبشر برسالته بينهم .

ومهما يكن من أمر ، فإن اتساع حركة التبشير بالمسيحية بين الشعوب غير الأوروبية جاءت من نتائج الحروب الصليبية ، واذا كانت هذه الحركة لم تحرز نجاحا بين المسلمين وغيرهم من الشعوب فى منطقة الشرق الأدنى

فإنها استمرت حتى أحرزت بعض النجاح فيما بعد في شرق آسيا وبخاصة .
بين البوذيين (٢٧) .

وإذا كانت هذه المعابر الحضارية قد أسهمت في ازدياد معرفة الغرب
بالشرق . واهتمامه بثقافته ولغاته فإن هناك جهات أخرى بدأت تهتم بالشرق
وعلمه وديانته محاولة أن تدرس كل ما يخص هذه المنطقة من العالم ، وتؤلف
المؤلفات التي تهدم هذا العالم وتدمره ، وأن تسمى جاهدة للنيل من الدين
الحنيف الذي ذاع وانتشر ألا وهي البابوية التي تعتبر السلطة الدينية
المسيحية الكاثوليكية في الغرب . ومقرها في الفاتيكان بإيطاليا .

(١) البابوية :

حاولت البابوية أن تتخذ من التبشير بالديانة المسيحية غاية قصوى لها
وأن تعكف على دراسة علوم الشرق وديانته وفنونه وآدابه لتحاربهم
بسلاحهم . فبدأ البابوات والرهبان والاساقفة في الاهتمام بالاستشراق ،
فنظموه واتصلوا بالملوك والأمراء ليساندوهم في حركتهم هذه .

بدأ رجال الدين حركة الاستشراق بدراسة اللغة العربية ثم اليونانية
لتخريج أهل جدل يقارعون الفقهاء والمسلمين واليهود ويردون عليهم
ببراهين من كتبهم أنفسهم في البلاد التي أجلاهم الاسلام عنها وبلغ أوروبا
منها فقصد الفرنسيكانيون المغرب ١٢٢٠ م ، وانطلق الدومنيكانيون سنة
١٢٥٢ م الى بلغاريا ورومانيا والشرق (٢٨) .

فبذلك أصبحت العربية أهم وسيلة في عملية الاستشراق ، فبدأوا
بعلموئها في مدارس اسبانيا وأديرتها وكاتدرائياتها وجامعاتها ، وأسسوا
مدارس للغات الشرقية في عواصم بلدانهم وخصصوا كراسي مستقلة في
كبرى الجامعات لهذا التخصص ، حتى أننا نرى البابا سلفستر الثاني
(ت ١٠٣٣) الفرنسي كان قد حصل على ثقافته العليا في اسبانيا على
أبدى العلماء المسلمين قصد أمر بإنشاء ثلاث مدارس لتعليم اللغة العربية

(٢٧) سعيد عاشور « الحركة الصليبية » ج ٢ ص ١٢٧٨ .

(٢٨) نجيب العتيقي « المستشرقون » ج ١ ص ١١٤ .

فى روما وريمس وشارتر ، ولحماس هذا البابا وأهميته فى تنشيط حركة الترجمة من العربية الى اللاتينية وفى تنظيم وسائلها جعل بعض مؤرخى الغرب عهده بداية لحركة الترجمة فى أوروبا .

توسعت البابوية فى انشاء الكراسى والمدارس والمكتبات والمطابع والمجلات فى ايطاليا وعاون على مثلها فى الغرب والشرق وعلى ترجمة التراث الانسانى عن العربية ثم عن اليونانية واللغات الشرقية والاستعانة بمن يجيدها من النصارى والمسلمين واليهود على نقله نقلا حرفيا ، ثم يعمد رجال دين الى صياغته فى أسلوب لاتينى مبين . ولم يكتفوا بتلك المنقولات فانشأ دون رايموندو الاول رئيس أساقفة طليطلة مكتب المترجمين فى طليطلة ١١٣٠ م وأشرف ميخائيل سكوت على مكتب الترجمة الذى انشأه فردريك الثانى فى صقلية (١٢٢٠ - ١٢٣٦ م) وأعادوا من مكتب الفونسو الحكيم (١٢٥٢ - ١٢٨٤ م) والمصنفات التى أمر الملوك والأمراء بنقلها أو نهض العلماء بها ونشروا جميع ذلك فى مدارسهم ومعاهدهم وجامعاتهم ومنها انتقلت الى مثيلاتها فى أوروبا (٢٩) .

وبدأت ترجمة كتب العرب فى الفلسفة والطب والكيمياء والصيدلة والعلوم الدينية والرياضيات والجغرافيا والتاريخ والفلك والموسيقى وغيرها من العلوم الشرقية المزدهرة ، ثم بدأوا فى انشاء المطابع التابعة للرهبان . من أهم الرهبان الذين ساهموا فى حركات الترجمة لعت أسماء كان لها أهمية كبرى فى نشأة الاستشراق فى الغرب وفى الترجمة عن العربية ونقل تراث الشرق الى الغرب نخص منهم :

١ - جرير دى أولياك : ٩٣٨ - ١٠٠٣ م (٣٠)

راهب دومينيكى فرنسى ، قصد الأندلس فيمن قصدها طلبا للعلم ، فأخذ من علمائها فى مدارس أشبيلية وقرطبة ، ثم رحل الى روما سنة ٩٩٩م وانتخب حبرا أعظم ، وبعد انتخابه أمر بانشاء مدرستين عربيتين الاولى فى ايطاليا وهى مقره الدينى ، والثانية فى ريمس بفرنسا وهى موطنه .

(٢٩) نجيب العقيقى « المستشرقون » ج ١ ص ١١٦ .

(٣٠) المرجع السابق ص ١٢٠ .

٢ — قسطنطين الأفريقى : ١٠٨٧ م (٣١)

الراهب الأفريقى الذى ترجم كتب الطب والفلك من العربية الى اللاتينية عن اسحق بن عمران ، وكتاب العلاج العام لاسحق الاسرائيلى والكتاب الملكى لعلى بن عباس وبعض رسائل الرازى .

٣ — بطرس المكرم : ١٠٩٤ — ١١٥٦ م (٣٢)

اعتنق الحياة الرهبانية ، وكان كثير الاطلاع ، عين سنة ١١٣٣ م رئيسا لدير كلونى ، ثم قصد الاندلس وتثقف بثقافتها ، ثم عاد الى ديرہ يصنف الكتب فى الرد على الاسلام وشجب اليهود ، ويقال انه ترجم القرآن الكريم .

٤ — ادلارد البائى : ١٠٧٠ — ١١٣٥ م (٣٣)

راهب بندكتى جمع معارف فى علوم الطبيعة والفلك والرياضيات ، وتضلّع فى ثقافة العرب ، وترجم كتبهم فى مختلف التخصصات وآمن بمذهبهم فى العلم .

٥ — روبرت الشستري : ١١٤١ — ١١٤٨ م (٣٤)

راهب بندكتى تثقف بالثقافة العربية لاسيما العلوم الرياضية والفلكية منها وقد ترجم اول ترجمة للقرآن استعان فيها باثنين من العرب نشرها ببيلبندر فى ثلاثة اجزاء ، وترجم فى الجبر والمقابلة للخوارزمى والكيمياء والفلك الذين يعتبران فاتحة العلوم المنظمة فى اوريا .

٦ — جيرارد الكريهونى : ١١١٤ — ١١٨٧ م (٣٥)

راهب بندكتى تعلم العربية فى طليطلة — ترجم مالا يقل عن ٨٧ مصنفا فى الفلسفة والطب والرياضيات والفلك وضرب الرمل ، فقدت معظم

(٣١) المرجع السابق ص ١٢١ .

(٣٢) العقيقى : المرجع السابق ص ١٢٢ .

(٣٣) المرجع السابق ص ١٢١ .

(٣٤) المرجع السابق ص ١٢٣ .

(٣٥) المرجع السابق ص ١٢٦ .

اصولها العربية وسلمت ترجماتها اللاتينية فمهدت مع مثيلاتها الى انتشار العلوم فى اوربا وتوثيق صلتها بالشرق .

هؤلاء بعض اعلام المستشرقين الذين كانوا ثمرة من ثمرات الحركة التى قادتها البابوية فى الفاتيكان لدراسة الاستشراق وترجمة العلوم العربية الاسلامية الى اللاتينية ، ثم التأليف محاولين بذلك ضرب الاسلام والرد عليه بمؤلفات مضادة .

(ب) السفراء :

كثرت السفارات بين دول الشرق والغرب فى فترات السلم ففى العباسيون والفرنسيون يتبادلون السفارات والهدايا سنة ٧٩٧-٨٠٦ م ووافق هارون الرشيد على جعل حماية القدس فى يد شارلمان سنة ٨٠٧ م فأرسل أحد بطاركتها مفاتيحها اليه (٣٦) .

وقام عبد الرحمن الثانى بارسال سفارات الى ملك النورمان والدانمارك سنة ٩٤٥ م واوفد عبد الرحمن الناصر السفراء الى القسطنطينية سنة ٩٥٠ م واوفد اسقف قرطبة ريسيموندو المشهور عند العرب بربيع بن زيد الى اوتو امبراطور المانيا واحتفى بسفيره الاسقف جرتز سنة ٩٥٣ م فبقى فى قرطبة ثلاث سنوات تعلم خلالها العربية ورجع منها بالمخطوطات النفيسة ووفد على بلاط الخليفة سفراء بيزنطة و المانيا وايطاليا وفرنسا (٣٧) .

ثم بدأ التطور التاريخى فى مجال العلاقات الخارجية بأن بدأت الدول الشرقية والغربية تعمل على ارسال سفراء لها مقيمون فى البلدان الاخرى، فأرسلت اوربا سفراء لها فى الشرق فاقتبسوا عادات الشرقيين، فمنهم من استشرق الى ابعد من ذلك واعتنق الاسلام ونال اخطر المناصب .

واقترضت سياسة اقامة اوربا سفراء لها فى الشرق أن تستبدل بهم

(٣٦) حسن الباشا « دراسات فى تاريخ الدولة العباسية » ص ٢٩ .

(٣٧) ابن عذارى « البيان المغرب عن تاريخ المغرب » ج ٢ ص ٢٢٩ .

سفراء الشرق في عواصمها فكان لكل من تركيا وسيام وفارس والهند
سفير .

أما السفراء وملحقوهم الذين تخرجوا من مدارس اللغات الشرقية
ويعثوا الى الشرق وأقاموا فيه ، فقد حققوا ما كتبوه في مواضعه وعاونوا
على جمع مخطوطاته وتعليم لغاته وأنشاء المطابع لنشر مصنفاته فكانوا نواة
طبية للاستشراق العلماني (٣٨) .

(ج) الحملة الفرنسية وأثرها على حركة الاستشراق :

تعرضت مصر للحملة الفرنسية من سنة ١٧٩٧ — ١٨٠١ م ، ولا شك
ان هذه الحملة ما هي الا استكمالا لتفضية الصراع بين العالمين الشرقي
والغربي الى جانب الاسباب المباشرة والشخصية التي حدثت بنابليون
بونابرت الى توجيهها ضد مصر .

ويهمنا من هذه الحملة انه كان لها تأثير كبير على تطور حركة
الاستشراق والاهتمام به .

فقد سحب نابليون في حملته بعثة علمية قوامها علماء اعلام في كل
ضرب من ضروب الثقافة في ذلك العصر ، منهم الاثريون والمهندسون
والأطباء والمؤرخون والمستشرقون والمترجمون اللبنازيون والمصريون
والسوريون ، كما انه عمل على ان يهيىء أسباب الأتامة والأطمئنان
للفرنسيين ، قرأى وجوب درس طبيعة البلاد وأهلها وتاريخها ، وأنظمتها
حتى يكون العمل ممكنا ومثمرا ، ولهذا أصدر أمرا بإنشاء « المجمع العلمي
المصري » وكان ذلك في ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٨ ، وقسم المجمع في أول
أمره أربعة أقسام : قسم الاقتصاد السياسي ، وقسم الآداب ، وقسم
الفنون ثم قسم الرياضيات والطبيعة ، على أن تطبع أعمال المجمع كل
ثلاثة أشهر ، وعين مونتج كسر الرياضيين رئيسا له ، وجعل نفسه وكيلا ،
وبدا العلماء أعمالهم بالفعل ليهيئوا جوا صالحا لنجاح الحالة الجديدة (٣٩) .

(٣٨) العتيقي « المستشرقون » ج ١ — ص ١٤٢ .

(٣٩) محمد عبد الرحيم مصطفى « تاريخ مصر الحديث » ص ٣٠ .

وقد أمر نابليون كذلك بتأسيس مطبعة عربية — كان قد استصفهاها من الفاتيكان — لطبع الكتب والتصريحات والبلاغات والمشورات . ونشرت بعثته بحوث علمائها ورسوماتهم وخرائطهم في كتاب « وصف مصر » سنة ١٨٠٩ — ١٨١٣ م ثم حل شميليون رموز الكتابة الهيروغليفية بترجمة حجر رشيد (٤٠) .

وبذلك نرى ان حملة نابليون بونابرت على مصر تعتبر من اهم الاسباب التي ادت الى زيادة الرغبة في الاستشراق في الغرب والى الاهتمام بعلوم الشرق وفتحت السبيل امام الباحثين هناك ليأتوا الى البلاد العربية ، لدراسة التراث والعلوم والتأليف فيه ، فامتلات بهم ساحاب المكتبات العربية كمستشرقين يبحثون ويدرسون في وقت كانت فيه البلاد الاسلامية في سبات عميق نظير ما أصابها من تدهور سياسي واستعمار فاستطاعوا أن يترجموا وأن يحققوا اعدادا وفيرة ، بل معظم كتب التراث الاسلامي حققها مستشرقون اجانب ، اى جانب ضياع كمية ضخمة من المؤلفات الاسلامية التي حملت الى مكتبات الغرب الاوربي وجامعاته ، ولم ينتبه اليها المثقفون المسلمون ، والعجيب ان الباحث الذي يريد ان يكتب عن التراث الاسلامي الدينى او العلمى او السياسى او الحضارى فانه يجد في المكتبات الاوربية اضعاف اضعاف المخطوطات النادرة والكتب الاسلامية للمؤلفين الأوائل وهذا كله أدى الى ان أصبح المستشرقون قوة كبيرة في الغرب لها مكانها ولها مركزها العلمى ولها كراسى مستقلة في جميع جامعات اوربا وأمريكا .

الوسائل التي اتبعتها الغرب لتدعيم حركة الاستشراق :

١ — انشاء كراسى للغات الشرقية في الجامعات الاوربية جميعها مثل جامعة تولوز ، وجامعة بوردوا ، وجامعة السوربون في باريس والمدرسة الشرقية في القسطنطينية ، وجامعة ستراسبورج والمعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ودمشق وطهران وتونس الى جانب كراسى اللغات الشرقية في جامعات انجلترا مثل جامعة اكسفورد وكمبردج وجامعة لندن

(٤٠) العتيقى « المستشرقون » ج ١ ص ١٥٠ .

وجامعة درهام وجامعة فيكتوريا و جامعة لينز وجامعة ويلز وجامعة
لنهربول وبرستول وشيفيلد وهال وكذلك جامعات اسكتلندا في سسانت
اندرور وجلاسجو وأبردين انبره وفي ايرلندا في كلية ترينيتي في دبلن
وجامعة ايرلندا الوطنية .

وفي كندا في تورنتو ، اوتاوا ، جامعة لانال ، جامعة مانيتوبا
ومونتريال . وفي ألمانيا في جامعة هايدلبرج وكولن وجامعة فورزبرج
ومونستر وبون وبرلين وغيرها (٤١) .

هذا الى جانب الكراس الموجودة للغات الشرقية في جميع جامعات
الغرب وما قدمناه ما هو الامثل لبعض هذه البلاد .

٢ - **انشاء المكتبات الشرقية** التي تحتوى على ملايين من الكتب
والمخطوطات والنقائس العلمية والأدبية والتاريخية .

ومن اهم هذه المكتبات مكتبة باريس الوطنية ، ومكتبة المتحف
البريطاني في لندن ومكتبة الاسكوريال باسبانيا والتي تضم حوالى ١٩٠٠
مخطوط عربى من بقايا المكتبة الاندلسية الاسلامية بقرنطة . ومكتبة فينا
الوطنية التي تحوى مئات من المخطوطات العربية النفيسة وكذلك مكتبة
جامعة ليند بهولنده وهى تضم مخطوطات نفيسة وفيرة غنى المستشرقون
الهولنديون قرونا متواصلة في جمعها .

وهناك مكتبة برلين الوطنية في ألمانيا ومكتبة جامعة ميونخ وجامعة
هايدلبرج الى غير ذلك من المكتبات مثل المكتبات الخاصة بمختلف الجامعات .

وهناك نوع آخر من المكتبات الخاصة التي كانت ملكا للمستشرقين
وقد بعضها على المكتبات العامة ، واقتنت البعض الآخر ولجميع دور النشر
الشرقية فهارس لجمعياتها .

(٤١) نجيب العقيدى : المرجع السابق ج ١ ، ج ٢ ، ج ٣ .

٢ - انشاء المطابع الشرقية (٤٢)

دأبت البلاد الغربية على انشاء المطابع التى تحوى الحروف العربية والعبرية ، وبدأت هذه المطابع فى ايطاليا ثم فى فرنسا ، ووجدت فى اسبانيا مطبعة مايسترى فى مدريد ، ومطبعة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد ايضا . وفى النمسا انشأت المطبعة الامبراطورية والمطبعة الشرقية للاباء المختارين . وفى هولنده مطبعة ليدن وغيرها فى مختلف انحاء اوربا .

٤ - الجمعيات الاسيوية والمجلات الشرقية (٤٣) :

عملت معظم بلدان اوربا على تنمية حركة الاستشراق باصدار المجلات والمطبوعات الخاصة بالشرق وهى تعنى جميعها بالعرب فى تحقيق تاريخهم وجغرافيتهم وانسابهم ، ويبحث ادبهم وشرائعهم ومذاهبهم واخلاقتهم ، ودرس لغاتهم وعلومهم وفنونهم فاطلعت الغرب على اصالة الشرق وخصائص تطوره ، والفنت من مجموعها مكتبة نفيسة فيها زبدة أعمال المستشرقين (٤٤) .

ومن اهم المجلات الشرقية صحيفة العلماء التى تصدر فى فرنسا نشرة معهد مصر ، المجلة التاريخية ، مجلة تاريخ الاديان ، نشرة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية فى القاهرة ، مجلة الدراسات الاسلامية وهناك الجمعيات الاسيوية مثل الجمعية الملكية الاسيوية لبريطانيا العظمى ، وايرلندا فى لندن ، والسلسلة الجديدة التى تصدر كل ثلاثة شهور ، واتحاد المستشرقين البريطانيين ، الى غير ذلك .

٥ - المتاحف الرقمية :

وتحتوى هذه المتاحف على مجموعات كبيرة من الكتب والمؤلفات الشرقية الى جانب مجموعة كبيرة من الآثار الشرقية ومن اهم هذه المتاحف

(٤٢) العقيقى : المرجع السابق ج ١ ، ٢ ، ٣ .

(٤٣) العقيقى : المرجع السابق .

(٤٤) العقيقى : المرجع السابق ، ج ١ . ص ١٦١ .

المتحف البريطانى ومنحف غيكنوريا البرت ومتحف اشمولين تى اكسفورد
ومتحف جراتس فى النمسا . ومتحف الفن الاسلامى فى برلين والمتحف
الوطنى فى باريس .

٦ — المؤتمرات الدولية :

بلغت مؤتمرات المستشرقين الدولية (١٨٧٣—١٩٦٤) ٢٦ مؤتمرا ضم
اواحد منها مئات العلماء من اعلام المستشرقين والعرب والمسلمين
والشرقيين اسهموا فيما بينهم فى اقسامه الأربعة عشر عن آسيا وافريقيا،
وتناولوها بالمحاضرات والأبحاث والنظريات والمقترحات . ثم نشروها فى
مجلدات للاهتمام بها كنظم ومناهج ووسائل ، ثم أصبحت مع دراسات
مؤتمراتهم الموضوعية والإقليمية أصولا وأمهات وأسانيد للباحثين (٤٥) .

وتعتبر هذه الوسائل المتعددة عوامل مساعدة لنشر حركة الاستشراق
فى الغرب الأوروبى ، وفى تمهيد السبيل انشر جميع المؤلفات العديدة التى
تصدر فى الغرب خاصة بأهم الشرق .

أهداف المستشرقين :

لعلنا بالعرض السابق نكون قد ألقينا الضوء بعض الشيء على التطور
التارىخى للعلاقات بين الشرق والغرب ، وكيف احتك كل منهما بالآخر ثم
كيف بدا الغرب يتكالب على الحضارة الاسلامية فأخذ منها من مراكزها
المختلفة سواء أكانت فى أوربا أم فى الشرق ، ثم بعد ذلك بدأت مرحلة
الاستقرار والدراسة والانتاج العلمى الوفير فى وقت ذبلت فيه البلاد
الاسلامية ووصلت أوربا فى عصر النهضة الى أقصى درجات التقدم العلمى
والحضارى ، وبذلك نجد ان حركة الاستشراق أصبحت حركة عامة فى
أوربا وأصبح لزاما علينا ان نرى أهداف هذه الحركة هل خرجت كلها من
منبع واحد ولهدف واحد معين أم اختلفت الاصول والأهداف .

الحقيقة ان الهدف الأول الذى قام من أجله الاستشراق كان خدمة
الكنيسة والاستعمار ، فالمعروف أن أول من قام بعملية الاستشراق كانوا

(٤٥) العقيقى « المستشرقون » ج ٣ ص ١١٤٨ .
(م ٣ — الاستشراق)

رهبانا خاضعين لسلطة الكنيسة الكاثوليكية في الغرب وهؤلاء اعتنقوا الضلالة عن الموضوعية المتفهمة . وقد غلب على كتاباتهم الطعن في الاسلام والحضارة الاسلامية والثقافات الاسلامية والتاريخ الاسلامي .

وهناك مجموعة من المستشرقين كانوا مرتزقة وضعوا اقلامهم في خدمة مصالح بلدانهم الاقتصادية والسياسية والاستعمارية (٤٦) .

وهناك فئة من طلاب الاساطير والغرائب والأهاجي ، ولم تكن حقا من العلم في شيء فأنتقدت بانقراض العصور الأولى (٤٧) .

وفئة أخرى تعرضت للاسلام دون ان تنقص الطعن عليه ، وانما درست دراستها كتبها الدينية ، فقد درج العلماء وفيهم الرهبان على نقد الكتاب المقدس مثل رايمو روس المتوفى سنة ١٢٦٨ م استاذ اللغات الشرقية في جامعة هامبورج الذي خلف مخطوطا في نقد حياة المسيح (٤٨) .

وفئة غيرهم انصفت للاسلام وان لم تدن به قولا وعملا وكتابة فلم يؤخذ عليها هفوة على كل ما دبجته فيه ومنهسا من ذهب به اخلاصه الى انتقاده (٤٩) .

ولابد ان هناك فئة أخرى منصفة أرادت البحث العلمي المجرد دون التعرض للدين ، وهذه الفئة غلبت عليها الحيدة المطلقة والرغبة في الوصول الى الحقيقة العلمية ، ودراسة التراث العربي الاسلامي لما فيه من حضارات قديمة مزدهرة .

وتعتبر هذه الأغراض من أهم الدوافع التي دفعت المستشرقين الى الاندراج في هذا السلك ، ويهمننا من أمر حركة الاستشراق هذه الحركة التي تنبت الكنيسة الكاثوليكية والملوك والأمراء الاتطاعيين في أوروبا والتي كان هدفها الأول والآخر طعن الاسلام بجهالة وضلالة .

(٤٦) العقيدى : المرجع السابق ج ٣ ص ١١٦ .

(٤٧) العقيدى : المرجع السابق ج ٣ ص ١١٦ .

(٤٨) العقيدى : المرجع السابق ج ٣ ص ١١٦ .

(٤٩) العقيدى : المرجع السابق ج ٣ ص ١١٦٢ .

وقبل أن ندخل فى تفاصيل هذه الحركة التى ربطت الاستشراق بالتبشير لابد أن نلخص تطور حركة الاستشراق فى مراحل ثلاث وهى :

١. المرحلة الأولى :

تلك الحقبة التى تبدأ من القرن الثامن الميلادى وتستمر حتى النهضة الأوروبية الحديثة فى القرن الخامس عشر ، وفيها احتك الإسلام بالغرب سياسيا وحربيا ، وأسس مراكز لحضارته فى جنوب أوربا وجنوبها الغربى ووقف منها موقف المعلم يلقتها حضارة خصبة الجوانب كثيرة الروافد ، امتزج فيها تراثه العربى بتراث الفرس والهند واليونان وغيرهم من الأمم التى دانت لسلطانه ، وكان موقف أوربا من ذلك الدور أشبه بموقفنا نحن من الحضارة الغربية فى أوائل نهضتنا الحديثة (٥٠) .

٢. المرحلة الثانية :

منذ أوائل النهضة الأوروبية حتى القرن الحالى وفيها احتلت دراسة الفلاسفة المسلمين مكانها فى الجامعات القديمة مثل باريس ولوفان وظهر أثر الفكر الإسلامى فى بعض الفلاسفة الغربيين مثل ديكارت وترجمت بعض روائع الأدب الشرقى مثل ألف ليلة وليلة الذى ترجم الى الفرنسية فى نهاية القرن السابع عشر ، ثم ترجم بعد ذلك الى غيرها من اللغات ثم اتجهوا بعد ذلك الى دراسة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وبدأت تظهر الكتب الأوروبية عن الإسلام وتاريخه والترجمات المختلفة للقرآن وأسست الجمعيات الآسيوية فى إنجلترا وفرنسا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وأخذ العلماء الأوروبيون ينقبون عن المخطوطات الشرقية ويحققونها وينشرونها .

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بدأت سلسلة المؤتمرات الدولية لأولئك المستشرقين يعرضون فيها ما وصلوا اليه فى البحوث الكلاسيكية الإسلامية والعربية والشرقية (٥١) .

(٥٠) هاشم زكريا « المستشرقون والإسلام » ص ١٦٧ .

(٥١) المرجع السابق .

المرحلة الثالثة :

وهي التي نشهد مظاهرها الآن ، ففي مرحلة العناية بالاسلام في اوضاعه واتجاهاته الحديثة ، لم تعد الدراسات الشرقية الكلاسيكية هي الشغل الشاغل للمستشرقين المحدثين أو الجمعيات والمعاهد واقسام الدراسات الشرقية في الجامعات الامريكية والأوربية ، بل انتقلت العناية الى دراسة الامم الاسلامية في نهضاتها الحديثة والى ما ينشأ فيها من حركات تجديدية واصلاحية والى مقدار تأثير التعاليم الاسلامية الاصلية في تفكير الشعوب الاسلامية المعاصرة ، وما بين تلك الشعوب من مظاهر الاتفاق او الاختلاف او النزعات والوان التفكير ، ومدى كل واحدة من التوفيق بين تعاليم الدين ومقتضيات الحياة العصرية والمعقدة وعلى الأخصر في التشريع ونظم الاجتماع والاقتصاد وأساليب الحكم ، وهل هناك معضلات تواجهها تلك الشعوب في التوفيق بين المعتقدات الدينية ونتائج الفكر العلمي الحديث .

ولقد نظمت جامعة برنستون ، ومكتبة مجلس الشيوخ الامريكي مؤتمرا للثقافة الاسلامية واقدمت ندوة في معهد هوفر بجامعة ستانفورد ومؤتمر في متيسوتا ، معهود الدراسات الاسلامية في كندا .

ويدرس الآن احوال الشرق الاسلامي الحديث والتصوف الاسلامي في جامعات اكسفورد وكمبريدج وجامعات أوروبا كافة ، كما انه المسادة الرئيسية في كلية الدراسات الشرقية والافريقية في لندن (٥٢) .

الفصل الثاني

الاستشراق والتبشير

الاستشراق والتبشير

يعتبر التبشير بالدين المسيحى الهدف الأول من أهداف المستشرقين . إذا كنا قد عددنا أهدافا أخرى للاستشراق — فذلك حتى لانعمم فى حكمنا على جميع فئات المستشرقين ، وأن نعطي للفئة التى عملت فى هذا المجال — الحيدة المطلقة ، وبالبحت العلمى المجرى — حقها من التقدير .

والحقيقة أن فئات كبيرة من أنى أعماها التعصب والجهل جرت وراء علبة التبشير رغبة فى الوتوفى وجه الاسلام ، ومحاولة زعزعة العقيدة من قلوب المسلمين ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

ومن أقوال زعماء المبشرين المستشرقين عن أهداف التبشير قول لورانس براون فى كتابه « الاسلام والارسلانيات » (١) « إذا اتحد المسلمون فى امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرا ، وأمكن أن يصبحوا نعمة له أيضا ، أما أنا ظلوا متفرقين ، فانهم بظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير » .

ويفصح النفس كالهون سيمون عن قوة التبشير فى تفريق المسلمين ، وهو نفس المعنى الذى عبر عنه براون فيما قبل . بقوله فى كتابه « ان الوحدة الاسلامية تجمع آمال الشعوب السود وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوروبية ، ولذلك كان التبشير عاملا مهما فى كسر شوكة هذه الحركات ، ذلك لأن التبشير يعمل على اظهار الاوربيين فى ثوب جديد جذاب : وعلى سلب الحركة الاسلامية من عنصر القوة والتمركز فيها » (٢) .

فوحدة المسلمين اذا فى نظر التبشير يجب أن تفتت وأن توهن ، ويجب

(١) لورانس براون « الاسلام والارسلانيات » ص ٤٤-٤٨ .

(٢) ابراهيم خليل « المستشرقون والمبشرون فى العالم العربى والاسلامى » ص ٣٨ .

أن يكون هدف التبشير هو التفرقة في توجيه المسلمين واتجاهاتهم . وهناك بجانب تفتيت وحدة المسلمين هدف آخر هو درء خطر وحدتهم وامتداد سلطانهم باستعمار الشعوب الأوروبية واستغلالها واستنزافها ثرواتها . وفي هذا المعنى يقول لورانس براون أيضا « الخطر الحقيقي كامن في نظام الاسلام وفي قوته على التوسع والاختضاع وفي حيويته انه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي » (٣) .

ويرى المستشرق الألماني بيكر (٤) « أن هناك عداوة من النصرانية للاسلام لأن الاسلام عندما انتشر في العصور الوسطى أقام سدا منيعا في وجه الاستعمار وانتشار النصرانية ، ثم امتد الى البلاد التي كانت خاضعة لصولجانها » .

وقريب من ذلك ما رآه غاردنر (٥) « ان القوة التي تكمن في الاسلام هي التي تخيف أوروبا ، ويحاول المبشرون أن يروا العداوة بين الاسلام وبين الغرب دينية ، ولكن الحقيقة لا تلبث أن تظهر في فلتات لسانهم ، فاذا هي سياسية » .

ان يوليوس رشتريث يؤنب النصاري على قصر نظرهم في اثناء المصور المتطاوله التي تلت ظهور الاسلام ، فانهم كانوا فيها وادعين غافلين وكانت الامبراطورية البيزنطية تغيب شيئا فشيئا في الامبراطورية الاسلامية حتى سقطت القسطنطينية سنة ١٤٥٣م بيد الاتراك العثمانيين (٦) . ولا ريب في ان رشتريث يتألم للناحية السياسية لانه هو نفسه يذكر ان سكان الامبراطورية الشرقية كانوا نصاري بالاسم .

وعلى هذا الأساس أصبح الاتراك خطرا على أوروبا منذ دخلوا في الاسلام ، لا لانهم مسلمون بل لانهم قد أصبحوا قوة تستطيع أن تقصف في وجه الاطماع الأوروبية ، حتى السنوسية ، وهي فرقة من المرابطين المجاهدين

(٣) المرجع السابق .

(٤) مصطفى خالدي « التبشير والاستعمار » ص ٣٦ .

(٥) المرجع السابق .

(٦) المرجع السابق ص ٣٧ .

نشأت في طرابلس الغرب قد أصبحت على قلة اشياعها وقلة انتشارها قوة
نرهب الاستعمار لا لشيء الا لان الاتحاد قوة تفسد على المستعمرين
أعمالهم . ولقد بالغ المبشر صموئيل زويمر حينما هاله أن يرى نفرا من
النصارى يدعون الى صداقة المسلمين في الدين ، ان هذه الصداقة في
راى زويمر تخلق في نفس النصارى جينا عن التبشير (٧) .

ومن المعروف بين جمهوره المبشرين المستشرقين أن صموئيل زويمر
هذا كان يلقب « بالمختار الى العالم الاسلامى » ، وكانت مهمته تحويل
العالم الاسلامى عن عقيدته ، ولم يكن يستكثر عن مهمته أن يتصدى لتحويل
مكة والمدينة في مقدمة المعامل الاسلامية ، ولا تحويل القاهرة بما اشتملت
عليه من معاهد الاسلام وذكرياته الباقية (٨) ، بل أن هناك مجموعة أخرى
ساندت صموئيل زويمر هذا أفكاره كانت تقدم العون الواسع في القضاء
على الاسلام واعادته الى الصحراء من حيث جاء (٩) .

ومن مجموع هذه الآراء السابقة التى أحببت أن أسوقها في مقدمة
الموضوع لابد أننا نكون قد اقتنعنا أن ممارسة الاستشراق من أجل التبشير
وخدمة الدين المسيحى لم تمت بظهور النزعة العلمية ، فقد ظل عدد من
خدام المسيحية يمارسون الاستشراق لهذا الغرض نفسه وظل هم هذا
الوضع الى يومنا هذا .

ولابد لنا أن نقتبع الوسائل التى يتخذها هؤلاء المبشرون المستشرقون
في تحقيق مخططاتهم ، وسفري رأى واحد منهم وهو هـ . هـ وجيسوب
يقول : « من الضروري أن يستخدم المبشرون جميع الطرق في سبيل التبشير
وأن يستغلوا جميع المناسبات ، فمناعة الطب والتعليم والوعظ ونقل الكتب
من لغة الى لغة كلها يجب أن توجه توجيهها يفيد التبشير » (١٠) .

والمبشرون مجمعون على أن جميع الوسائل مهما كانت يجب أن تستغل
في سبيل التبشير ، حتى أعمال البر يجب أن تستغل استفلا لا بحثا من ذلك

(٧) المرجع السابق ص ٣٨ .

(٨) عباس العقاد « ما يقال عن الاسلام » ص ١٦٩-١٧٠ .

(٩) محمد الفزالي « قذائف الحق » ص ٣٥ .

(١٠) Jessup. H.H. Fifty three years in Syria. P. ٥٤

قولهم « كان التطبيب والتعليم من وسائل التبشير » ويجب أن يربا كذلك ،
 أما أعمال الاحسان فيجب أن نستعمل بحكمة كيلا نذهب في غير سبيلها ،
 يجب أن تعطى الأموال أولا للبعيدى عن الكنيسة ثم نقل تدريجيا كلما اقترب
 ارتك من الدخول فى الكنيسة . فاذا دخلوها منع عنهم الاحسان مرة
 واحدة « ومن وسائلهم أنهم اذا دخل فى خدمتهم رجل لاينتمى الى مذهبهم
 حملوه على الدخول فيه .

ولابد لنا أن نوضح نوضيحا دقيقا الاسلوب الذى يتخذه المبشرون
 فى نشر عقائدهم وفكرهم .

وأول هذه الوسائل هى الوسائل الثقافية ، فقد اتخذ المبشرون من
 التربية والتعليم وسيلتهم الأولى فى التأثير والتغيير الذى ينشُدونه ، وقد
 ركزوا نشاطهم فى هذا الجانب على الجبهات والمستويات سالكين الى
 غايتهم طرقا شتى منها :

١ - المستقل المبشرين الى الغرب :

بمحاولة التأثير الفكرى والثقافى على عقليتهم ، ومحاولة بث الشكوك
 حول العقيدة الاسلاميه ، واغرائهم بوسائل التقدم المدنى الباهرة فى الغرب
 حتى يفتنوا عن دينهم ، فبذلك يعودون الى بلادهم وقد تغيرت أفكارهم
 وقيمهم ونظرتهم الى الدين والى الحياة والناس والى الماضى والحاضر والى
 النظم والشرائع والآداب والتقاليد وبذا يتضح ذلك فى سلوكهم وأخلاقهم
 وعلاقاتهم وفيما يكتبون وينتجون فى ميدان الفكر والثقافة والتوجيه .

٢ - المدارس التبشيرية والأجنبية :

اتخذ المبشرون من المدارس العديدة التى انشاؤها فى الشرق الاسلامى
 والى حاولوا أن بضيقوا بها الجنائى على المدارس والمؤسسات الوطنية
 أن يأخذوا الطفل منذ نعومة أظفاره عجيئة لينة ، فيبعدوه عن الاسلام
 بقدر ما يقربوه من النصرانية ، ويحببوه فى حضارة الغرب بقدر ما يبغضوه
 فى حضارة الشرق (١١) .

(١١) يوسف القرضاوى « الحلول المستبعدة » ص ٢٤ .

وقد صرحت المبشرة « آنا ميلجان » عن هدف هذه المدارس ومهمتها
فى بلاد العرب والمسلمين فقالت (١٢) :

« ان المدارس اقوى قوه لجعل الناشئين نحت تاثير التعليم المسيحى
وهذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبتون يوما ما تاده » .

وتقول ايضا عن كلية البنات الخاصة بالقاهرة :

« فى كلية البنات فى القاهرة بنات آباؤهن « باشوات وبكوات »
وليس ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات
المسلمات تحت النفوذ المسيحى ، وليس ثمة طريق الى دحض الاسلام أقصر
من هذه المدرسة » .

وكانت كل المذاهب المسيحية تقوم بجهودها التبشيرية فى جميع بلدان
المسلمين .

ومن المنشور الذى أصدرته الجامعة الامريكية فى بيروت سنة ١٩٠٩م
ردا على احتجاج الطلاب المسلمين لاجبارهم على الدخول يوميا الى الكنيسة
ينضح من المادة الرابعة منه طابع هذه المؤسسة وأمثالها ونص المادة (١٣) :
« ان هذه الكلية مسيحية أسست بأموال شعب مسيحي ، هم اشنروا الأرض
وهم اقاموا الأبنية وهم أنشأوا المستشفى وجهازه ، ولا يمكن للمؤسسة
أن تستمر اذا لم يساعدها هؤلاء ، وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليما
يكون الانجيل من مواده فنعرض منافع الحقيقة المسيحية على كل تلميذ ،
وكل طالب يدخل مؤسستنا يجب أن يعرف سابقا ماذا يطلب منه » .

٣ — المدارس الحديثة :

وهو انشاء مدارس تقوم الدراسة فيها على أسس غربية ، يشرف
عليها المبشرون ويراقبونها ويوجهونها ، ويضع لها المبشرون المناهج والكتب
التي تدرس فيها .

(١٢) محمود شاكر « أباطيل وأسما » ص ٤٢ .

(١٣) « عهد الجوى » المبشرون والمستشرقون » ص ١٠/٩ .

يقول المبشرون تكلى (١٤) :

« يجب أن نشجع انشاء المدارس ، وأن نشجع على الاخص التعليم الغربى ان كثيرين من المسلمين قد زعزع اعتقادهم حينما تعلموا اللغة الانجليزية ، ان الكتب المدرسية الغربية تجعل الاعتقاد بكتاب شرقى مقدس أمرا صعبا جدا . »

وهذا التصريح من جانب هذا المبشر يدلنا على أن غاية هؤلاء المبشرين ليست دينية خالصة كما يظن بعض الناس وأنهم لا يرجون بعملهم هذا الله والدار الآخرة . فلو كان هذا هدفهم لاتجهوا أول ما يتجهون الى الملحدين والماديين الذين يكونون معظم سكان أوربا أو انجهوا الى الشعوب الوثنية . بدل أن يتجهوا الى اعظم أمة مؤمنة موحدة فى الأرض وهى أمة الاسلام .

ومما يؤكد هذا قول القس « زويمر » فى وصاياہ للمبشرين :

« ينبغى للمبشرين ألا يقنطوا اذا راوا نتيجة تبشيرهم للمسنمين ضعيفة اذ من المحقق أن المسلمين قد نما فى قلوبهم الميل الشديد الى علوم الاوربيين وتحرير النساء . »

والغريب أن المبشرين الذين اتخذوا من التعليم وسيلة هامة للتبشير لا نجدهم يهتمون بالعلوم العلمية ، بل حاولوا ان يجعلوا جميع مواد التعليم تخدم المسيحية والفكر المسيحى . ويرى هنرى جيسوب (١٥) « ان التعليم فى مدارس الارساليات المسيحية انما هو واسطة الى غاية فقط ، هذه الغاية هى قيادة الناس الى المسيح ، وتعليمهم حتى يصبحوا أفرادا مسيحيين وشعوبا مسيحية ، ولكن حينما يخطو التعليم وراء هذه الحدود ليصبح غاية فى نفسه وليخرج لنا خيرة علماء الفلك وطبقات الأرض وعلماء النبات ، وخير الجراحين والأطباء فى سبيل الزهو العلمى ، فائنا لا نتردد حينئذ فى أن نقول ان رسالة مثل هذه قد خرجت عن المدى التبشيرى المسيحى الى مدى علمانى محض ، الى مدى علمى دنيوى ، مثل هذا البهل يمكن أن

(١٤) مصطفى خالدى « التبشير والاستعمار » ص ٩٨ .

(١٥) H.H. Jessup. op .cit. P. 378.

قوم به جامعات هايدلبرج وكمبردج وهارفارد وشيغليد ، لا الجمعيات التبشيرية التي تسعى الى اهداف روحية فحسب » .

ويؤكد هذه الفكرة المستر نبروز. الذي جاء سنة ١٩٤٨ م لتسلم زمام الجامعة الامريكية في بيروت فيقول (١٦) « لقد ادى البرهان الى ان التعليم اثنى وسيلة استغلها المبشرون الامريكيون في سعيهم لتنصير سورية ولبنان ومن اجل ذلك تقرر ان يختار رئيس الكلية البروتستانتية الانجيلية « الجامعة الامريكية اليوم » من مبشرى الارسالية السورية » .

لذلك نرى ان المبشرين استغلوا التعاليم لان له اثرا فعالا بل هو اقوى وسائل التبشير ، وعلى هذا الاساس بدأ المبشرون في انشاء مدارسهم وكلياتهم ليؤثروا في قادة الراى في البلاد وفي الجيل الناشئ في الشرق الأدنى خاصة .

٤ — استغلال الطب كوسيلة للتبشير :

كان المبشرون يتخذون من زيارة المسجونين ومن العمل في المستشفيات وسيلة الى التبشير ، وفي الحرب العالمية الاولى اُخسدت الدولة العثمانية عددا من الراهبات للعمل في المستشفيات ، فقال الكتاب المئوى اليسوعى عن هؤلاء « وفي منصبهن الجديد بقيت الاخوات مبشرات يلقتن التعليم المسيحى ، ويعددن للمناولة الاولى ويعلمن الصلوات على الرغم من التحذير والتهديد اللذين كان المفتشون الاتراك يوجهونها اليهن » (١٧) .

وهناك طريقة اخرى وهو انشاء مستشفيات مسيحية ، فيتوافد المرضى على العيادات الخارجية بها ، فيقوم الكاتب وهو واعظ انجيلى بتحرير بطاقة للمريض ، كما تقوم الممرضة بمعرفة شخصيته المريضه وظروفها الخاصة ، وهذه التحريات كلها تصل تباعا الى مكتب قسيس المستشفى لتبويبها وتصنيفها .

ويلقى واعظ من قبل قسيس المستشفى قصة دينية قصيرة على

(١٦) مصطفى خالدى « التبشير والاستعمار » ص ٦٧ .

(١٧) المرجع السابق ص ٤٩ .

جمهور المرضى المنتظرين ، فإذا دخل المريض المستشفى ، فإنه يستمتع لدرس ديني في أصيل كل يوم ، وقد يتبعه عرض للفانوس السحري ، ثم توزع على المرضى النشرات لقراءتها والتسلى بها .

وفي هذا كله تعتد بمكتب القسيس أو بمنزله تدوات تبشيرية فردية لمن يقبل على المسيحية ، وإذا وثق القسيس باخلاصه أغدق عليه الهبات ما ينسبه الأهل والأصقاء (١٨) .

٥ — الصحافة والأعلام والنشرات الدورية والمكتبات :

لم يقتصر نشاط الاستعمار الغربي على ميدان التعليم بمختلف طرقه وأساليبه ، بل تعداه الى ميدان الاعلام والصحافة والمكتبات فهذه الميادين لا يقيد بها يقيد المدرسة من مناهج ، ولا تختص بعدد محدود من التلاميذ بل هي وسائل توجه الراى العام .

ويرى المستشرق جب في كتابه « وجهة الاسلام » متحدثا عن أهمية الصحافة في مجال الفوز الفكرى (١٩) .

« الواقع أن المدارس والمعاهد المعاصرة لا تكفى ، فليست هى فى حقيقة الامر الا الخطوة الاولى فى الطريق ، لأنها لا تغنى شيئا فى قيادة الاتجاهات السياسية والادارية والوصول الى هذا التطور الأبعد — الذى بدونها تظل الاشكال الخارجية مجرد مظاهر سطحية — يجب الا ينحصر الامر فى الاعتماد على التعليم فى المدارس الابتدائية والثانوية ، بل يجب أن يكون الاعماس الأكبر منصرفا الى خلق راي عام . والسبيل الى ذلك هو الاعتماد على الصحافة . ويقرر جب أن الصحافة هى اقوى الادوات الأوربية وأعظمها نفوذا فى العالم الاسلامى .

٦ — الفوز الاجتماعى :

المقصود به ادخال العادات والتقاليد والأنواق الغربية فى حياة الأسرة المسلمة ، والمجتمع المسلم ، واستغلال الوسيلتين السالنتين

(١٨) ابراهيم خليل « المستشرقون والمبشرون » ص ٦٠

(١٩) محمد حسين « الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر » ص ٢٠٢ .

نى نجيب ذلك الى النفس . واضفاء نعوت الرعى والنمنن على كل من
بسلخون عن شخصيتهم الدينية والقومية ويمشون فى ركاب غاصبيهم
تابعين مقلدين (٢٠) .

ومن مجموع الوسائل السابقة التى ينفذها المبشرون لنشر مبادئهم
وافكارهم لخدمة الدين المسيحى . نجدهم يحاولون ان ينفذوا داخل المجتمع
الاسلامى ليفتقروا المسلمون عن دينهم ، والحقيقة ان معظم المبشرين حينما
ينعرضون فى كلاً من الدين الاسلامى ، نجد انهم يخضعون لآفة هى آفة الجهل
بالحقائق والمعجز عن فهم الشرق والشرقيين . كما يفهمون هم انفسهم فى
حاضرهم وماضيهم .

والعجيب ان هؤلاء المبشرين حينما يكتبون عن الاسلام لا يكتبون من
واقع المصادر التاريخية الاصلية القديمة ، وانما يتركونها فى مكتبات
علماء الدين وورثة اللاهوتيين من ابناء القرون الوسطى ، ويخرجون انتاجا
لا يعتمد على اصول صحيحة فيكون مملؤا بالباطيل والغالط ، فبسم عقول
الدارسين من المبشرين ، فيخرجون مؤمنين : - صدق دعوات التبشير ،
وصواب الحملة على الاسلام كما فهموه ، ولو انهم فهموا اسرار اباطيلهم
لارتدوا على انفسهم واستطاع الاسلام ان يغزوهم فى معقلهم ، فاذا هم
بشرون انفسهم ان يتفرقوا بين انحاء العالم مستبسلين فى تبشير المسلمين
وتنفيذ غير المسلمين من الاسلام (٢١) .

ولذلك اصبح التبشير بالنسبة للعالم الغربى وللبابوية بالذات مهنة
يستندون بها الرزق ، وكل هدفهم تشويه الاسلام ، فهم اصحاب مصلحة
فى تشويه الدين الاسلامى وتمثيل المسلمين فى الصورة التى تذكى عند
القوم جذوة التعصب وتملى لهم فى الجهالة والنفلة ، فلا يسمهم ان تظهر
الحقيقة لهم ولم يستأجرونها ويرسلونهم للتبشير (٢٢) .

(٢٠) يوسف القرضاوى « الحطول المستوردة » ص ٣٢ .

(٢١) عباس العقاد « ما يقال عن الاسلام » ص ٢٠٦ .

(٢٢) المرجع السابق ص ١٠ .

الفصل الثالث

الإسلام وموقف المستشرقين منه

الإسلام وموقف المستشرقين منه

عمل المستشرقون منذ بدء ظهور حركة الاستشراق في الغرب على الهجوم على الدين الاسلامي ، وعلى النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم .

والحقيقة التي لا جدال فيها ان الاسلام الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم وكان القرآن مصدره الأول ليس — كما يظن الحاقدون — دينا لاهوتيا وليس عقيدة فقط تعنى بالجانب الروحي للانسان دون ان تعنى بتنظيم علاقته بالكون ، وعلاقته بالحياة وعلاقته باخوانه بنى الانسان افرادا واسرا ومجتمعا ودولا .

كلا ان الاسلام عقيدة شاملة ينبثق عنها نظام عالمي كامل ؛ تقوم على اساسه امة عالمية متوازنة أبرز سماتها ما وصفها به القرآن « وكذلك جعلناكم امة وسطا » (١) وقوله تعالى « كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (٢) .

والعقيدة الاسلامية مزايا وخصائص لا تتوفر لغيرها من العقائد الدينية فهي عقيدة واضحة بسيطة لا تعقيد فيها تتلخص في ان وراء هذا العالم المنسق البديع المحكم ربا واحدا خلقه ونظمه وقدر كل شيء فيه تقديرا وهذا الرب والاله ليس له شريك ولا شبيه ، ولا صاحبة ولا ولد ، بل له ما في السوات والارض كل له قانتون .

وهذه عقيدة واضحة مقبولة ، فالعقل دائما يطلب الترابط والوحدة وراء التنوع والكثرة ، ويريد ان يرجع الالبياء دوما الى سبب واحد والواقع المطرد يثبت ابدا ان تعدد الارادات لا ينتج عن أثر متكامل أو نظام

(١) سورة البقرة ، آية ١٤١ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ١٦٠ .

منسق ، والقرآن يقرر هذه الحقيقة فيقول : « لو كان فيها آلهة إلا الله لغسدتا » (٣) « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله إذا لذهب كل آله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض » (٤) .

وهي عقيدة ليست غريبة عن الفطرة . ولا مناقضة لما : بل هي منطبقة عليها انطباق المفتاح المحدد على قفله المحكم ، وهذا هو صريح القرآن « فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم . ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٥) .

وهي عقيدة ثابتة محددة لا تقبل الزيادة والنقصان ، ولا التحريف والتبديل فليس لحاكم من الحكام أو مجمع من المجمع العلمية أو مؤتمر من المؤتمرات الدينية أن يضيف إليها أو يحور فيها وكل تحوير أو إضافة مردود على صاحبه ونبي الإسلام يقول « من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد » (٦) أي مردود عليه والقرآن يقول : « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله » (٧) وعلى هذا فكل البدع والخرافات والإضافات التي لصقت بعقائد المساميين أم دست في بعض كتبهم أو اشيعت بين عامتهم باطلة مردودة لا يقرها الإسلام ولا تؤخذ حجة عليه . وكل ما هو معمول به في الإسلام أنه قد اتصلت بالقرآن — بعد أن انتقل الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى — أفهام العلماء والأئمة ، فمما لم يكن من آياته نصا في معنى واحد . ومن هذا الجانب اتسع ميدان الفكر الإنساني وكثرت الآراء والمذاهب في النظريات والعمليات لا على أنها دين يلتزم وإنما هي آراء وأفهام فيما هو من القرآن محتمل للآراء والأفهام برد منها كل ذي رأي من راية إلى الدلالة التي فيها هو من النص التراتبي بمعونة ما صح عنده من أقوال الرسول أو أفعاله أو من القواعد العامة التي ترمى إليها روح الدين عامة ، وهذا الصنيع لم يكن من هؤلاء الأئمة وفي معتقدتهم إلا اجتهادا فرديا

(٣) سورة الأنبياء ، آية ٢٣ .

(٤) سورة المؤمنون ، آية ٩١ .

(٥) سورة الروم ، آية ٣٠ .

(٦) القرضاي والعسال « الإسلام بين شبهات الضالين » ص ١٥ .

(٧) سورة الشورى آية ٢١ .

” يوجب واحد منهم على احد من الناس ان يبعه ، بل تركوا تغييرهم ممن له أهلية الفهم حرية التفكير والنظر .

أما العقائد الأصلية كالإيمان بالله واليوم الآخر وأصول الشريعة بوجوب الصلاة والزكاة وحرمة النفس والعرض والمال ، فان نصوصها جاءت في القرآن بيّنة واضحة لا تحتمل اجتهدا ولا افهما .

ومن هنا كثرت الآراء والمذاهب فيما يتصل بالفروع التابعة للعقائد الأصلية وفيما يتصل بالعمليات التابعة لأصول الشرائع والأحكام (٨) .

واذا دلت طبيعة الاسلام هذه على شيء فانما ندل على أنه دين ينسج للحرية الفكرية العاملة . وانه لا يقف فيما وراء عقائده الأصلية وأصول شريعته على لون واحد من التفكير أو منهج واحد من التشريع ، وقد كان بتلك الحرية دين ييسر جميع أنواع الثقافات الصحيحة والحضارات النافعة التي يتفق عنها العقل البشري في صلاح البشرية وتقدمها مهما ارتقى العمل وعنت الحياة .

وقد بدا المستشرقون يجدون في هذا الدين القوى المتين مادة خصبة لسنعراض آرائهم وعرض ردودهم على الاسلام ، كل منهم كما ذكرنا له دافع قوى وراء كتاباته هذه ، فمنهم من يخدم السياسة ويصطنع لغة الدعاية تارة ، ولغة الدبلوماسية تارة أخرى ، ومنهم هؤلاء المستشرقون الذين نشأوا في العصر الحديث بمعزل عن دوائر التبشير ودوائر السياسة ومنهم من ينشد الرأي خالصا لوجه الحقيقة العلمية ولكنه مشوب بالقصور الذي لا مفر منه لمن يكتب عن الأدب في لغة أخرى وهو ليس من أبنائها ، ولا هو من الأدباء في لغته التي نشأ عليها . وبعضهم لا رأى له في أدب بلاده لأنه لم يشتغل به . ولم يتأهب له بعدته من الذوق والنفطة التي تؤهله للمخنص فيه ، فليست معرفته بالعربية لمدة كافية له في تقدير الأدب العربي لأنه يعرف لغته . ولا معول على رأيه في أدبها بين قومه (٩) .

(٨) ابراهيم اللبان : المستشرقون والاسلام ص ٣٤ .

(٩) عباس العقاد : ما يقال عن الاسلام ص ٦ .

ويكتب عن الإسلام في انديب أناس يتشيعون له بمقدار ثورتهم على سلطة الدين في بلادهم . فهم يظلمون محاسنه ويقابلون بها مساوىء السلطة التي يثورون عليها ، ولا يندر فيهم من ينصف الإسلام ويهتدى الى محاسنه السمحة ، وان لم يدر به ولم يكن على دين غيره (١٠) .

ومن حقا - بل من واجبا أن نعرف ما يقال عنا ، وان نعرف كل قول من تلك الأقوال بقيمته وقيمه من يصدر عنه ، لأننا قد نعرف أنفسنا من شتى نواحيها كلما عرفناها كما ينظر اليها الغرباء عنا . ومرفنا مبلغ الصدق والفهم فيما يصفوننا به من هوى وجهالة وعن دراية وحسن نية .

ورأيت أن أبدأ كلامي عن مزجة الهجوم التي يقوم بها المستشرقون ضد الإسلام بعرض لآراء بعضهم وهي آراء تنصف الإسلام ونبي الإسلام والمسلمين ، بل اننا أخذناها كشهادة لنا من عدونا ، (والفضل ما شهدت به الأعداء) .

واثرت أن أبدأ بعرض لوجهة نظر حديثة وبأحدث كتاب صدر في نهاية سنة ١٩٧٨ م وهو « الخالدون مائة » (١١) والذي ألفه ميخائيل هارت العالم الأمريكي الذي بدأ ينقب في جميع مشاهير العالم من رسل وأنبياء ورجال دين وعلماء وفنانين وأدباء الى غير ذلك من أنواع المشاهير ، وبعد أن درسهم دراسة محضة ودقيقة على اعتبارات كثيرة وجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأس الشخصيات المائة التي اختارها لكتابه . وان ما جاء به هذا الرسول هو الحق على الرغم من أن هذا الكاتب مسيحي ولا يدين بالإسلام ، يقول ميخائيل هارت :

« لقد اخترت محمدا (صلى الله عليه وسلم) في أول هذه القائمة ولابد أن يندهش كثيرون لهذا الاختيار ، ومعهم حق في ذلك ، ولكن محمدا

(١٠) المرجع السابق .

(11) M. Hart. The 100 A Ranking of the most-influntial persons—in History.

عليه السلام هو الانسان الوحيد فى التاريخ الذى نجح نجحت بطلان فى
المستوى الدينى والدنيوى .

وهو قد دعا الى الاسلام ونشره كواحد من اعظم الديانات ، واصبح
قائدا سياسيا وعسكريا ودينيا وبعد ثلاثة عشر قرنا من وفاته . فان أثر
محمد عليه السلام لا يزال قويا متجددا .

وظل الكتائب يستعرض تاريخ الرسول صلعم منذ ولادته ونشأته
وتربيته وأخلاقه ووضع فى قومه ثم زواجه وبعثته ودوره فى نشر الاسلام
وما لاقاه من اضطهاد فى الدور المكي ثم هجرته وما قدمه من جهد فى
نشر الدعوة ومحاربة مشركى مكة حتى انتشر الاسلام فى جميع أرجاء
الجزيرة العربية ، ويذكر ضمن كتابه قوله « والاسلام مثل كل الديانات
الكبرى كان له أثر عميق فى حياة المؤمنين به ، ولذلك فمؤسسوا الديانات
الكبرى ودعاتها موجودون فى قائمة المائة الخالدين .

وربما بدا شيئا غريبا حقا أن يكون الرسول محمد صلى الله عليه
وسلم على رأس هذه القائمة ، رغم أن عدد المسيحيين ضعف عدد
المسلمين ، وربما بدا غريبا أن يكون الرسول عليه السلام هو الرقم الأول
فى هذه القائمة ، بينما عيسى عليه السلام الرقم الثالث وموسى عليه
السلام الرقم السادس عشر .

ولكن لذلك أسباب : من بينها أن الرسول محمدا صلى الله عليه
وسلم كان دوره أخطر وأعظم فى نشر الاسلام وتدعيمه وارساء قواعد
شريعته وأعظم وأكثر مما كان لعيسى عليه السلام فى الديانة المسيحية ،
وعلى الرغم من أن عيسى عليه السلام هو المسئول عن مبادئ الأخلاق فى
المسيحية ، إلا أن القسديس بولس هو الذى أرسى أصول الشريعة
المسيحية ، وهو أيضا المسئول عن كتابة الكثير مما جاء فى كتاب « العهد
الجديد » . أما الرسول صلى الله عليه وسلم فهو المسئول الأول والأخير
عن ارساء قواعد الاسلام وأصول الشريعة والسلوك النبوى والأخلاق
وأصول المعاملات بين الناس فى حياتهم الدينية والدنيوية ، كما أن القرآن
الكريم قد نزل عليه وحده وفى القرآن الكريم وجد المسلمون كل
ما يحتاجون اليه فى دنياهم وأخرتهم . والقرآن الكريم نزل على الرسول

صلى الله عليه وسلم كاملاً : وسجلت آياته وهو ما يزال حياً وكان تسجيلاً
فى منتهى الدقة ، فلم يتغير منه حرف واحد وليس فى المسيحية شىء مثل
ذلك . فلا يوجد كتاب واحد محكم دقيق لتعاليم المسيحية يشبه القرآن
الكريم وكان اثر القرآن الكريم على الناس بالغ العمق ولذلك كان اثر
محمد صلى الله عليه وسلم أكثر وأعمق من الاثر الذى تركه عيسى عليه
السلام على الديانة المسيحية .

فعلى المستوى الدينى كان اثر محمد صلى الله عليه وسلم قوياً فى
تاريخ البشرية وكذلك كان عيسى عليه السلام . وكان الرسول عليه السلام
على خلاف عيسى عليه السلام ، رجلاً دنيوياً ، فكان زوجاً وأباً وكان يعمل
فى التجارة ويرعى الغنم وكان يحارب ويصايب فى الحروب ويمرض .
ثم مات .

ولما كان الرسول صلعم قوة جبارة فيمكن أن يقال أيضاً أنه
أعظم زعيم سياسى عرفه التاريخ . . فهذا الامتزاج بين الدين والدنيا عرف
الذى جعلنى أؤمن بأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو أعظم شخصيات
أثراً فى تاريخ الانسانية كلها » .

هذا رأى حديث ينصف الاسلام ورسول الاسلام ويعطيه حقه :
وأصبح رسول الله بشاهدتهم أعظم انسان فى الوجود .

وهناك مؤرخ آخر أنصف الاسلام وتعاليم الاسلام وحضارته وهو
العالم سير توماس أرنولد فى كتابه « الدعوة الى الاسلام » (١٢) .

يقول : « لم تجيء مهمة تبليغ الرسالة فى تاريخ الاسلام بعد تريت
وتفكير ولكنها كانت ملقاة على عاتق المؤمنين منذ البداية ، وقد نرى ذلك
واضحاً فى هذه الآيات القرآنية التى ننقلها هنا مرتبة بحسب تاريخ نزولها .
« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي
أحسن » (١٢) .

(١٢) توماس أرنولد « الدعوة الى الاسلام » ص ٢٧-٢٨ .

(١٣) سورة النحل آية ١٢٥ ذكرت خطأ فى الترجمة العربية ١٢٦ .

« وأن الذين ثوروا السكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب فلذلك
عادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمزت بما أنزل الله من كتاب
وأمرت لأعدل بينكم. الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة
بيننا وبينكم . الله اجمع بيننا وبينه المصير » (١٤) .

وفي الآيات المدنية نجد مثل هذه التعاليم . وقد نزلت على محمد
بعد أن أصبح على رأس جيشه الكبير في ذروة سلطانه .

« وقل للذين أوتوا السكتاب والأمين أسلمتكم ؟ فإن أسلموا فقد
أهدوا وإن تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » (١٥) .

نذلك يبين الله لكم ايانه لعلمكم تهتدون . ولكن منكم أمهتدعون
الى الخير : ويأمررون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

وهكذا كان الاسلام منذ بدء ظهوره دين دعوة من الناحية النظرية أو
الناحية التطبيقية . وقد كانت حياة محمد تمثل هذه التعاليم ذاتها . وكان
النبي نفسه يقوم على رأس طبقات متعاقبة من الدعوة المسلمين . الذين
وفقروا الى ايجاد سبيل الى قلوب الكفار ، على انه ينبغي الا نلتمس
على روح الدعوة الاسلامية في نسوة المضطهد — أو عسف التعصب ولا
حنى في مآثر المحارب المسلم ، ذلك البطل الأسطوري الذي حمل السيف
في احدى يديه وحمل القرآن في اليد الأخرى وانما نلتمسها في تلك الأعمال
الوديعه الهادئة التي قام بها الدعوة وأصحاب المهن الذين حملوا عقيدتهم
الى كل صقع من الأرض ، على أن هؤلاء الدعوة لم يلجئوا الى اتخاذ مثل
هذه الأساليب السلمية في نشر هذا الدين عن طريق الدعوة والاقناع ،
بخلاف ما زعم بعضهم حينما جعلت الظروف القوة والعنف أمرا مستحيلا،
يتناقى مع الأساليب السياسية ، فلقد جاء القرآن مشددا في الحض على
هذه الطرق السلمية في غير آية منه مثال ذلك :

(١٤) سورة الشورى آية ١٤—١٥ ذكرت خطأ في المرجع السابق
آية ١٣ — ١٤ .

(١٥) سورة آل عمران آية ٢٠ ذكرت خطأ في المرجع السابق آية ١٩

« واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا ، وذرنى والمكذبين
أولى النعمة ومهلهم قليلا » (١٦) .

« الا بلاغا من الله ورسالاته » (١٧) .

« قل للذين آمنوا يفتروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوما
بما كانوا يكسبون » (١٨) .

« وقال الذين اشركوا لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شيء نحن
ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على
الرسل الا البلاغ المبين » (١٩) .

« فان تولوا فائما عليك البلاغ المبين » (٢٠) .

ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن الا الذين ظلموا
منهم ومنولوا آمنا بالذى أنزل اليينا وأنزل اليكم . والهكم وانما . ونحن له
مسلمون » (٢١) .

« فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ان عليك الا البلاغ » (٢٢)
« ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى
يكونوا مؤمنين » (٢٣) .

« وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » (٢٤) .

ولم تكن هذه التعاليم مقصورة على السور المكية : وانما وردت
بكثرة فى الآيات المدنية كقوله تعالى : « لا اكراه فى الدين » (٢٥) .

(١٦) سورة المزمل آية ١٠ .

(١٧) الجن آية ٢٣ ذكرت خطأ فى المرجع آية ٢٤ .

(١٨) الجاثية آية ١٤ ذكرت خطأ ١٣ .

(١٩) النحل آية ٣٥ ذكرت خطأ ٣٧ .

(٢٠) النحل آية ٨١ ذكرت خطأ ٨٤ .

(٢١) العنكبوت آية ٤٦ ذكرت خطأ ٤٥ .

(٢٢) سورة الشورى آية ٤٨ ذكرت خطأ ٤٧ .

(٢٣) سورة يونس آية ٩٩ .

(٢٤) سورة مائدة آية ٢٨ ذكرت خطأ ٢٧٩ بالرغم من ان عدد آيات

هذه السورة ٥٤ آية .

(٢٥) سورة البقرة ٢٥٦ ذكرت خطأ ٢٥٧ .

« وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا ابلاغ المبين » (٢٦) .

« قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين » (٢٧) .

« ولا تزن تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين » (٢٨) .

وهناك أيضا من المستشرقين امثال المستشرق غزلى فى كتابه « اليونان تحت حكم الرومان » (٢٩) « ان نجاح محمد كمشرع بين اقدم الأمم وأثبت البلدان قديما فى القانون مدى أجيال طويلة فى شتى نواحي الهيكل الاجتماعى دليل على ان هذا الرجل الخارق قد كون من مزيج من كفايات ممتازة » .

أما وليم هوير الانجليزى فيقول فى كتابه « حياة محمد » (٣٠) « ومن صفاته عليه السلام الجديرة بالتنويه والاجلال الرقة والاحترام اللتان كان يعامل بهما أتباعه حتى أقلهم شأنًا ، فالتواضع والرافة الانسانية وانكار الذات والسماحة والاخاء تغلفت فى نفسه ووثقت به محبة كل من حوله » .

أما السير توماس كارليل فيقول فى كتابه « الأبطال » (٣١) « لقد أصبح من العار على أى فرد متمدن من أبناء هذا العصر أن يصفى الى تلك الاتهامات التى وجهت الى الاسلام والى نبيه ، وواجبنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ، فإن الرسالة التى أداها ذلك الرسول الكريم مازالت السراج المنير لنحو أربعمائة مليون من الناس »

(٢٦) سورة التغابن آية ١٢ .

(٢٧) سورة الحج آية ٤٩ ذكرت خطأ آية ٤٨ .

(٢٨) سورة المائدة ١٣ ذكرت خطأ آية ١٦ .

(٢٩) منير البعلبكي « دفاع عن الاسلام » ص ٤٧ .

(٣٠) المرجع السابق .

(31) T-A Cariel. The Herows and Herows Warshig P. 13

أما برنارد شو فيقول (٣٢) « لقد وضعت دائما دين محمد (صلى الله عليه وسلم) موضع الاعتبار السامى بسبب حبويته المدهشة : فهو الدين الوحيد الذى يلوح لى أنه حائز أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة بحيث يستطيع أن يكون جوابا لكل جيل من الناس » .

وبذلك نرى أن هناك فريقا من المستشرقين المصنفين حاولوا أن يكونوا وجهة نظر محايدة . وأن يكونوا أمناء فى دراساتهم : وأن يبتعدوا عن العصبية والتعصب فى عرضهم للإسلام ومبادئه .

ولكن منهم فريقا آخرون من المسلمين عامة وعن المسلمين العرب خاصة ومعظمهم ممن يدعون بالمذاهب الفاشية أو النازية فى السياسة والاقتصاد وطائفة أخرى من طائفة الماديين المحدثين الذين يدعون إلى هدم المجتمعات القائمة . ويقولون بأن الأديان كافة عقبة تعترض الإصلاح الاجتماعى الذى يلغى الروحانيات ويستبدل بها الماديات فى كل مطلب من مطالب الدنيا ولا حياة غيرها لإنسان .

ونصيب الإسلام عند هؤلاء المحدثين الماديين أوفر الانحسبة وأولاه بالتقديم فى خطة الفكر والتشويه لأن المسيحية لاتزاحم مذهبهم الاجتماعى بمذهب شامل لمساكن التشريع والنظم الاجتماعية والحكومة . ولحسن الإسلام يقيم المجتمع على نظامه : ويقرر الحقوق والواجبات بنظامه ويحيط بشئون الدين والدنيا فى حياة الأفراد وحياة الجماعات وتغيير البناء الجديد على أساسه الخالد دون أن يضطر المسلم إلى انكار قاعدته من قواعد العبادات فيه والمعاملات (٣٣) .

لهذا لابد أن نصل إلى نتيجة هامة وهى أن عمل المستشرقين يناقض فى كثير من الأحوال الطابع العلمى الصحيح . لهذا السبب ولغيره من الأسباب . ولم يكن الانحراف عن جادة البحث العلمى خاصا بطائفة من المستشرقين دون أخرى ، فقد كان من الصعب عليهم وأكثرهم مسيحيون من دينون أن ينسوا أنهم يدرسون ديننا ينكر عقيدة التثليث وعقيدة الصلب

(٣٢) منير البعلبكي « دفاع عن الإسلام » ص ٤٨ .

(٣٣) عباس العقاد « مايقال عن الإسلام » ص ٩ .

والفداء . وهما أسس الدين المسيحي . كما كان من العسير أيضا ان
سفغلوا عن الفتوحات الاسلامية التي بدأت في عهد الخليفة الاول أبي بكر
فقطت على المسيحية واحلت الاسلام محلها .

الحقيقة ان هذه الحقائق عملت عملها في نفوسهم فدفعتهم الى
الانحراف والتخلي عن مبدأ الحيادة التامة فيما يتعاطون من دراساتهم ومن
عنا صار من الطبيعي الا نأخذ نتائجهم بروح التسليم والثقة وأصبح من
الواجب ان ننظر اليها بعين الحذر والتحفظ .

ومما يؤكد قولنا هذا هو ان هناك فريقا آخر من المستشرقين الذين
حاولوا أن يتجردوا من العواطف الدينية . وقد أعربوا عن انكارهم للانحراف
العلمي الذي وقع فيه كثير من زملائهم وسنورد بعضا مما قالوه من هذا
الصدد .

يقول الأستاذ مونجمري وات (٢٤) .

« جد الباحثون منذ القرن الثاني عشر في تعديل الصور المشوهة
التي تولدت في أوروبا عن الاسلام : وعلى رغم الجهد العلمي الذي بذل
في هذا السبيل ، فان آثار هذا الموقف المجاني للحقيقة التي أحدثتها كتابات
القرون الوسطى في أوروبا لازالت قائمة : فالبحوث والدراسات الموضوعية
لم تقدر بعد على اجتبابها » .

ويقول الأستاذ برنارد لويس في كتابه « العرب في التاريخ » (٢٥)
« لا تزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في : وُلغات عدد من العلماء
المصائب ومستقرة في الغالب وراء الحواشي المرسومة في الأبحاث
العلمية » .

ويقول الأستاذ المستشرق الانجليزي جب في كلامه عن بحوث
المستشرقين « لقد قامت في صفوفهم في السنوات الأخيرة محاولة ايجابية

(٢٤) ابراهيم اللبان « والمستشرقون والاسلام » ص ٣٦ .

(٢٥) برنارد لويس « العرب في التاريخ » ص ٦٣ .

تحاول النفوذ بصدق وإخلاص إلى أعماق الفكر الديني للمسلمين ، بدل
السطحية الناضجة التي اصطفت بها دراساتهم السابقة » (٣٦) .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن التأثير بالأحكام التي سبق أن صدرت
عن الإسلام واتخذت صورة تقليد منهجي في الغرب مازال قويا
في بحوثهم » .

ويقول الأستاذ نورمان دانيل « على رغم المحاولات الجدية المخلصة
التي بذلها بعض الباحثين في العصور الحديثة للتحرر من المواقف التقليدية
للكتاب المسيحيين عن الإسلام ، فإنهم لم يتمكنوا أن يتجردوا ، أنها مجردا
تاما كما يتوهمون (٣٧) » .

لا نريد أن نمضي إلى أبعد من هذا في إيراد الأحكام التي صدرت
من بعض المستشرقين المنصفين على زملائهم المتعصبين ، فهذا القدر كاف
بالنسبة لغرضنا .

(٣٦) إبراهيم اللبان « المرجع السابق » ص ٣٦ .

(٣٧) المرجع السابق ص ٣٧ .

هجوم المستشرقين على الإسلام

من أهم من كتب في الهجوم على العقيدة الإسلامية المستشرق
اليهودي الأصل المجري المولد جولدزيهر والذي يعتبر من أشهر علماء الغرب
في مجال الاستشراق ، لأنه قد قصد أشهر مدارس الاستشراق للدراسة
في برلين وليبزيغ ويودابست ، وسافر إلى سوريا سنة ١٨٧٣ وصحب فيها
الشيخ طاهر الجزائري ، ثم توجه إلى فلسطين ومصر ، حيث تطلع في
العربية على شيوخ الأزهر (١) وعلى الرغم من ذلك إلا أنه في جميع آرائه
وأحكامه عن الإسلام لم يتخل عن نزعتة اليهودية فالف كتابا عن « تاريخ
الجنس البشري » صور فيه الإسلام أنه من وضع محمد عليه الصلاة
والسلام وأن محمدا كان تلميذا لليهود .

والواقع أن فكرة استمداد الرسول القرآن من اليهودية قد
استخدمها المستشرقون أوسع استخدام ، فأنهم لم يقتصروا على أن ادعوا
أن الرسول استمد القصص القرآني من قصص التوراة ، بل ذهبوا إلى
أبعد من هذا ، فادعوا أن الرسول استمد كثيرا من أحكام الشريعة الإسلامية
وفي قاموس الإسلام لهيوز نرى نماذج كثيرة لهذه المحاولة ففى مادة
اليهودية يحاول هيوز أن يرينا كيف اعتمد الرسول على اليهودية فاقتبس
منها كثيرا من أحكام الطهارة وغيرها (٢) .

ويشارك جولدزيهر رايه « جورج سيل » وهو أحد مترجمي القرآن
المبكرين يقول في مقدمة ترجمته :

« ان محمدا كان في الحقيقة مؤلف القرآن والمخترع الرئيسي له فامر
لايقبل الجدل ، وان كان من المرجح ، مع ذلك ان المعاونة التي حصل

(١) نجيب العقيتي « المستشرقون » ص ٢٨١ .

(٢) اللبان « المرجع السابق » ص ٤٥ .

عليها من غيره في خطته هذه لم تكن معاونة يسيرة ، وهذا واضح في أن مواطنيه لم يتركوا الاعتراض عليه بذلك نفسه « (٣) » .

وإذا كان جورج سبيل قد بت في مصدر القرآن على النحو السابق فجعل الرسول مؤلفه دون موارد ، فان الاستاذ « ريتشارد بل » ، مؤلف كتاب مقدمة القرآن قد سد النقص الذي تركه جورج سبيل في تلك الاكذوبة فاستظهر أن الرسول قد استمد من الكتاب المقدس كثيرا مما جاء في القرآن وبخاصة القصص فهو يقول :

« واعتماده على الكتاب المقدس وبخاصة العهد القديم في قسم القصص فبعض قصص العقاب كتخصص عاد وثمود مستمد من مصادر عربية ولكن الجانب الأكبر من المادة التي استعملها محمد يُفسر تعاليمه يدعمها قد استمدته من مصادر يهودية ومسيحية . وعنده أنه حصل على أوسع فرصة للاستمداد من الكتاب المقدس حينما هاجر الى المدينة فهو يقول « وفي المدينة كان محمد بالنسبة لمعرفة ما في كتاب العهد القديم في وضع أفضل من وضعه السابق في مكة فقد كان على اتصال بالجاليات اليهودية التي كانت دون شك تضم ربانيين ومثقفين ، وهناك دلائل على أنه انتفع بهذه الفرصة فحصل على قسط غير قليل من المعرفة بكتب موسى على الأقل » (٤) .

ولن جانب ماكتبه جورج سبيل ، فهناك ماكتبه ج . ايزاك في كتابه « محاضرات للشرق الأدنى في العصور الوسطى » جاء فيه ص ٣١ . واتفق لحمد في أثناء رحلاته أن يتعرف شيئا قليلا من عقائد اليهود والنصارى ، ولما أشرف على الأربعين أخذت تتراءى له رؤى أقنعتة بأن الله اختاره رسولا .

ص ٣٢ : القرآن مجموع ملاحظات كان تلاميذه يدونونها بينما هو يتكلم « وقد أمر محمد أتباعه أن يحملوا السلام على الاسلام بالسيف إذا اقتضت الضرورة » .

(٣) اللبان « المرجع السابق » ص ٤٣-٤٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٤٥ .

ص ٣٦ : وبينما كان محمد بعد كان المؤمنون به يدونه كلماته
على عجل .

ص ١٢٦ : ودخلت فلسطين في سلطان الكفرة منذ القرن السابع
الميلادي (٥) .

وهناك كتاب آخر اسمه « تاريخ فرنسا » تأليف هـ غيومان ؛
فـ لوستير .. جاء فيه :

ص ٨٠ — ٨١ : « ان محمدا مؤسس دين المسلمين ، قد أمر
اتباعه ان يخضعوا العالم ، وان يبدلوا جميع الأديان بدينه هـ ، ما اعظم
الفرق بين هؤلاء الوثنيين . وبين النصارى . ان هؤلاء العرب قد فرضوا
دينهم بالقوة وقتلوا للناس « اسلموا او تموتوا » في حين ان اتباع المسيح
يحيا النفوس ببرهم واحسانهم . باذا كانت حال العالم لو ان العرب
انتصروا علينا ، اذن لكنا نحن اليوم مسلمين كالجزائريين والمراكشيين » (٦)

ونحن نسأله وضع القرآن بسر المستشرقون في هذا الاتجاه الخاطيء
بمؤكدون على آرائهم في ان القرآن الكريم موضوع وليس وحيا من
عند الله ، انه مرآة لانقي خاص من الحياة هو افق من عقائد تلك العقائد
المنتشرة في رقعة الجزيرة العربية لاسيواها . ومن هؤلاء المستشرقين
المستشرق الانجليزي حب استاذ الدراسات العربية بجامعة هارفارد
بالولايات المتحدة . في كتابه « المذهب الحمدي » وكتاب مفكر تسدل
« مصادر الاسلام » فهما يؤكدان ان شرائع الاسلام تأسست من شرائع
الأديان المعاصرة له والمنتشرة ومنتزعة في الشرق الا وهي اليهودية والمسيحية
والهندية والصابئة والفارسية والجاهلية (٧) .

ويحسن بنا ان نورد نموذجا لافتراءاتهم في هذا الموضوع ليتبين لنا
مدى خطورة ما يكتبون في كتبهم .

(٥) مصطفى خالدي « التبشير والاستعمار » ص ٧٤ .

(٦) المرجع السابق ص ٧٥ .

(٧) ابراهيم خليل « المستشرقون والمبشرون » ص ٣١ .

(م هـ — الاستشراق)

لقد زعموا أن الاسلام أخذ من الجاهلية صلاة الجمعة وصوم عاشوراء
وتبلييب البيت الحرام وحفظ الذكر في الميراث مثل حظ الأنثيين ، التكبير ،
الأشهر الحرم ، والحج والعمرة ، نتف الإبط والوضوء والاغتسال والختان
وتتألم الأظفار .

وأخذ من الصابئة الصلوات الخمس ، والصلاة على الميت ، وصيام
شهر رمضان ، والقبلة وتعظيم مكة ، وتحريم الميتة ولحم الخنزير ، وتحريم
النزواج من القرابات .

وأخذ من الهندية والفارسية ، قصة المعراج والجنسية والخور
والولدان والصراط .

وأخذ من اليهودية ، قصة قابيل وهابيل ، وقصة ابراهيم وقصة
ملكة سبا وقصة يوسف .

وأخذ من النصرانية قصة أهل الكهف وقصة مريم العذراء وقصة
طفولة يسوع .

ومن هذا يخلصون بآرائهم الى القول بأن القرآن ليس وحيا من
الله اذ أنه لو كان وحيا من عند الله لكان للناس جميعا في كل مكان وكل
زمان (٨) وأمام هذه النزعات الخطيرة ضد الاسلام يقول الله سبحانه
في شأن القرآن « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (٩) ويقول عن
الرسول الكريم وعن العرب الذين بعث فيهم « هو الذب بعث في الأميين
رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وأن
كانوا من قبل لفي ضلال مبين ، وآخرين منهم لم يلحقوا بهم وهو العزيز
الحكيم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » (١٠)
ويقول « انه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون ولا
يقول كاهن قليلا ماتذكرون تنزيل من رب العالمين » (١١) ويقول « الذين
يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل

(٨) ابراهيم خليل « المستشرقون والمبشرون » ص ٨٤ .

(٩) سورة الحجر آية ١٥ .

(١٠) سورة الجمعة آية ٢ : ٤ .

(١١) سورة الحاقة آية ٤٠-٤٣ .

يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر » (١٢) ويقول ^١جل وعلا في عموم رسالته « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (١٣) .

ويرى الأستاذ عباس العقاد في هؤلاء الذين ينتقدون القرآن « المبشرين المتخصصين لنقد القرآن وعقائد الاسلام آفة من هذه الآفات ، فليس فيمن عرفناه منهم واحد يسلم من التخطي في التفكير كما يتخطى المصابون بالعلل العقلية ، أو يملكه التعصب الذميم فيقوده الى المغالطة ، ويسول له أن يحجب الحقيقة عن عينيه بيديه ، أو يعمل عمل المحترف الذي يحتال لصناعته بما وسعه من وسائل الترويح والتضليل ، ولا يعنيه إلا أن يعرض بضاعته ويهيئ لها أسباب النفاق في السوق ، وربما اكتفى من النفاق باقناع صاحب البضاعة بصدق الخدمة في العرض والترويج » (١٤) فالقرآن الكريم معجزة خالدة لرسالة خالدة ، ودراسته تنفي أن يكون شيء من كلام البشر ، والموازنة بينه وبين الأحاديث النبوية تؤكد أن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم لا قدر له على الاثنان بقرآن مثله وما فيه من تشريع ديني واجتماعي وسياسي وقوانين ومعاملات وشئون أسرة وعلاقات خارجية ونظام حروب لا يمكن أن يقوم به فرد واحد مهما كانت دراسته ، الى جانب اخبار القرآن بأقاصيص الأمم السابقة وأنباؤه بحوادث مستقبلية ، وتحدثه عن خواطر أنفسنا ونوازعنا وغرائزنا ما لم نهتد اليه إلا في ضوء علم النفس الحديث ، وقد ألقت كتب عديدة لدرس الإعجاز القرآني (١٥) .

فمن ذلك نخلص الى أن جميع هذه الافتراءات التي يفترى بها المستشرقون على القرآن الكريم ، الذي هو مصدر الهمى بلفظه ومعناه ، ليس من عمل محمد ، وإنما هو قول وحى كريم هو جبريل تلقاه من لدن حكيم عليم ثم أوحاه بلسان عربي مبين الى قلب محمد فتلقفه محمد منه كما يتلقن

(١٢) سورة الأعراف آية ١٥٧ .

(١٣) سورة سبأ آية ٢٨ .

(١٤) عباس العقاد « ما يقال عن الاسلام » ص ١٦٩ .

(١٥) عبد الجليل شليبي « الاسلام والمستشرقون » ص ٦٩ .

التلميذ من استاذة نصا من النصوص ولم يكن له من عمل بعد ذلك الا :

١ — الوعى والحفظ « سنقرئك فلا تنسى » .

٢ — الحكاية والتبليغ « وقرآنا فرقناه لتقراه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » .

٣ — البيان والتفسير « وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » .

٤ — التطبيق والتنفيذ « انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله » (١٦) .

وقد نقل اليينا هذا القرآن كاملا متواترا نقلته اجيال عن اجيال تلاوة باللسنة ، وحفظا فى الصدور ، وكتابة فى المصاحف وشهادة فى التاريخ بتواتر هذا الكتاب شهادة ناصعة لا يماثلها ولا يدينها شهادة لكتاب غيره ظهر على وجه الارض . هذا الكتاب هو المصدر الوحيد لعقائد الاسلام والمصدر الاول لنظمه وتشريعاته وآدابه وتوجيهاته وقد تلقاه المسلمون بالشرح والتفسير والتحليل ، كل فى مجال عمله واختصاصه واستنبطوا منه احكام دينهم وأصول مجتمعهم ، هذا فى مجال العقيدة ، وذاك فى مجال الفقه والتشريع وثالث فى مجال الآداب والأخلاق . وقد وضعوا الأسس السليمة والقواعد المتينة لفهم هذا الكتاب والاستنباط منه وفق ما عرفوه من أساليب لغتهم العربية وما خطبه لهم النبى من توجيهات وما فهموه من جملة تعاليم الاسلام وروحه العامة .

ولم يجد هؤلاء العلماء فى آيات هذا الكتاب الا التناسق والاتلاف فهى يصدق بعضها بعضا ويفسر بعضها بعضا وما يظنه القاصرون الذين يجهلون اسرار اللغة العربية واساليبها تعارضا أو اختلافا فما هو بالتعارض أو الاختلاف ، وانما هى نصوص عامة تقبدها نصوص خاصة أو آية مطلقة تفسرها آية مقيدة وهكذا (١٧) .

نعم ان فى القرآن آيات محكمات واخر متشابهات ، كما قال تعالى :
« هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب واخر

(١٦) الفرضاوى والعسالى « الاسلام بين شبهات الضالين » ص ٣٥

(١٧) المرجع السابق ص ٣٦ .

منشأها : فاما الذين غي قلوبهم زيغ فيتعنون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الى الله والراسخون في العلم يقولون انا به كل من عند ربنا وما يذكر الا اولو الالباب » (١٨) .

ويقف المستشرقون المعاصرون عند نصوص معينة من القرآن ينخذون من فهمهم الخاطيء لها دليلا على أن محمدا استقى تعاليمه من الكتابيين وليس فيها دليل على ما يريدون . فقد ذكر المستشرق الانجليزى الفردجيوم (١٩) والمستشرق الأمريكى فردريك بلس أن الآية التى نقول : « يا أخت هارون ما كان أبوك امرا سوا وما كانت أمك بغيا » (٢٠) قد اختلطت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول جيويم ان محمدا كان دارسا مبتدئا للكتاب المقدس فظن ان مريم أم عيسى عليه السلام هى مريم أخت هارون ، مع أن بين عيسى وهرون زمنا طويلا . ويقول بلس « خاطب القرآن الكريم مريم على لسان قومها بعد أن ولدت عيسى ولم يكن لها زوج بقوله يا أخت هارون ما كان أبوك امرا سوا وما كانت أمك بغيا ، ويقول كيف تكون مريم أخت موسى التى عاشت قبل المسيح بالك راربعمئة عام هى أم المسيح » .

ومن العجيب أن يتناقل الفكرة آخرون ويتمسكوا بها ؛ وكلمة أخت
فى اللغة العربية لاتعنى فقط الأخوة فى النسب ؛ وإنما تعنى مع ذلك
الشبيه والمماثل . وقد كانت مريم أم المسيح معروفة بورعها وتقاها وهى
الأنثى الوحيدة التى تقبلها ربها بقبول حسن وأنبثها نباتا حسنا . وكانت
تشبه بهارون فى ورعها وتقواها (٣٢) .

رسالة ١ : أهداف فيزمار وهو دكتور في الفلسفة فهم قوله تعالى
مخاطبا رسوله الكريم : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (٢٢)
ولم يفهم المعنى الصحيح البسيط وأن الجملة استفهام إنكاري لا استفهام
عادي « (٢٣) .

(18) سورة آل عمران آية ٧ .
(19) A. Gullume The legacy of Israel. P. 18.

(٢٠) مصطفى خالدي « التبشير والاستعمار » ص ٤١ .

(۲۱) سورة مريم آية ۲۸ .

(۲۲) سورة يونس آية ۹۹ .

(٢٣) مصطفى خالدي « التبشير والاستعمار » ص ٤١

وعلى الرغم من هذا الهجوم المستعر الا ان هناك عتولا مستنيرة حاولت ان تقف موقف الجدية والبحث العلمى النزيه ، فنرى المستشرق ديزيريه بلانشيه مؤلف كتاب « دراسات فى التاريخ الدينى » بقول « لقد أتى محمد بكتاب تحدى به البشر جميعا أن يأتوا بسورة من مثله ففقد بهم العجز وشملتهم الخيبة وبهتوا أمام ذلك الاحراج القوى الذى اغلق فى وجوههم كل باب » (٢٤) .

ويقول الأستاذ ديرمانجيم « لقد تحدى محمد الانس والجن أن يأتوا بمثله وهذا هو برهان رسالته بالمعنى الكامل ، ولم يكن الأمر فى القرآن متعلقا بقيمة أدبية استثنائية . فان محمدا كان يحتقر الشعراء ودفع عن نفسه أن يكون واحدا منهم . ولكن الأمر متعلق بشيء آخر غير هذه القيمة وهو الفرق بين وحى الاله وتلقين الشياطين » (٢٥) .

فبذلك فالقرآن برىء واكبر من أن ينال منه هؤلاء الحانسدون فهو معجزة دالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يبالغه عن ربه ، فالقرآن كلام الله تحدى به العرب أن يأتوا بمثله فمعجزوا « فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صسادتين » (٢٦) وقوله تعالى : « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » (٢٧) وقوله تعالى : « لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (٢٨) وقوله تعالى « ام يقولون افتراء قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » (٢٩) .

وفعلا لم يجرؤ أحد على مر العصور على التحدى وعلى الاتيان بمثله، خاصة وأن القرآن نزل على قوم يتمتعون بالبلاغة والفصاحة ومنهم الشعراء والخطباء ، فلم يبق الا كلام الله وليس كلام البشر ، وظل القرآن يتحدى على مر العصور ، فالقرآن اذا معجزة خالدة تشهدها نحن الان كما

(٢٤) محمد غلاب « نظرات استشرافية » ص ٣١ .

(٢٥) محمد غلاب « نظرات استشرافية فى الاسلام » ص ٣١ .

(٢٦) سورة الطور آية ٣٤ .

(٢٧) سورة البقرة آية ٢٣ .

(٢٨) سورة الاسراء آية ٨٨ .

(٢٩) سورة يونس آية ٣٨ .

شاهدها الذين أنزل القرآن فيهم لم تغب منه كلمة ، ولم تضم اليه أخرى .
وكما جاء فيه « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (٢٠) وجاء ايضا
« وقرآنا فرمناه لتقرأه على الناس على مكث » (٢١) .

موقف المستشرقين من السنة النبوية :

يزعم المستشرق المجري جولدزيهر أن الاسلام دين تطور على يد
المسلمين ، وذلك بكثرة الاضافات التي جعلت كيان هذا الدين يصل الى
حد لم يعرفه محمد صلى الله عليه وسلم . واول هذه الاضافات السنة ،
فان الوفاء الأحاديث التي ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم نطق بها
هى من صنع العلماء الذين أرادوا أن يجعلوا من الاسلام ديناً كبيراً شاملاً ،
فخلقوا هذه الأحاديث ويذكر « ان تعاليم القرآن نجد تكملتها واستمرارها
فى مجموعة الأحاديث المتواترة ، وهى وان لم ترو عن النبى « صلى الله
عليه وسلم » مباشرة ، تعتبر أساسية لتمييز روح الاسلام » (٢٢) .

ويقول ايضا « ان هذه الأحاديث وغيرها من النصوص المماثلة والتي
يسهل علينا جمعها لاثمّل الأخلاق فحسب بل انها لتعبر عن العاطفة العامة
لفقهاء المسلمين ، ولكن الاسلام خلال توسعه التالى وبفعل التأثيرات
الأجنبية ترك مجالا لدقة العلماء المعنيين ولعلماء العقائد » (٢٣) .

ولابد لنا قبل أن نرد على هذا الهجوم أن نعرف معنى السنة ، فالسنة
ليست الا الطريقة العملية المضطردة التي نقلت عن الرسول مقلداً متواترا
عمليا معروفا عند الكافة ، ومن الوصايا بها على هذا المعنى ماورد من
أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء
الراشدين من بعدى » وقوله صلى الله عليه وسلم « من رغب عن سنتى
فليس منى » فان سبيلها فى هذين هو سبيلها فى الرخصة السابقة (٢٤) .

(٣٠) سورة الحجر آية ٩ .

(٣١) سورة الاسراء آية ١٠٩ .

(٣٢) جولدزيهر « العقيدة والشرعية » ص ٣١ .

(٣٣) المرجع السابق ص ٣٣ .

(٣٤) حمود شلتوت « الاسلام عقيدة وشرعية » ص ٤١١ .

وقد أخذت كلمة سنة عند علماء الأصول معنى آخر وهو ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من أقوال أو أفعال أو تقريرات . وكانت بهذا المعنى المصدر الثانى من المصادر التشريعية ، يستنبطون منها كما يستنبطون من المصدر الأول وهو القرآن ، ويرجعون إليها فى فهم المراد منه .

أما الفرق بين القرآن والسنة فيرجع أولا الى أن القرآن قد اتخذ له الرسول صلى الله عليه وسلم كتابا يكتبونه ، ويرتبونه بآياته وسوره حسب ما أمر به من الله ، بينما السنة لم يتخذ لها كتابا ، ولم يكتب منها الا القليل ، بل ورد النهى عن كتابتها بحفظها فى الصدور .

ثانيا : القرآن لم ينقل منه شيء بالمعنى . ومنع ذلك فيه ممعا باتا فى حين أن السنة قد أبيح فيها ذلك ، ونقل كثير منها بالمعنى ، ولا يخفى تفاوت الناس فى فهم المعنى وأسلوب التعبير والنقل .

ثالثا : القرآن نقل اليه بالتواتر حفظا وكتابة ، ولكن السنة ، قد نقل معظمها بطرق الأحاد ، ولم يتواتر منها الا القليل .

رابعا : كان الأصحاب يراجعون النبي صلى الله عليه وسلم عند اختلافهم فى حرف من القرآن ، وكان يحكم بينهم فيه ، أما بتعيين احدى القراءتين أو بإجازتهما ، ولكن السنة لم يعهد فيها شيء من ذلك (٣٥) .

هذه هى حقيقة السنة المحمدية التى حاول هذا المشرق وغيره الحط من شأنها ورميها باتهامات كثيرة كما رأينا . فكيف نكون هذه الأنهات والرسول الذى أثرت عنه هذه السنة ظل قرابة ربع قرن يعظ الناس ويعلمهم ويربيهم ويفتيهم ويصبرهم بما يدعون ويفعلون .

وكان عمله وقوله بداهة يسيران بين يدى الوحي النازل عليه من السماء ، وهذا التراث من الأقوال والأعمال تلقفه المسلمون بعناية ونقدوه بحكمة والموازن التى وضعوها لقبول السنن وردّها لا تعرف الدنيا أدق ولا أعدل منها .

فالسنة كما ذكرنا هي المصدر الثاني في الاسلام . واذا ثبت ان
محدثا رسول الله يوحى اليه كان لما يقوله ويبدى اليه في مبين هذا
الاسلام وتوضيح معامله وتطبيقه في الحياة منزلة الوحي المعنوي .

« وما أتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » هذه السنة
مشت في رحاب القرآن ، وعبرت عن روحه شارحة موضحة ، ونكرت
للناس أبواب الفهم والتجديد في أمور حياتهم المتطورة التي تتصل
بوسائل المعاش التي تتغير بتغير البيئات والازمان ، وفي ذلك يقول
رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنتم أعلم بشئون دنياكم » (١٦) .

وقد وجدت هذه السنة من الرعاية في حفظها وجمعها وتقنينها من
الدخيل عليها ، مالا يزال التاريخ العلمى يذكره بالفخر والاعجاب .

فقد حاول اعداء الاسلام ان يدسوا فيها مالميس منها ليكذبوا نقاءها
فوضعوا احاديث مكنوبة ، وروايات ملفقة ، ونسبوها زورا الى رسول
الله منتهزين ماحاق بالمسلمين من فتن في فترة من الدهر ، ولكن سرعان
ما وقف الافذاذ من سلف هذه الأمة الذين كرسوا حياتهم يطوفون البلاد
وبجوبون القفار بحثا عن صحيح السنة ، وكشفا عن زائفها . وكان العهد قريبا
بالرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته ، والأمة العربية أمة حفظ ووعى .
فوضع هؤلاء العلماء الأصول والقواعد للرواية وبحثوا عن الرجال وجرحوا
وعدلوا ، والفوا السكتب الكثيرة في التاريخ والسير والأسماء ، ولم
يأخذوا الا عن ثقة عدل حافظ ضابط ، حتى لقد افردوا كتب الانقاة من
الرواة ، وكتبوا للضعفاء ، وذلك جهد لم يعرف لأمة في صيانة تراثها
وتراث نبيها .

وما يقال انهم اهتموا بسند الحديث ورواته دون موضوعه أو مثله
فهذا كلام غير صحيح ، لأنهم اهتموا بالموضوع فردوا الحديث الشاذ المخالف
لما عرفوا من أصول وردوا الأحاديث لعل قاذحة تتصل أحيانا بالموضوع
كما تتصل بالسند ، نعم أنهم وجهوا جل همهم الى السند والرواة لأن
الموضوع تختلف العقول في قبوله ، ورده حسب عصورهم وثقافتهم وما

حان يعتبر صحيحا مقبولا بالأمس قد يعتبر خطأ مرفوضا اليوم وبالعكس (٣٧) فقاموا بما عليهم فى نقد الرواه وتجلية حالهم وتركوا لمن يأتى بعدهم مهمة الحكم على موضوع الحديث بما يتفق وما عندهم من وسائل الفهم وموازين النقد . وهناك رد على جولدزيهر من قبل الأستاذ الغزالى يقول : وهنا نتساءل نحن : كيف يتصور هذا المستشرق أن الاسلام ينمو ؟ ان المقطوع به لدينا وفق النصوص المجمع عليها . ان الاسلام فى حياة الرسول اكتمل فى عقائده وعباداته وأخلاقه وأحكامه ، ونصوصه وقواعده ، وان الرسول انتقل الى الرفيق الأعلى وترك الاسلام على هذا النحو ، وأن المسلمين من القرن الأول الى يوم الناس هذا يعتبرون أى تزيد على الدين بدعة تحارب ، ويرفضون من أى مخلوق ومن أى جماعة أن يضموا الى هذا الدين جديدا ، فكيف ساع لهذا المستشرق أن يركب هذا الشطط ؟؟ (٣٨) .

الفقه الاسلامى والمستشرقون :

لم ينج الفقه الاسلامى من هجمات المستشرقين بل انهم بدأوا يشككون فيه ، ويذكرون أن هذا الفقه مستمد من القانون الرومانى ومعتمد عليه اعتمادا كبيرا ، كما أنهم عدلوا مواد هذا القانون طبقا للظرف المحلية وان هذا التراث الذى خلفوه ليسوا بأربابه وان الامامين مثلا الأوزاعى والشافعى قد درسا القانون الرومانى فى مدرسة بيروت القانونية (٣٩) ومن المستشرقين الذين يزعمون ذلك جولدزيهر فى كتاب « العقيدة والشريعة فى الاسلام » وكذلك دى بور الذى يقول « بعد أن فتح المسلمون بلادا ذات مدنيات قديمة نشأت حاجات لم يكن للاسلام عهد بها وحلت محل سنن الحياة العربية البسيطة عادات وأنظمة لم يرشد لها التشريع ارشادا دقيقا الى وجه الحق فيها ، ولم يرد فى السنة بالنفى ولا بالتأويل مايبين الطريق الى معالجتها . ثم اخذ عدد الوثائق الجزئية يزداد يوما بعد يوم وهى لم ترد فيها نصوص ولم يكن للمسلمين بد من الحكم فيها ، اما بما يتفق مع العقل ، واما بما يهديهم اليه ادراكهم لمعنى الخير ، ولا بد من

(٣٧) القرضاوى والعسال « المرجع السابق » ص ٣٨ .

(٣٨) محمد الغزالى « دفاع عن العقيدة والشريعة » ص ٦٤ .

(٣٩) محمد الدسوقي « الاسلام والمستشرقون » ص ٤١ .

أن يكون القانون الرومانى قد ظل زمنا طويلا يؤثر تأثيرا كبيرا فى هذا الاتجاه فى الشام والعراق وهما من ولايات الامبراطورية الرومانية « (٤٠)

ويقول المستشرق ايموس « ان الشرع المحدث ليس الا القانون الرومانى للامبراطورية الشرقية معدلا وفق الأحوال السياسية فى الممتلكات العربية » (٤١) .

ويقالى المستشرقون فى حكمهم على الفقه الاسلامى حتى نرى منهم طائفة تذكر أن الفقه اعتمد اعتمادا كبيرا على الاجتهادات التى تجعله بذلك ديننا مصفيا ، كما أنهم وعلى رأسهم المستشرق الأمريكى ارنست جارسون فى كتابه « The march of faith » يذكرون أن الاسلام ماهو الا عمليات نتهية وهى عبارة عن مزيج مشوه من الآراء والمدركات الخاطئة (٤٢) .

ومن هؤلاء المستشرقين أيضا سالون اسنرتزن الذى تخصص فى الفقه والتاريخ الاسلامى ، وكذلك المستشرق الفرنسى دى كوروا المتخصص فى التشريع الاسلامى والمذاهب الاسلامية وكذلك المستشرق الفرنسى بوتييه الذى درس مذاهب المسلمين ، مبين الذى ترجم الاجازة فى فنون التدريس عند الاسلام فى المذهب الحنفى والجهاد والزكاة والنشأ والاسلامية (٤٣) .

ولكن هناك بعض المنصفين مثل المستشرق الايطالى نلينو الذى كتب موضوعا عن « نظرات فى علاقات الفقه الاسلامى بالقانون الرومانى وفيه يذكر أن دومينيكو غانيسكى كان اول من زعم أن القانون الاسلامى فى جوهره مستمد من القانون الرومانى ، ولكنه كان لايعرف العربية ولا التركية بل اهتم بالمسائل القانونية والقضائية » (٤٤) .

(٤٠) محمد الدسوقي « الاسلام والمستشرقون » ص ٤٩-٥٠ .

(٤١) محمد الدسوقي « الاسلام والمستشرقون » ص ٥٠ .

(42) Garrison. The March of faith P. 66.

(٤٣) نجيب العقيدى « المستشرقون » ج ٢ متفرق .

(٤٤) صلاح الدين المنجد « المنتقى فى دراسات المستشرقين » ص ٤٦ .

وانتشر هذا الرأي حتى قالوا ان هناك مشاركة بين قوتين حداثيتين والتشريع الاسلامى ، وزعموا ان القواعد الرومانية دخلت فى الاسلام فى زى الاحاديث الموضوعة التى نسبت الى محمد .

ومن هؤلاء هنرى هيوك الذى قال ان الفقه الاسلامى من الاساس ليس الا القانون الرومانى بتعديل لا يذكر (٤٥) .

ويذكر الأستاذ نلينو أدلة مقنعة على خطأ هذه الاراء بين ذلك أنهم يتصيدون بكل جهد التشابهات ويهملون الاشارة الى الاختلافات التى تعتبر أمحطاً بين قيمة التشابهات وقدرها ، كما أنهم أهملوا الفرق العظيم الذى يوجد بين الغرب القديم وبين العالم الاسلامى فى تصور القانون وفى مصادره ، كما أن الغرب كان يخلط عندما يتكلم عن القانون الوضعى بينه وبين الفقه الاسلامى لأنه لا توجد ترجمة حرفية للانجليزية مثلاً لكلمة فقه الا Law بمعنى قانون وشتان بين الفقه الذى يبحث علاقة المؤمن بالله وبنفسه وبسائر أبناء جنسه وبالعبادات والأحوال الشخصية والوراثة والحقوق المالية والأوقاف والحدود والسير ، ولذلك نجد أن مايفهمه علماء أوروبا عن الفقه الاسلامى هو اختلاف بين القضايا الفقهية « (٤٦) .

والحقيقة ان المزاعم الضالة التى نادى بها المستشرقون ان دلت على شيء فائما تدل على جهل الباحثين بحقيقة الشريعة الاسلامية وكنا نعذر هؤلاء المستشرقين لو ان القانون الرومانى والتشريع الاسلامى يتفقان فى المنابع والغايات أو يتشابهان فى الحقوق والواجبات أو يعاربان فى الاداء والعقوبات .

اما الشريعة الاسلامية فهى تناقض القانون الرومانى فى القيم الأخلاقية والاجتماعية وتخالفه مخالفة واسعة الأمد فى النظرة الى الانسان وإلى الحياة كلها ، فان القول باستفادة الفقه الاسلامى من الرومان قول بين البطلان .

فالفقه الاسلامى يستقى أولاً وآخراً من الوحي ، وقد أمده الكتاب

(٤٥) المرجع السابق .

(٤٦) المرجع السابق ص ٤٧ .

والسنة بأحكام كلية وجزئية لا تحصى ، أحكام تتناول الإنسان منذ نعومة
أظفاره الى مثواه الأخير (٤٧) .

والمعروف أنه لم توجد في الحضارات القديمة أية كتب في الفقه
واشتغلت بالشئون التشريعية الى حد الاسراف مثل ما أثر ذلك عن الحضارة
الاسلامية والأمة الاسلامية ، فالفقه الروماني لا يعدو أن يكون نظيما ضعيفا
خطؤه أكثر من صوابه لاجتماع تحكمه علاقات فوق البدائية حينئذ ودونها
حينئذ آخر . وقد قدم ابن خلدون في مقدمته تفسيرا للفقه الاسلامي بأنه
« هو معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب
والكراهة والإباحة وهي متلقاة من الكتاب والسنة ، وما نصبه الشارع
لمعرفتها من الأدلة ، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه ،
وكان السلف يستخرجونها من تلك الأدلة على اختلاف فيما بينهم ، ولابد من
وقوعه ضرورة أن الأدلة من النصوص وهي بلغة العرب ، وفي اقتضاءات
الفاظها الكثير من معانيها اختلاف بينهم معروف ، وأيضا فالسنة مختلفة
الطرق في الثبوت وتتعارض في الأكثر أحكامها فتحتاج الى الترجيح ، وهو
مختلف أيضا ، فالأدلة من غير النصوص مختلف غيها وأيضا فالوقائع
المتجددة لا تنفي بها النصوص وما كان منها غير ظاهر في النصوص فيحمل
على منصوص لمشابهة بينهما ، وهذه كلها إشارات للخلاف ضرورة الوقوع
ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والأئمة من بعدهم » (٤٨) .

ومن هذا النص يتضح لنا أن هناك فرقا واضحا بين الشريعة
الاسلامية والفقه الاسلامي فالشريعة هي النصوص المقدسة من الكتاب
والسنة والفقه هو استنباطات الفقهاء في دائرة النصوص أو فيما لا نص
فيها . والشريعة ثابتة لا تتغير ولا تتطور أما الفقه فهو من متحرك يتغير
ويتطور والشريعة وحى الله والفقه عمل الإنسان اجتهدا لتفسير الشريعة
الله وليكن منها قلنا الفقه من صنع العقل الاسلامي : فان فقهاء المسلمين
كانوا يحرصون حسب طاقتهم على أن يكون اجتهادهم داخل اطار الشريعة،
وتبعوا لها محاملين التحرير من الأهواء الذاتية ما استطاعوا ولم يهدف
الفقهاء في فقههم الا الى ما هدفت اليه الشريعة من رعاية مصالح العباد

(٤٧) محمد الغزالي « دفاع عن العقيدة والشريعة » ص ٨٦

(٤٨) ابن خلدون « المقدمة » ح ٤ ص ٨٠٤ .

كما عبر عن ذلك الشاطبي ، لم يهدفوا الى رعاية مصلحة خاصة لطائفة أو فرد أو خليفه ، كيف وكلهم رفضوا المناصب والتربى من الخلفاء وتحملوا الأذى فى سبيل تجردهم العلمى .

رفض ابو حنيفة القضاء ، وتقبل السجن راضيا ، وضرب مالك بالسياط فى سبيل ان يغير أو يكتم رايًا رآه فأبى ، وأوذى الشافعى من أجل تجرده وأمانته ، واحتمل أحمد بن حنبل من العذاب مالا يحتمله إلا المؤمنون الأبطال .

وهؤلاء الأئمة الأربعة هم مؤسسو المذاهب السنية المشهورة عند المسلمين . وهذه المذاهب الأربعة وغيرها لا تلزم المسلمين باتباع أحدها ، وإنما هى اجتهادات لأصحابها الذين لم يزعموا لأنفسهم العصمة ، ولم يلزموا الناس بتقليدهم يوما ، ولم ينظر واحد من هؤلاء الفقهاء الى غيره نظرة التعقب أو الخصومة ، بل نظرة ملؤها التسامح والمودة ، وتقدير آراء الآخرين (٤٩) .

ان فى الفقه الاسلامى ثروة من القواعد والتطبيقات والنظرات العميقة فى كل مجال من مجالات الحياة أسرية ومدنية وجنائية ودستورية ودولية ، اعترفت بقيمتها وصلاحياتها المؤتمرات الدولية التشريعية الحديثة وهناك عديد من المستشرقين ممن يدخلون فى تفاصيل النظم الفقهية الاسلامية يحاولون ان يركزوا على الخلاف الشديد بين السنة والشيعة ، والخلاف بين الشيعة والوهابية محاولين بذلك ان يثبتوا ان الاسلام ليس دينًا موحدًا وأنه لا فرق بينه وبين المسيحية المتعددة المذاهب .

واننا فى هذا المجال لابد ان نقرر ان الخلاف بين المذاهب السنية وبين الشيعة المعتدلة ليس خلافا جوهريا يمتد الى اصول العقيدة ، وإنما وسع الهوة بينهما أهواء الحكم ودسائس خصوم الاسلام ، فالجميع من سنيين وشيعة يؤمنون بالله واحد ، ويقدون كتابا واحدا ، ويتبعون رسولا واحدا ، ويتجهون الى قبلة واحدة ، هم جميعا يقيمون الصلاة ، ويؤدون

الزكاة ، ويصومون رمضان . ويحجون البيت ان استطاعوا الى ذلك سبيلا (٥٠) .

أما بالنسبة للقانون الرومانى فهو يختلف كلية عن الشريعة الاسلامية . فلنأخذ مثلا على ذلك بالنسبة لجريمة القتل فى القانون الرومانى . فقد كان لنظام الطبقات المعروف عند الرومان اثر فى تطبيق العقوبة . فإذا كان الجانى من الأشراف رفع عنه القتل واكتفى بنفيه ، وإذا كان من أواسط الناس كانت عقوبته قطع الرقبة ، وإذا كان من الطبقة الدنيا كانت عقوبته الصلب ، ثم غيرت بالقائه فى حظيرة حيوان مفترس ثم غير هذا بالشنق وعلى الجملة فقد مرت الجرائم عند الرومان بأربعة أدوار كان آخرها تدخل الحكومة تدخلا مباشرا فى المعاقبة على الجرائم باعتبار أن المصلحة العامة التى تمثلها تقتضى ذلك ، ولم يكن هذا التدخل قاصرا على انجرائم الماسة بالحكومة كالخيانة العظمى والثورة ، بل كان شاملا للجرائم الواقعة على الأفراد كالقتل والسرقة .

وبذلك جعلت الجرائم الخاصة جرائم عامة ، ووقعت الحكومة عليها عقابا جسمانيا وألغت الدية كما ألغت الثأر ، وبمقتضى هذا الوضع الذى صارت اليه الجرائم الواقعة على الأفراد فى الأمم الحديثة صار العقاب عليها من خصائص الحكومة أيضا ، ومنحت الدساتير رئيس الدولة حق العفو وحق تخفيف العقوبة (٥١) .

معنى ذلك أن القانون الرومانى القديم يعطف على الجانى إذا كان من الأشراف ويقسو عليه إذا كان من غيرهم ، وكان غير الشريف فى نظرهم لا يلتقى مع الشريعة فى صلب رجل واحد ، ولا تنتظمها الانسانية الواحدة ، فهو مع نفسه فى جانب التفريط بالنسبة الى الشريف ، وجانب الإفراط بالنسبة لغيره .

أما الاسلام ، فقد قرر التكافؤ بين الناس جميعا فى الدماء ، ولم يجعل لدم أحد فضلا على آخر ، ولم ير فى المجموعة البشرية من هذه

(٥٠) المرجع السابق .

(٥١) محمود شلتوت « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٣٠٧ .

الناحية « شريفا » لاتمس حياته بجريمته « غير شريف » يلقي بجريمته للحيوانات المفترسة .

وهذه التسوية بين السلطان والرعية لا يراها الاسلام فى حقوق العباد خاصة كالتصاص والاموال ، وانما يراها كما سبق فى حقوق الله الخالصة ايضا كحد الزنا والسرقة .

وبهذا الاصل العظيم الذى تنكمش امام روعته جميع التشريعات البشرية ، اهدر الاسلام نظام الطبقات الذى كان اساس التشريع عند الرومان ، والذى لايزال الطفيان البشرى يحتفظ ببعض آثاره (٥٢) .

المستشرقون وانتشار الإسلام

ومن بين الأخطاء الدالة على جهل المبشرين ، تأتى سلسلة طويلة من التحامل والافتراء ، واشهرها ان الاسلام انتشر بحد السيف . فقد ذكر المستشرق الانجليزى نلسون « لقد اخضع سيف الاسلام شعوب افريقية وآسيا شعبا بعد شعب » (٥٣) ويزعم آخر وهو لطفى ليفونيان « ان تاريخ الاسلام كان سلسلة مخيفة من سفك الدماء والحروب والمذابح » (٥٤) . ويسير على النسق نفسه المؤرخ الانجليزى توماس كارليل الذى كنا نعتبره الى حد ما منصفاً للمسلمين ، نجده فى مسألة الجهاد يسير على النهج نفسه وعلى السيرة نفسها ، فهو يؤكد ان الاسلام انتشر بالسيف الى الغاية « (٥٥) .

ولابد لنا ان نرد ردا مقنعا سليما على هذه الادعاءات ونحاول ان نؤيد رأينا ببعض آراء المستشرقين المنصفين الذين كتبوا بالحيدة التامة فنحن نعرف ان الوحي نزل على الرسول الكريم سنة ٦١٠ م وبدا الرسول

(٥٢) المرجع السابق ص ٣١٢ ، ص ٣١٤ .

(٥٣) مصطفى خالدى « التبشير والاستعمار » ص ٤١ .

(٥٤) مصطفى خالدى المرجع السابق .

(٥٥) منير البعلبكي « دفاع عن الاسلام » ص ٣٢ .

صلى الله عليه وسلم كفاحه فى سبيل الدعوة ، ويحدثنا التاريخ أنه صلى الله عليه وسلم لم يسير جيشا ، ولم يعلن حربا ، بل جمع الناس عند الصفا بمكة ووقف فى جمعهم لا ليثنها حربا ، ولا ليعلنها جهادا ، ولا أمرا إنما وقف يقول :

« يا معشر قريش : أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقنى ؟ قالوا : نعم . أنت عندنا غير متهم ، وما جرينا عليك كذبا قط ، قال فأنى نذير لكم بين يدي عذاب شديد . يا بنى عبد المطلب . . . يا بنى عبد مناف . . . يا بنى زهرة . . . يا بنى تميم . . . يا بنى مخزوم . . . يا بنى اسد . . . ان الله امرنى ان أنذر عشيرتى الأقربين ، وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من الآخر نصيبا إلا ان تقولوا لا الله الا الله » (٥٦) .

لكنه شأن كل نبى ومصلح كذبه قومه وهجوه وآذوه ، وحاربوه ، بل حاولوا ان يقتلوه بعد ان اعتدوا عليه مرارا . وبالرغم من ذلك لم يشنها حربا ولم يحاول دفع الأذى بمثله بل أمر بأن يهاجر أتباعه الى الحبشة بعيدا عن الأذى فهاجروا ، وظل رسول الله يدعو ويجاهد فى سبيل الله متحملا الأذى وصابرا على مساءات الكفار ثلاث عشرة سنة حتى بدأ يفكر فى رد العدوان وكان الله سبحانه وتعالى قد أمره بالقتال فى قوله : « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا ان يقولوا ربنا الله » (٥٧) .

وابتدا الصراع بين جبروت الشرك ودعوة الاسلام الذى استقر عدة أعوام وقعت فيها الغزوات المعروفة ، وكانت كلها ردا على عدوان المشركين وغدر اليهود .

وفى الوقت الذى كان فيه الصراع دائرا داخل الجزيرة العربية بين قوى الايمان والشرك كانت هناك دولتان استعماريتان كبيرتان تتنازعا العالم اذ ذاك وتفرضان سيطرتهما على أجزاء من بلاد العرب هما دولتا الفرس والروم . ولم يكن المسلمون فى هذا الوقت بحيث يفكرون فى فتح امبراطوريات ضخمة مثل فارس والروم ، والعدوان عليها ، وإنما بدأ هؤلاء بالشر والعدوان وقد حاول الرسول عليه الصلاة والسلام عرض

(٥٦) ابن سعد « الطبقات الكبرى » ج ١ ص ١٨١ .

(٥٧) سورة الحج آية ٣٩ .

الاسلام على هذه الدول المجاورة بالحسنى ، فلم يلق منهم الا التفتت والتجبر ، بل وقتل المبعوثين وبدأت هذه الدول تتحرش بالدولة الاسلامية الناشئة فما كان منها الا ان بدأت فى رد العدوان وحمية الدعوة الاسلامية .

ولم يكن فتح المسلمين للدول المجاورة فتح استعمار أو سلب أو نهب وانما كان ازالة للسلطات الطاغية ، وتأمينا للحريات ، ونشرا لمبادئ العدل والمساواة .

ومما يؤيد قولنا فى أن الاسلام كان يحارب ردا للعدوان ولحمية الدعوة الاسلامية ونشرها بين أمم الكفر قول الله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » (٥٨) .

ويقول كذلك « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (٥٩) وفى سورة التوبة يقول سبحانه وتعالى « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين » (٦٠) .

وفى سورة البقرة « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين له » فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » (٦١) .

وقوله تعالى فى سورة الاعراف « ادعو ربكم تضربوا وخفية انه لا يحب المعتدين » (٦٢) .

وقوله فى سورة ق « القيا فى جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب » (٦٣) .

ومن أخلاق الاسلام فى الحروب أنه قد نهى عن الخيانة فيقول تعالى فى سورة الانفال « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء » (٦٤)

-
- (٥٨) سورة البقرة آية ١٩٠ .
 - (٥٩) سورة البقرة آية ١٩٤ .
 - (٦٠) سورة التوبة آية ٣٦ .
 - (٦١) سورة البقرة آية ١٩٣ .
 - (٦٢) سورة الاعراف آية ٥٥ .
 - (٦٣) سورة الاعراف آية ٢٤ .
 - (٦٤) سورة الانفال آية ٥٨ .

فلا بد اذا من اعلان الهجوم حتى يكونوا والعديد على سواء فى الاستعداد ويتسامى الاسلام فى اخلاق الحرب فيطالب بتأمين من طلب الامان فيقول تعالى فى سورة التوبة « وان احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » (٦٥)

والاسلام دين سلام ، لم يحبذ القوة ، ولم يدع للحرب ، بل انه دعا للمسلم فيقول فى سورة الأنفال « وان جنحوا للمسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم » (٦٦) .

فالواضح اذن أن الاسلام يحذر من الحرب لغير هذه الأغراض التى ذكرتها فكل ما سوى هذه الأغراض الانسانية الاصلاحية الحققة من المقاصد المادية والشخصية او النفعية ، وان الاسلام لا يجيز الحرب من أجلها بحال من الأحوال وذلك واضح كل الوضوح فى اضافة الاسلام القتال أو الجهاد دائما الى سبيل الله ، فلا نجد واحدة من هاتين الكلمتين فى بحث من البحوث الاسلامية الا مقرونة بهذا السبيل ، على أن القرآن الكريم قد صرح بتحريم كل قتال بغير هذه الأغراض المشروعة ، وأكدت هذا التحريم احاديث النبى صلى الله عليه وسلم وسجل التاريخ ذلك لأصحابه الذين لم يريدوا بقتالهم شيئا أبدا الا وجه الله وتحقيق المقاصد المتقدمة كلها أو بعضها وفى ذلك قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم فى سبيل الله فتابينوا ، ولا تقولوا لمن اتى اليكم السلام لست بمؤمن تبتغون عرض الحياة الدنيا ، فعند الله مغائم كثيرة » (٦٧) .

هذه هى الأسباب التى دعت الى الحروب التى خاضتها الأمة الاسلامية ونشرت بها الدعوة الاسلامية الاصلاحية لصالح الانسانية مما أصابها من فساد وتدهور ، لذلك سأورد هنا بعض آراء لبعض المستشرقين المنصفين منهم المستشرق بودلى الذى يقول « كان القرشيون أنفسهم سببا من الأسباب التى دفعت محمدا الى الالتجاء للقوة ، اذ استمر عداا أبى جهل لمحمد فى درجة الغليان ، فقد كان يغير على جماعات المسلمين المتحركة

(٦٥) سورة التوبة آية ٦ .
(٦٦) سورة الأنفال آية ٦١ .
(٦٧) سورة النساء آية ٩٤ .

باستمرار ، ويقا تل أية جماعة بمنزلة يكمن لها ، وقد اغار على ضواحي المدينة : وأتلف الزرع والحدائق فأظهر لمحمد أن شعوره لم يتبدل ، وأن هدفه لا يزال قتله ، فلم يكن هناك الا حل واحد من وجهة نظر الجانبين وهو القتال « (٦٨) .

ويقول جيمس متشنر فى مقاله « اخترت الدفاع عن الاسلام » .

« لم يحدث فى التاريخ أن انتشر دين بهذه السرعة ، فعند وفاة محمد سنة ٦٣٢ م ، كان الاسلام يحتل جانبا كبيرا من شبه الجزيرة العربية ، ولم يلبث بعد ذلك أن ضم اليها سوريا وبلاد الفرس ومصر والتخوم الجنوبية لروسيا ، وامتد الى شمال افريقيا حتى بلغ مداخل اسبانيا . وفى الزمن الذى جاء بعد ذلك كان تقدم الاسلام باهرا ، واعتقد أن توسع الاسلام ما كان يمكن أن يتم لو لم يعتمد المسلمون الى السيف ولكن الباحثين لم يقبلوا هذا الراى . فالقرآن صريح فى تأييده لحرية العقيدة ، والدليل قوى على أن الاسلام رحب بشعوب مختلفة الأديان مادام التعاون مع أهل الكتاب أى اليهود والنصارى ، ولا شك أن حروبا قد نشبت بين المسلمين وغيرهم من النصارى واليهود وفى بعض الأحيان وكان سبب ذلك أن أهل هذه الديانات الأخرى أصروا على القتال . وفى القرآن آيات تصور العنف الذى استخدم فى هذه الحروب ، ولكن الرهبان قطعوا بأن أهل الكتاب كانوا يعاملون معاملة طيبة ، وكانوا أحرارا فى عباداتهم » (٦٩) .

ومما يؤكد صحة هذا القول أن الاسلام أمر بأن تكون الدعوة له بالسلم وليست بالحرب ، ولم يشرع الزام الناس بالاسلام بالقوة ، فمن تعاليمه الوارد فى القرآن الكريم « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » (٧٠) .

وقوله « من اهتدى قائما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فائما يضل عليها » (٧١) .

(٦٨) عبد الرزاق نوفل « الاسلام والعلم الحديث » ص ٢٨ .

(٦٩) عبد الرزاق نوفل — المرجع السابق ص ١٢٧ .

(٧٠) سورة البقرة آية ٢٥٦ .

(٧١) سورة النمل آية ٩٢ .

وقوله تعالى « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن » (٧٢)

ومما يشهد لحب الاسلام ونبيه في السلام أن امره اليومى الأول الذى أصدره عندما اضطر الى الحرب كان « لا تقتلوا امرأة ، ولا وليدا ، ولا شيخا ، ولا تقطعوا شجرة ، ولا تحرقوا نخلا ، ولا تمثلوا بأحد ، ولا تكونوا ناهبين واجتنبوا الوجوه لا تضربوها » (٧٣) .

ومما يؤكد أن الاسلام لم ينتشر مطلقا بالحرب ما ذكره الأستاذان ج . فاج ورولان اوليفر . « من أن الاسلام لم يتخذ طريقه وراء الصحراء بافريقية الا بعد انحلال دولته الكبرى في المغرب ، وكانت وسيلة الاسلام لهذه البقاع هي الثقافة والفكر والدعوة ، فانتشر الاسلام بين شعوب البربر وبين الزنوج وقامت خلف الصحراء دول اسلامية لعبت في التاريخ دورا كبيرا » (٧٤) .

وتقول الباحثة الألمانية أليس ليكننس اديستر « ان التخيير ببلاد الفرس والروم لم يكن بين الاسلام والسيف وانما بين الاسلام والجزية وهي الخطة التي استحدثت الثناء لاستنارتها حين اتبعت بعد ذلك في انجلترا ابان حكم الملكة اليصابات » (٧٥) .

ويذكر المؤلف جوستاف لوبون في كتابه « حضارة العرب » آراء كثيرة ومتعددة حول عملية انتشار الاسلام ، ويؤكد آراءه بآراء أخرى ليستشرقين غربيين يقول جوستاف لوبون « العبارات الاتية اقتطفها من كتب الكثيرين منهم تثبت ان راينا في هذه المسألة ليس خاصا بتنا قال روبرتسون في كتابه « تاريخ شارلمان » « ان المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الفكرة لدينهم وروح التسامح نحو اتباع الأديان الأخرى وانهم مع امتشاقهم الحسام نشرا لدينهم ، تركوا من لم يرغبوا فيه أحرارا في التمسك بتعاليمهم الدينية » (٧٦) .

(٧٢) سورة العنكبوت آية ٤٦ .

(٧٣) المقریزی « امتاع الأسماع » ج ١ ص ٥٣٦-٥٣٦ .

(٧٤) Roland oliver. « A short history of Africa. P. 77. »

(٧٥) Iles. Lictenst « Islam and the modern age » P. 57.

(٧٦) جوستاف لوبون « حضارة العرب » ١٢٨ .

وقال ميشو في كتابه « تاريخ الحروب الصليبية » « ان القرآن الذى امر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى ، وقد أعفى البطارقة والرهبان وخدمهم من الضرائب ، وحرم محمد قتل الرهبان لعكوفهم على العبادات ، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس ، فذبح الصليبيون المسلمين وحرقوا اليهود بلا رحمة ، وقتلوا دخلوها » .

ويؤكد جوستاف لوبون ان التاريخ أثبت ان الأديان لا تفرض بالقوة ، فلما قهر النصارى عرب الأندلس فزل هؤلاء القتل والطرده عن آخرهم على ترك الاسلام (٧٧) .

ويستطرد جوستاف لوبون قائلا « ساعد وضوح الاسلام البالغ وما امر به من العدل والاحسان كل المساعدة على انتشاره فى العالم ، ونفسر بهذه المزايا سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للاسلام كالمصريين الذين كانوا نصارى ايام حكم قياصرة القسطنطينية ، فأصبحوا مسلمين حين عرفوا اصول الاسلام ، كما نفسر السبب فى عدم تنصر أية أمة بعد ان رضيت بالاسلام ديناً ، سواء كانت هذه الأية غالبية أم مغلوبه » (٧٨) .

ومصادقا لكلامنا هذا حول عملية انتشار الاسلام ، وما حاول المستشرقون المفرضون أن يذيعوه بين الناس من أنه لم ينتشر الا بحد السيف مذكروه السير توماس ارنولد فى كتابه « الدعوة الى الاسلام » يقول « أما ولايات الدولة البيزنطية التى سرعان ما تولى عليها المسلمون ببسالتهم ، فقد وجدت أنها تنعم بحالة من التسامح لم تعرفها طوال قرون كثيرة بسبب ماشاع بينهم من الآراء اليعقوبية والنسطورية ، فقد سمح لهم أن يؤدوا شعائر دينهم دون أن يتعرض لهم أحد ، اللهم الا اذا استثنينا بعض القيود التى فرضت عليهم منعا لاثارة أى احتكاك بين أتباع الديانات المتنافسة ، او اثارة أى تعصب ينشأ عن اظهار الطقوس الدينية فى مظهر المفاخرة حتى لا يؤذى ذلك الشعور الاسلامى . ويمكن الحكم على مدى هذا التسامح الذى يلفت النظر فى تاريخ القرن السابع من هذه العهود

(٧٧) جوستاف لوبون « المرجع السابق » ص ١٢٨ .

(٧٨) المرجع السابق .

التي أعطاهم العرب لأهالي المدن التي استولوا عليها ، ونعهدوا لهم بحماية أرواحهم وممتلكاتهم وإطلاق الحرية الدينية لهم في مقابل الإذعان ودفع الجزية » (٧٩) .

ويقول توماس أرنولد في موضع آخر « وإذا نظرنا إلى التسامح الذي امتد على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي ظهر أن الفكرة التي تشاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق ، ومن ثم لم يكن بد من التماس بواعث أخرى غير ذلك الباعث الذي أوحى بالاضطهاد .

ونلمس مصداقاً لكلامنا هذا أن أهل الذمة عاشوا عيشة طيبة في ظل الحكم الإسلامي ونأهيك عن أخلاق الخليفة عمر بن الخطاب وموقفه منهم بعد سقوط بيت المقدس وهي المدينة التي يقدسها المسيحيون لما بها من آثار دينية وروحية عظيمة . فنجد أولاً أنه أعطاهم عهداً وأماناً به « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان . أماناً لأنفسهم وأهوالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وسائر ملتها ؛ أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم » (٨٠) .

وإذا أمعنا النظر في هذا النص لوجدنا أن الإسلام لم يجبر أحداً على الدخول فيه ، ولو كان بالسيف لفعلوا كما فعل المسيحيون الأوائل لأجبال الناس على الدخول في المسيحية .

والدليل على سماحة الإسلام بالنسبة لأهل البلاد المفتوحة وأنه لم يجبرهم على الدخول فيه بالسيف أن المسيحيين عاشوا في مجتمعهم آمنين على حياتهم ناعمين بمثل هذا التسامح الذي منحهم حرية التفكير الديني ، تمتعوا وخاصة في المدن بحالة من الرفاهية والرخاء في الأيام الأولى من الخلافة .

(٧٩) توماس أرنولد « الدعوة إلى الإسلام » ترجمة حسن إبراهيم حسن : ص ٧٤ .
(٨٠) المرجع السابق ص ٨٨ .

وقد توسع معاوية ٦٠/٤١ هـ فى الحاق المسيحيين بخدمته وحذا حذوه فى ذلك أفراد آخرون من البيت المالك ، وطالما شغل المسيحيون مناصب عالية فى بلاط الخليفة مثل الأخطل وهو عربى نصرانى كان شاعرا لبلاط ، ومثل أبى القديس يوحنا الدمشقى مستشار الخليفة عبد الملك ٨٦/٦٥ هـ .

وكان فى خدمة الخليفة المعتصم ٧٧/٢١٨ هـ أخوان مسيحيان بلغا منزلة سامية عند أمير المؤمنين أحدهما يدعى سلموبه ويظهر أنه كان يشغل منصبا قريب الشبه من منصب الوزير فى العصر الحديث ، وكانت الوثائق الملكية لا تتخذ صفة التنفيذ الا بعد توقيعه عليها ، على حين عهد الى أخيه ابراهيم بحفظ خاتم الخليفة كما عهد اليه بخزانة بيوت الأموال فى البلاد ، وكان المنتظر من طبيعة هذه الأموال وتصريفها ان يوكل أمر الإشراف عليها الى رجل من المسلمين . وقد بلغ من ميل الخليفة الشديد الى ابراهيم أنه عاده من مرضه الأخير وغمره الحزن حين وفاته ، وأنه أمر فى يوم تشييع جنازته باحضار جثمانه الى القصر حيث أقيمت له الطقوس المسيحية فى خشوع مهيب .

واختار عبد الملك عالما مسيحيا من مدينة الرها يدعى اثناسيوس ، وأدبا لأخيه عبد العزيز وقد رافق اثناسيوس هذا تلميذه الى مصر عندما عين واليا عليها ، وهناك جمع ثروة طائلة قيل أنه امتلك أربعة آلاف من العبيد ، كما ملك كثيرا من الدور والبساتين (٨١) .

وما ذلك الا دليل على أن المسلمين لم يكرهوا أحدا على الدخول فى دينهم وانما كانوا يسرون على قوله تعالى « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » (٨٢) .

والواقع أن التسامح الإسلامى هذا يخالف ما اتصف به المسيحيون الأوائل من عنف ووحشية ، فنرى المذابح العنيفة التى قلم بها أباطرة الرومان بدءا من الأمبراطور قسطنطين ليجبروا شعوبهم على الدخول فى المسيحية بعد أن قبلتها الدولة ديناً رسمياً لها . ولا أدل على ما فعله

(٨١) توماس أرنولد : المرجع السابق ص ٨١ .

(٨٢) سورة النحل آية ١٢٥ .

شارلمان مع المسكنون الوثنيين لجبرهم على الدحر في المسيحية من المذابح العظيمة التي قام بها ضدهم ، ولا ننسى عصر نقسديانوس الامبراطور البيزنطي الذي سمى عصره بعصر الشهداء وما قلم به الامبراطور جالينوس من اضطهاد وتعذيب .

اما اليهودية فتاريخها حافل بالمذابح والحروب العنيفة ، لا لتهود الناس بل لتجليهم عن اراضيهم وتستولى على ممتلكاتهم فهم يرون انفسهم شعب الله المختار « قالوا ليس علينا في الامين سبيل » وبهذا استباحوا دماء الشعوب الاخرى واعتبروهم اتباعا لهم ، اما الاسلام فهو دين اناس عامة ، والناس كلهم فيه سواء . وبهذا نجد ان الاسلام قد سلم من وصمة التعصب كما سلم من وصمة الاكراه .

وأول كتاب حديث قرأنا فيه تفسيرا « سلميا » لأخلاق المسلمين التي يستوحونها من دينهم هو هذا الكتاب وعنوانه « دولة الباكستان » مؤلفه البروفسور وشبروك وليامز صاحب الدراسات الواسعة في شؤون الشرق الأوسط وشئون الهند والباكستان ، فقد سبقه كثير من كتاب اللغات الأوربية الأخرى الى تحليل حركات المسلمين في الهند مع الدولة البريطانية ومع طوائف الوطنيين هناك من غير المسلمين فكانت خلاصة تعليقاتهم لتلك الحركات جميعا أنها وليدة التعصب الديني او وليدة الروح العدوانية التي انفردوا بها بين أبناء وطنهم ، ولكن مؤلف هذا الكتاب يعلل هذه الحركات للمرة الاولى بين أبناء لغته وعقيدته بأنها وليدة البحث : لا عن وطن يستطيع فيه المسلم أن ينطلق من قيود المستغلين فحسب بل هي وليدة السعى الى اقامة بلاد تسود فيها آداب الاسلام وتمنع فيها ظلم الأغنياء للفقراء ، ويتبع فيها الولاة وصايا العدل الاجتماعي التي يتعلمونها من سماحة الشريعة (٨٢) .

ويقول عن تقاليد الاسلام : « ان هذه التقاليد تشمل مبادئ المساواة

(٨٣) عباس العقاد « مايقال عن الاسلام » ص ١٣٧ .

بين العناصر الانسانية أمام الله وتقرر أوامر ارحوه العالمية بين جميع المؤمنين بغير نظر الى العنصر أو اللون ، كما تقرر فريضة الدفاع عن الضعيف وحمايته ممن يجورون عليه ، واغاثة المعوزين والمحرومين ، وبذل الحياة نفسها في سبيل الصراط المستقيم ، ومعاملتهم من ثم للبلاد الأخرى لا تجعلهم حريصين على القلو في اثبات وجودهم والتصلب في املاء تقاليدهم الحرفية أو الوقوف موقف الاحجام والاعتذار (٨٤) .

الإسلام والتجديد

يذكر المستشرق جولدزيهر « أن الإسلام يكره التجديد ، وكل بدعة في نظر الجماعة الإسلامية موضع للشك والشبهة ، وظهورها مدعاة للاسي إذ أنها تهدد وحدة الجماعة وتؤدي إلى انهيار الشريعة » (١) .

ولم يبين هذا المستشرق مكان البدعة والفقرة المستحدثة أهي في الدين أم في العلوم والأفكار .

أما في الدين وفي المعاملات المبنية على قواعد دينية فهذا أمر طبيعي لأن الإسلام لو اعتنق كل فكرة مستحدثة لا تقرها قواعده ، وأسيه مابقى منه شيء ولا كان ثمة اسلام .

كان الربا متفشيا في الجاهلية ، فحرمه الإسلام ، وفي العصور الحديثة نشط التعامل بالربا وقامت عليه بنوك ومؤسسات ، إذ أن هذا التعامل هو ما منعه الإسلام وقضى عليه . وشاع في الحضارة الأوروبية اتخاذ الخيليات ، وقل أن تجد فتاة لا رفيق لها أو فتى لا رفيقة له ، وقد جاء القرآن الكريم بقوله « فأنكحوهن بأذن أهلن ، وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات آخدان » (٢) .

فهل يبيع علماء المسلمين لشعوبهم عادة نهى عنها الإسلام ؟ انهم ان فعلوا ذلك خرجوا عن الإسلام ، وقل مثل هذا في ظاهرة التبرج والزينة والرقص ، واختلاط الرجال بالنساء في الشواطئ ، وما الى ذلك من العادات التي يحرمها الإسلام (٣) .

أما الابتكرات في المعارف ومستكشفات العلوم فهذه يشجعها

(١) جولدزيهر « العقيدة والشريعة » ص ٣ ص ٥ ع ٥ .

(٢) سورة النساء آية ٢٥ .

(٣) عبد الجليل شليبي « الإسلام والمستشرقون » ص ٤٦ — ٤٧ .

الإسلام ويدعو لها ، فالإسلام يدعو الى التفكير واعمال العقل ، فأولى آياته تدعو الى العلم « اقرا باسم ربك الذى خلق » (٤) وقوله تعالى « ن والقلم وما يسطرون » (٥) وقوله تعالى « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (٦) وقوله تعالى « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (٧) وقوله تعالى « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة ، فقد أوتى خيرا كثيرا » (٨) .

والأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تدعو الى طلب العلم منها . « طلب العلم فريضة على كل مسلم » (٩) . ومنها « اغد عالما أو متعلما أو مستمعا » (١٠) وقول الرسول الكريم « فضل العلم أحب الى من فضل العبادة » (١١) أى أنه فضل العلم على العبادة فيها منفعة خاصة أما العلم ففيه نفع للمجتمع ، بل انه عليه السلام فضل العلم على مازاد على فرض الصلاة ، فقال « لأن تغدئ تتعلم بابا من العلم خير لك من أن تصلى مائة ركعة » (١٢) .

وكذلك رغبة فى نشر العلم ومنع كتمانها ، قال الرسول « من سئل عن علم فكتمه ، ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة » (١٣) .

والدليل العملى على اهتمام الرسول بالعلم والبحث العلمى هو أنه جعل فداء الأسرى فى غزوة بدر تعليم عشرة من أبناء المسلمين ، وذلك يقضوا على الجهل حتى تصبح دولة الإسلام هى دولة العلماء .

والدين الإسلامى يحث دائما على التفكير والبحث ، واعمال العقل ، وليست مصادفة أن تتكرر فى القرآن الكريم آيات الدعوة الصريحة

-
- (٤) سورة العلق آية ١ .
 - (٥) سورة القلم آية ١ .
 - (٦) سورة المجادلة آية ١١ .
 - (٧) سورة الزمر آية ٩ .
 - (٨) سورة البقرة آية ٢٦٩ .
 - (٩) رواه بن ماجه ، وابن عبد البر .
 - (١٠) رواه البيهقى .
 - (١١) رواه الطبرانى فى الأوسط .
 - (١٢) رواه بن ماجه والطبرانى بسند صحيح .
 - (١٣) رواه بن ماجه .

الى النظر فى خلق السموات والأرض وما فيها قال تعالى « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما ننهن الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » (١٤) وقوله تعالى « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شئ » (١٥) وقوله تعالى « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » (١٦) .

وتتعدد الآيات التى تدعوا الى النظر والعلم والتدقيق ، وسأترك لذلك شرحا وافيا مفصلا فى كلامى عن الاسلام والحضارة العلمية .

وبالنسبة للتجديد الذى يقصده المستشرق غنجد ان المجتمع الاسلامى بطرا عليه تعديل من حين الى حين . وتحدث له مشكلات جديدة ما عرفها السلف فلا بد ان يجد لها المجتمع ، على ضوء مبادئ الاسلام ، حولا ليبقى المجتمع الاسلامى هائثا ، ولا يجد المؤمنون عسرا ، ولا مشقة ولا حرجا فيما استحدثت فى مجتمعهم من تطور حضارى ومادى ، لذلك جاء فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة دينها » (١٧) أى يدلها على احكام ما استحدثت فى المجتمع ويصلح ما أهمل من الدين ، وربما أضيف عليه مما هو ليس منه .

وهذا التجديد ضرورى لحياة المجتمع وضرورى لحماية الدين نفسه لأن التجديد سنة الحياة ، وكان المجتهدون موجودين فى كل عصر من العصور السابقة ليواجهوا الأمور الاضطرابية (١٨) ، قال تعالى « وقد فصل لكم ما حرم عليكم الا ما اضطررتم اليه » (١٩) ، سأل رسول الله

(١٤) سورة يونس آية ١٠١ .

(١٥) سورة الأعراف آية ١٨٥ .

(١٦) سورة ق آية ٦ .

(١٧) رواه أبو داود عن أبى هريرة .

(١٨) صلاح الدين المنجد « المجتمع الاسلامى » ص ٦٤ .

(١٩) سورة الأنعام آية ١١٩ .

صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل حين ولاه على اليمن : بم تقضى ؟ قال : بكتاب الله . قال : فان لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله . قال : فان لم تجد . قال : اجتهد رأيي ، فأقره الرسول على ذلك ، وكتب عمر بن الخطاب الى ابي موسى الاشعري في هذا الشأن « الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك ، مما ليس في كتاب الله ولا سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم اعرف الاشباه والأمثال ، فقس الأمور عند ذلك بنظائرها ، واعمد الى اقربها الى الله واشبهها بالحق » (٢٠) .

وهذا الاجتهاد للتجديد واجب لأن الدين جاء لرعاية مصالح الناس وتوجيههم وتحسين احوال معاشهم ، والأمور المستحدثة دائما ، فلا بد من الاجتهاد على أن يراعى فيه العدل والمصلحة .

وهذا الأمر هو الذي دفع ابن قيم الجوزية الى القول « يجب ان تنتهي من قول العلماء الذين يقولون ، هذا لا يوافق الشرع ، وهذا لم يقل به الرسول وان نتبع سياسة المصلحة أي ما يوافق الناس ويكون فيه صلاحهم » (٢١) ولا بد ان نشير في هذا المجال الى أن التاريخ الاسلامي منذ نشأته الى يومنا هذا يؤكد على الاهتمام بالتجديد والابتكار والبحث العلمي ، وهل ورث التاريخ في غير الأمة الاسلامية هذا العدد من الكتب التي كتبها المسلمون على اختلاف الأقطار والعصور ، وهل يعرف التاريخ لغير المسلمين هذا القدر من العلماء الذين سجلت سيرهم في كتب الطبقات ، وتاريخ البلاد والتراجم العامة ، ثم هل عهد التاريخ من قبل المسلمين أمة حصلت ونفذت وحقت ، ودققت كما فعل المسلمون في الأحاديث ورواتها ثم في علوم اللغة ، وعلوم الشريعة ، وعلوم الطبيعة وغيرها وأخرجت من حفظة القرآن وأئمة الشريعة حكماء ورياضيين وفلكيين وأطباء .

(٢٠) ابن حزم « جمهرة أنساب العرب » ج ١ ص ٢٥٥ .

(٢١) ابن القيم الجوزية « الطرق الحكيمة » ص ١٤ .

ومما تميز به المسلمون فى طلب العلم وتلقى الاخبار التحرى والتثبت ،
وبذل الجهد فى النقد ، وتمييز الزائف من الصحيح والحق من الباطل .

وكان خلفاء المسلمون وأمرأؤهم وكبرأؤهم يتنافسون فى دعوة العلماء
والأدباء اليهم ، ويتفاخرون بمن تضم مجالسهم من كبار العلماء ونابهى
الأدباء وقد جعل الاسلام الأرض كلها للمسلم مسجدا وطهورا ، جعل
الأرض كلها دار تعلم وتعليم ، فالمسلم مأمور أن ينظر فى السموات والأرض
وآثار الأمم وسيرها ، وأن يطلب العلم حيث كان ويتلفظ الحكمة انى
وجدها فهو يتعلم فى الحضر والسفر ، وفى المسجد والدار .

وكانت مساجد المسلمين منذ انشئت دار تعليم منذ جلس المعلم الأعظم
محمد صلى الله عليه وسلم ، يعلم أصحابه فى مسجد المدينة الى
يومنا هذا (٢٢) .

ودور العلماء كذلك كانت مقصد طلاب العلم يتلقونه عن نبيغ منه
وعرف به ويقطعون اليه الفياضى والتفارى . ولما بنى المسلمون دورا للعلم
خاصة لم تختلف هذه الدور عن المساجد الا بمساكن المعلمين والطلبة فيها ،
ولم يبعد التعليم عن المساجد بعد بنائها ، فالمدرسة مسجد
والمسجد مدرسة .

وكثير من مساجد المسلمين التى نراها اليوم سميت فى التاريخ
مدرسة ، اذ لم يفرق المسلمون بين العبادة بالصلاة والعبادة بالتعليم
والتعلم ، فكانوا يبنون الابنية فهى مساجد للصلاة ، وهى مدارس
للعلم (٢٣) .

(٢٢) عبد الوهاب عزام « الاسلام والعلم » ص ١٤٣ .

(٢٣) المرجع السابق ص ١٤٤ .

أثر حق العلم فى البيئـة الاسلاميـة :

وقد كان لتقرير الاسلام فى هذا الحق الثابت لجميع الناس آثار بعيدة فى المجتمع الاسلامى نذكر منها :

١ — ان العلم كان يشمل جميع الفئات ، حيث كان يبدأ من الفرد ثم يعم الأسرة ، فقد جاء فى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » (٢٤) .

ومسئولية الرجل فى اهله تشمل تأديب اولاده ، وتعليم زوجته وهدايتهم الى سبل الخير والفلاح ، قال على رضى الله عنه فى تفسير قوله تعالى « قوا انفسكم واهليكم نارا » علموا اهليكم الخير (٢٥) .

٢ — ان العلم كان مشاعا فى المجتمع ميسرا لكل انسان ، فى المسجد وفى المدرسة وفى الحلقات العلمية ، وفى المكتبات العامة ، فلم يعرف المجتمع الاسلامى ارسقراطية العلم او انحصاره فى فئة معينة ، كما كان محصورا فى رجال الدين عند أكثر الأمم القديمة وخاصة عند الغربيين حتى عصر النهضة .

٣ — سارت الحضارة والعلم مع الدين جنبا الى جنب فى تاريخ الحضارة الاسلامية ، حتى اعترف بعض مؤرخى الغرب بأن حينة قرطبة فى ابان ازدهارها ، كانت تحتوى على مليونى نسمة ليس فيهم اى واحد (٢٦) .

٤ — بعد افول شمس الحضارة الاسلامية ، لم تقف حركة العلم ، بل استمرت ولو فى نطاق ضيق — حتى عصر نهضتنا الحاضرة ، ونعنى بذلك استمرار اقبسال الناس على العلوم الشرعية خاصة من تفسير وحديث وفقه وأصول وعقيدة وغيرها . وعلى العلوم الأدبية كاللغة

(٢٤) رواه البخارى ومسلم .

(٢٥) رواه الحاكم .

(٢٦) مصطفى السباعى « من روائع جـسارتنا » ص ٩٨ .

والادب والتاريخ وسواها ، وبعض العلوم الرياضية كالحساب
والفلك والهندسة (٢٧) .

لقد استمرت المساجد والمدارس والمكتبات تؤدي رسالتها في نشر
هذه العلوم ، ونشير هنا بصورة خاصة الى علم الفقه . فاعتقل
الاسلامى رغم ركوده بعد عصور الحضارة الاسلامية الزاهرة لم
ينقطع عن التفكير في التشريع في اية بيئة اسلامية كانت سواء في
العواصم أو القرى وسواء في مراكز الحضارة أو الأماكن النائية ،
كاليمن أو نجد أو حضرموت أو أواسط افريقيا لم تنقطع ابدا حركة التأليف
في الفقه على مختلف المذاهب ، وبذلك أصبح الفقه الاسلامى ، ثروة نامية
لا مثيل لها في أمة من أمة العالم .

(٢٧) مصطفى السباعى « اشتراكية الاسلام » ص ٧٠ .

الفصل الرابع

المستشرقون والنظم الإسلامية

المستشرقون ونظم الحكم فى الاسلام

لم يسلم نظام الحكم فى الاسلام من اقلام المستشرقين المغالين الذين حاولوا ان يشككوا المسلمين فى عدل النظم السياسيه التى جاء بها الاسلام ، بل وارادوا ان يجردوا الشريعة الاسلامية من الصفة الكبرى التى اتصفت بها وهى انها دين ودولة . فهذا كتاب صدر سنة ١٩٦٢ م الفه ه/ب شرابى وهو استاذ مساعد بجامعة جورج تاون وعنوانه « الحكومات والسياسة بالشرق الأوسط فى القرن العشرين » .

يقول المؤلف عن موقف الشريعة من نظم الحكم « اذا دققنا فى القول لم نجد فى الاسلام نظرية مستقلة للحكومة ، اذ كل ما يرتبط بالحكومة والدولة يدخل فى نطاق الديانة ، فلا فاصل بين الدينيات والمدنيويات ، والمسلم الذى يدين بالله وبرسالة نبيه محمد عضو من أعضاء الجماعة الإسلامية بحق الانتماء الى الديانة فقط ، لا بحق القرابة أو اللغة أو العنصر ، ومن الوجهة السياسية تتسم الجماعة الإسلامية ، أو الدولة الإسلامية بسمات أربع وهى :

١ - ان الله رأسها والقرآن كما تنزل على النبی دستورها الوحيد .
٢ - ان كلمات الله هى الشرع الوحيد وليس للجماعة أن تجرى لها شراً غيره .

٣ - ان وظيفة دستور الحكومة وشكلها واحكامها ابدية ، ولا يمكن تغييرها كيفما اختلف الزمان والمكان .

٤ - ان الغاية من الحكومة هى اقامة الدين وتنفيذ كلمات الله قال : ويتضح من هذا ان الشريعة - وهى جملة الأوامر الالهية - ليست لنا بالمعنى المفهوم من القانون فى العصر الحديث ، ولسكنها قضايا

معصومة ترسم للمسلم أحكام سلوكه فى حياته كلها دينيا وسياسيا واجتماعيا وفى الأسرة والبيت « (١) .

معنى ذلك ان هذا المستشرق يحاول أن يشوه حقيقة الشرع الاسلامى بالنسبة للحكومة الاسلامية ، بل وينفى عنه انه جاء بشىء لتنظيم الحياة الانسانية ، بل وجعل الحكومة حكومة ثيوقراطية بمعنى الكلمة ، اى انها لا تهتم النواحي الدنيوية ، ولا يستطيع المسلم أو يضيف الى هذه الشريعة شيئا يتلاءم مع تطورات العصر اى انها شريعة دينية جامدة .

ولكننا لابد أن نوضح لهذه الفئة من المستشرقين حقيقة الحكومة الاسلامية ، وطبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم فيها .

فلاسلام دين ودولة ، لانه نظم شئون الدين والدنيا معا ، فكلما تكلم عن الملائكة والانبياء والجنة والنار والعبادات وغيرها من شئون الدين ، تكلم كذلك عن البيع والشراء والزواج والطلاق والميراث وغيرها من شئون الدنيا ، ووضع الاسلام لهذه وتلك القوانين والنظم ، والزم المسلمين باتباعها ، وحدد عقوبة المخالفين .

يذكر جولدزيهر . مة أخرى وهى « أن سلطة الخليفة كانت مطلقة فى كل مكان ، ولم يكن هناك نظام يتدخل بين الحاكم ورعاياه لتقييد سلطته » (٢) .

اذا أردنا أن نفند هذا الاتهام ، فعلى أن ننظر الى الدولة الاسلامية عامة ، والى اول خلفائها أبى بكر الصديق الذى يعتبر مثالا يحتذى فى الحكومة الاسلامية المثلى فقد طبق ما جاء به الشرع فى شئون الناس الدينية والدنيوية .

كان هذا الخليفة الحاكم رأس الدولة ، اختير من بين صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، واشترطت اختياره أمور شرعية كثيرة ، منها العلم ، والعدل ، والكفاية وسلامة الخواص ، والنسب القرشى .

(١) عباس العقاد « مايقال عن الاسلام » ص ١٣١ .

(٢) جولدزيهر « العقيدة والشريعة » ج ٣ ص ٥٤٥ .

. وإذا استعرضنا مجموع خلفاء الاسلام — حسب الراشدين — نجد انهم نماذج مشرفة لتطبيق سياسة الدين والدنيا ، وحسبنا في ذلك عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان وعلى بن ابي طالب ، وعمر بن عبد العزيز وغيرهم من الخلفاء .

فهؤلاء الخلفاء اذن ليسوا خلفاء دينيين فقط ، وانما هم خلفاء دين ودنيا ، فليست النظم الاسلامية مثل النظم الغربية نتجبل بين السلطتين ، فلا يعرف الاسلام سلطة الكهنوت ، ولا يعرف العصمة لاحد الا المرسلين (٢) .

والحاكم والخليفة ليس معصوما من الخطأ في تصرفاته ، وليس له قداسة مترفعة عن مستوى الناس ، كيف وهو فرد من الامة جاء عن طريق الاختيار والبيعة وعليه ان يستشيرها ، ويأخذ رأي اهل الحل والعقد فيها .

معنى ذلك ان الحكم في الاسلام قام على اساس الشورى ، وماهى الا المسمى الحديث « الديمقراطية » قال تعالى « وأمرهم شورى بينهم » (٤) وقوله تعالى « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم ونساورهم في الأمر » (٥) .

وهاتان الآيتان تبينان ان اختيار الحكومة ليس معناه تسليم كل الامور اليها ، وانقطاع رأي الناس ، بل توضيح ان واجب الحاكم ان يستشير ليس فقط ، اهل الحل والعقد ، بل جماعات اوسع من المسلمين ، بل المسلمين جميعا في مهام الامور اذا امكن ذلك بطريق الاستفتاء العام او اى طريق آخر ، والآية الاولى تصوغ هذه الفكرة صياغة رائعة فهى لاتتجه الى أسلوب الامر بالمشاورة ، وانما توضح ان المشكلات انما هى مشكلات الامة ، وان الامور امورها فطرح هذه المشكلات للامة للتشاور

(٣) القرضاوى والعسال « الاسلام بين شبهات الضالين » ص ٢٩

(٤) سورة الشورى آية ٣٨ .

(٥) سورة آل عمران آية ١٥٩ .

ولرغبة الوصول الى حل سليم أمر عادى ، هو فى الحقيقة وضع الأمور فى نصابها واعطاء الحق لصاحبه .

أما الآية الثانية ، فلم تكتف بالأمر بالمشاورة ، وإنما رسمت أخلاق الاسلام وروحه التى يجب ان يتحلى بها الحاكم ، فأوصفته بالرحمة ولين الجانب والعفو والتسامح والدعاء للمسلمين بالمغفرة ، وكل هذه المظاهر تمهد للمشاورة (٦) .

معنى ذلك ان الحكومة فى الاسلام تتميز بصفتين :

١ - الحرية السياسية ، وهذه تتجلى كما ذكرنا فى مبدأ الشورى ، فلا استبداد فى الراى من قبل الحاكم ولا قلة تتحكم فى السكثرة .

٢ - هناك حرية فى التفكير والنصح والنقد وإبداء الراى فالحرية مصانة ، وكل مسلم له الحق فى ان يبدي رايه فى أعمال الحاكم وأعمال أخوانه اذا كان فيها ضرر على المجتمع الاسلامى ، وله أن ينبه على الخطأ ويدل على الطريق الحسن ، وهذا هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يفعل ذلك دون ان يخاف ظلماً أو تصديداً أو سجعاً (٧) .

وكذلك فان له أن يقترح على الحاكم ما فيه الخير للمجتمع .
خطب عمر بن الخطاب فى الناس عندما أراد القول من طاعون عمواس فقال : « من علم شيئاً ينبغى العمل به فليعلمنا نعمل به ان شاء الله (٨) » .

٣ - هناك حرية التملك فأنت تستطيع أن تملك ما تشاء بالحق أى بسعيك ومالك ، ليس بالسرقة أو الرشوة أو الاغتصاب ولا يحق لأحد من الناس ولا للحاكم أن ينزع حق التملك منك ، ولا أن يأخذ من مالك الا برضاك ليس غصباً ولا سرقة ، ولا تأميراً قال رسول الله صلى عليه

(٦) أحمد شلبى « مقارنة الأيمان » ص ٢٥٤ ح ٣ .

(٧) صلاح الدين المنجد « المجتمع الاسلامى » ص ٣٢ .

(٨) ابن كثير « البداية والنهاية » ج ٧ ص ٧٩ .

وسلم « كل المسلم على المسلم حرام - دمه وماله وعرضه » (٩) ولا تقيد الملكية الا اذا ادى استعمالها الى الاضرار بالغير .

واذا تركنا ذلك ونظرنا الى العلاقة بين الحاكم والمحكوم في الاسلام نجدها في قوله تعالى « اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم » (١٠) فالحاكم الذي يبايعه المسلمون لضمان حقوقهم ومراجعتهم في واجباتهم له عليهم حق السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وهذا يعنى مؤازرة الحاكم في كل شئ مادام يتقيد بالشرع او مادام متصفا بشروط الامامة فاذا خرج عن الشرع او فقد شروط الامامة فلا طاعة له (١١) .

وهناك نماذج مشرفة في الاسلام لهذه العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، ولا يفوتنا أننا نتوه هنا بعهد الخليفة العظيم عمر بن الخطاب الذى ضرب أروع مثل في هذه العلاقة الحرة الديمقراطية ، حتى لنراه يوما يصعد المنبر خطيبا فيقول على حسب رواية بن الجوزي « لا تزيدوا في مهور النساء على أربعمئة درهم من زاد القيت الزيادة في بيت المال » ثم غادر المنبر فلتبرت اليه امرأة من صف النساء تقول « ما ذلك لك » فسألها ولم ؟ فأجابت لأن الله تعالى قال « وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا تأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً » فقال عمر : أصابت امرأة وأخطأ عمر ، ثم رجع الى المنبر فقال : أيها الناس كنت نهيتكم أن لاتزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمئة درهم فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب وطابت به نفسه فليفعل (١٢) .

هذا دليل بسيط على ديمقراطية الاسلام ، وكيف كانت العلاقة بين

(٩) خطبة حجة الوداع . انظر بن هشام « السيرة النبوية » ج ٤

ص ١٩٢ - ١٩٣ .

(١٠) سورة النساء آية ٥٩ .

(١١) محمد الدنى « المجتمع الاسلامى كما تنظمه سورة النساء »

ص ١١٥ .

(١٢) عائشة عبدالرحمن « المرأة المسلمة بين الامس واليوم » ص ٨٦

الحاكم والمحكوم ليس هناك حجابا يحجب بينهم ، ولا مانع يمنع احدا من مجادلة الخليفة بما يراه فى مصلحة الاسلام ، وليس هناك ما يمنع انسانا من ان يأخذ حقه من الخليفة سواء اكان هذا الحق حقا ماديا أم معنويا ، فالاسلام هو دين الديمقراطية الحققة .

وقد افرد بن عبيد ربه فى كتابه « العقد الفريد » كتابا للمواعظ والزهد وهو ملء بما وعظ به العباد رجال الحكم من الخلفاء .

ويكفى ان نثبت صلاحية الحكم فى الاسلام بما يثبت من تقدم الشعب ورفاهيته فى عهد الخلفاء الراشدين فالفساد الذى طرأ فى عهد متأخر لا يرجع الى قانون الاسلام ، وانما الى التخلّى عنه .

ويكفى ان نؤيد رايضا هذا برأى فيليب حتى المستشرق المعسدى للاسلام ، والذى عاب من قبل شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنه انصف الحكومة الاسلامية فى قوله : « لم تكد تمر مائة عام على وفاة مؤسس الاسلام ، حتى صار اتباعه سادة امبراطورية اعظم من امبراطورية روما ابان مجدها ، امبراطورية امتدت من خليج بسكاي الى نهر السند ، ومن تخوم الصين وبحر آرال الى الهند انعليا من النيل » وكان اسم النبى العربى مقترنا بلفظ الجلالة ، تردده الالفنة خمس مرات فى اليوم من آلاف المآذن المتناثرة فوق جنوب اوربا وشمال افريقيا ، وغرب آسيا ووسطها (١٢) .

حقيقة ان الدين الاسلامى لم يهمل النظم السياسية التى سيساس بها العالم ، فقد قرر هذا الدين فى محكم آياته مبدأ المساواة بين الناس

(١٢) فيليب حتى « تاريخ العرب » ص ١١٢ .

عامة ، والمرأة والرجل والصفير والكبير ، والغنى والفقر والوالى
والعامل كلهم متساوون مساواة تامة ، والله سبحانه وتعالى هو الذى
جعل الناس شعوبا وقبائل مختلفة متعددة ، والجميع متساوون أمام الله
واكرمهم عند الله اتقاهم (١٤) .

قال تعالى : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم
شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم » (١٥) وقوله
تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلق من نفس واحدة وخلق
منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » (١٦) .

وبهذا اقر الاسلام بأن الخلق ابنساء اب واحد وام واحدة فى أصلهم
فمهما كان موطن مولدهم ، ومهما كان وضع طبقتهم فهم متساوون ، فلا
تفاخر بالانساب ولا تباهى باللقاب ، يقول تعالى : « يا أيها الذين
آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء
عسى ان يكن خيرا منهن ، ولا تلمزوا انفسكم ولا تنابزوا باللقاب » (١٧) .

ولم تكن المساواة معروفة قبل الاسلام . بل كان يسود المجتمعات
البشرية نظام الطبقات ، والتفرقة الكبيرة بين الطبقة والأخرى بل بين
أفراد الطبقة الواحدة ، فكان اذا قتل لقبيلة عبد اجتمع أفرادها ليقرروا
ما يساوى عبيدهم من أفراد القبيلة . وقد جزم القرآن الكريم بالقصاص
فى سورة البقرة « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى
الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى » (١٨) .

(١٤) عبد الرزاق نوفل « الاسلام والعلم الحديث » ص ١١٣ .

(١٥) سورة الحجرات آية ١٣ .

(١٦) سورة النساء آية ١ .

(١٧) سورة الحجرات آية ٤٩ .

(١٨) سورة البقرة آية ١٧٨ .

وبهذه المساواة التامة بين أفراد الجنس البشرى حصن المسلمون
ضد الانتقامات التى نشاهدها فى معظم بلاد العالم ، ولعل ما يعترى
العالم على فترات الزمن من جور الأمم بعضها على بعض ، وبغى
الأفراد بعضهم على بعض يرجع كله الى عدم المساواة ، فما زالت بعض
الأمم تعتبر أفرادها من جنس وفضل على جنس أفراد غيرها ، وما زالت
التفرقة العنصرية واختلاف الأصل بين الدول الكبرى سببا فى اندلاع
الثورات وعدم الاستقرار .

المستشرقون والنظم الاقتصادية في الاسلام

لاقت النظم المالية في الاسلام من زكاة وصدقة ونىء وغنم وجزية وخراج وضرائب متنوعة وجهات نظر ، وآراء هدامه من قبل المستشرقين ، فمنهم من بين قيمة هذه النظم ، وانها نظم عادلة لم تجاف الحق ، ولم تظلم احدا ، ومنهم من تجنى عليها ورماسا بالقصور والظلم ، وذكر « ان الاسلام ليس الا دين تشريع ومعاملات ، ولم يأت للناس بنظام منفصل للشئون الاقتصادية والحياة السياسية » (١) .

وهناك ماكتبه ماكس بريشم العالم السويسرى فى حديث مجحف يجافى الحقائق التاريخية ، فقد انتهى فيه الى ان نظام الجزية فى الاسلام اضطر الكثير الى الدخول فى الاسلام تخلصا من الضرائب الثقيلة التى فرضت عليهم ، واعفى منها المسلمون ، وايضا لتكون لهم المسكنة الاجتماعية التى يتمتع بها المسلمون دونهم « ولم يخل كلامه من تضارب واضطراب (٢) » .

وهناك رأى لآخذ المنتشرقين يدعى فيليب فونداس خاص بالزكاة فى الاسلام ، يقول « ان الاموال المادية فى نظر الاسلام هى من اصل نجس شيطانى ، ويحل للمسلم ان يتمتع بهذه الاموال شريطة ان يطهرها ، وذلك بارجاع هذه الاموال الى الله » . ويظهر ان الشارح آخذ من قوله تعالى : « خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » (٣) . آى — على

(١) محمد غلاب « نظرات استشرائية » ص ٥٨ .
(٢) عبد الجليل شلمبى « الاسلام والمستشرقون » ص ٩٧ .
(٣) سورة التوبة آية ٣٠ .

اعتقادهم - ان الاموال نجسة في اصلها، واذن فالزكاة وسيلة لتطهيرها، وبذلك فهم التطهير فهما حرفيا او حسيا (٤) .

ورأيت قبل ان افند افتراءات المستشرقين ، وارد شبهاتهم ان اذكر بعضا من آراء المتصنفين منهم ، فالسير توماس ارنولد يقول في موضوع الجزية « لم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المسيحيين ، كما يريد بعض الباحثين على الظن - لونا من الوان العقاب لامتناعهم عن قبول الاسلام وانما كانوا يؤدونها مع سائر اهل الذمة ، وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سسيوف المسلمين ، ولما قدم اهل الحيرة المال المتفق عليه ذكروا صراحة انهم انما دفعوا هذه الجزية على شريطة ان يمنعونا واميرهم البغي من المسلمين وغيرهم ، وكذلك حدث ان سجل خالد في المعاهدة التي ابرمها مع بعض اهالي المدن المجاورة للحيرة قوله « فان منعناكم فلنا الجزية والا فلا » .

ويمكن الحكم على مدى اعتراف المسلمين الصريح بهذا الشرط من تلك الحادثة التي وقعت في حكم الخليفة عمر ، لما حشد الامم، راطور هرقل جيشا ضخما لصد قوات المسلمين المحتلة ، كان لزاما على المسلمين نتيجة لما حدث ان يركزوا كل نشاطهم في المعركة التي احدثت بهم ، فلما علم بذلك ابو عبيدة قائد العرب كتب الى عمال المدن المفتوحة في الشام يأمرهم بأن يردوا عليهم ما جبي من الجزية من هذه المدن وكتب الى الناس يقول « انما رددنا عليكم اموالكم لانه بلغنا ما جمع لنا من الجموع ، وانكم قد اشترطتم علينا ان نمنعكم ، وانا لانقدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ما اخذنا منكم ، ونحن لكم على الشرط ، وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم » وبذلك وردت مبالغ طائلة من مال الدولة ، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين ، وقالوا : ردكم الله علينا

(٤) محمد البهي « الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار » ص ٥٢ نقلا عن فيليب فونداس « دراسة عن الاسلام في افريقيا السوداء »

ونصركم عليهم . « أى الروم » فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا ، واخذوا كل شيء بقى لنا ، ويستطرد توماس ارنولد قائلا : ان الجزية فرضت على القادريين من الذكور مقابل الخدمة العسكرية التى كانوا يطالبون بأدائها لو كانوا مسلمين (٥) .

والى جانب رأى توماس ارنولد نضيف ما ذكره المؤرخ فيليب حتى فى هذا الصدد — على الرغم من عدائه للاسلام — « كان اهل الذمة يتمتعون فى نظير دفع الجزية والخراج بحظ كبير من التسامح الدينى ، وكانوا يخضعون حتى فى الأمور المدنية والقانونية جميعا الى رؤسائهم الرئيسيين » (٦) .

والمعروف ان الجزية وجبت على اهل الذمة ، كما وجبت الزكاة على المسلمين ، حتى يتكافأ الفريقان ، وهما رعية لدولة واحدة فى المسئولية ، كما تكافأ فى التمتع بالحقوق وتساويا فى الانتفاع بالمرافق العامة للدولة ، فليست الجزية دينا على الذمى يستوفى منه بالوسائل التى تستوفى بها الديون ، فمن وجبت عليه الجزية ومات او اسلم قبل دفعها لم تؤخذ من تركته ، ولم يطالب بها ورثته (٧) .

وانما تجب الجزية على الرجال الأحرار العقلاء الأصحاء الثاقبين على الدفع ، ولا تؤخذ جزية من مسكين يتصدق عليه ، ولا من لا قدرة له على العمل ، ولا من الأعمى ، او المقعد او المجنون وغيرهم من ذوى البعاهات ولا من أحد من المترهبين فى الأديرة وأهل الصوامع الا ان كان غنيا .

ويلاحظ أن الشرع لم يفرض الجزية الا على الأشخاص الذين يجب

(٥) توماس ارنولد « الدعوة الى الاسلام » ص ٧٩ .

(٦) فيليب حتى « تاريخ العرب » ص ٢٣٣ .

(٧) ابو يوسف « كتاب الخراج » ص ١٣٢ .

عليهم الجهاد لـ وكانوا مسلمين ، وانه اعفى منها الاشخاص الذين يعفيهم من القتال .

وفى ذلك يقول الماوردى « واسمها مشتق من الجزاء ، فيجب على اولى الامر ان يضعوا الجزية على رقاب من دخل الذمة من اهل الكتاب ليقرؤا » يستقروا « بها دار الاسلام ويلتزم لها ببذلها بحقين ، احدهما الكف عنهم ، والثانى الحماية لهم ، ليكونوا بالكف آمنين وبالحماية محروسين » (٨) .

اما مقدار الجزية فقد قسمها ابو حنيفة ثلاثة اقسام :

١ - اغنياء يؤخذ منهم ثمانية وأربعون درهما .

٢ - ومتوسطون يؤخذ منهم اربعة وعشرون درهما .

٣ - وفقراء يكسبون ويؤخذ منهم اثنا عشر درهما .

واما جباية الجزية فقد اوصى صاحب الشرع وقادة الاسلام بالرفق والانصاف فى جبايتها من اهل الكتاب وصيانة ارواحهم واموالهم من عبث الجباه والولاه ، وتقضى القاعدة الفقهية او دستور الاسلام فيما يتعلق بطريقة اخذ الجزية من دائميها بأن « لا يضرب احد من اهل الذمة فى استيلائهم الجزية » أى لحملهم على ادائها ، ولا يقاوموا فى الشمس ولا غيرها ، ولا يجعل عليهم فى ابدانهم شئ من المسكاره ، ولكن برفق يحبسون حتى يؤدوا ما عليهم » (٩) .

ويمتقراء هذه النظم تجسد أنها نظماً عادلة راعت حالة الشعب الاقتصادية ، ولو قارنا ذلك بأحوال هذه البلاد فى العهدين الرومانى والبيزنطى ، فقد كانت هناك نظم جائرة ، فقد كان الروم يجبون منها

(٨) الماوردى « الأحكام السلطانية » ص ١٦٣ .

(٩) ابو يوسف « كتاب الخراج » ص ١٣٣ .

عشرين ألف ألف دينار ، وان الفراعنة كانوا يجبون تسعين ألف ألف .

اما عن الخراج ، فقد وضع انه ضريبة على الأرض التي يفتحها المسلمون فتصبح فيئاً لهم ، والواقع ان المسلمين بدأوا أولاً بالسلام وبعرض الاسلام على اهل البلاد المفتوحة ، فاذا لم يجيبوا الى الاسلام فالحرب بينهم ، وبذلك تصبح أراضيهم من جملة الفئ ، وقد ذكر ابو يوسف في كتاب الخراج ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب الى سعد بن ابي وقاص حين افتتح العراق « أما بعد فقد بلغنى كتابك تذكر فيه ان الناس سألوك ان تقسم فيهم مغنمهم ، وما أفاء الله عليهم ، فاذا اتاك كتابى هذا ، فانظر ما اجلب الناس عليك به الى العسكر من كراع ومال فأقسمه بين من حضر من المسلمين واترك الأرضين والأنهار لعمالها ليكون ذلك فى اعطيات المسلمين ، فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء ، وقد كنت امرتك ان تدعو من لقيت الى الاسلام قبل القتال ، فمن اجاب الى ذلك قبل القتال فهو رجل من المسلمين له مالهم وعليه ما عليهم ، وله سهم فى الاسلام ، ومن اجاب بعد القتال وبعد الهزيمة فهو رجل من المسلمين ، وما له لاهل الاسلام لانهم قد احرزوه قبل اسلامهم فهذا امرى وعهدى اليك » (١٠) .

من هذا النص يتضح لنا مدى سماحة الاسلام ، وكيف ان المسلمين كانوا يراعون اهل الذمة ، وكيف ان الذمى اذا دخل فى الاسلام اخذ نفس حقوق المسلمين لم ينقص منه شيء ، وان هناك اراضى تترك لأصحابها يدفعون عنها الخراج الذى قرره عمر بن الخطاب بعد ان استشار جماعة من المسلمين ، وجميعهم كانوا يرغبون فى ان تؤخذ هذه الاراضى من اصحابها ، وتصبح ملكاً لهم ، ولكنه قال : « رأيت ان احبس الأرضين بملوجها واضع عليهم فيها الخراج وفى رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئاً للمسلمين المقاتلة والذرية لى يأتى بعدهم » .

(١٠) ابو يوسف « كتاب الخراج » ص ٢٦ .

(م ٨ — الاستنراق)

وبذلك مسح عمر أرض السواد « العراق » فبلغ ستة وثلاثين ألف ألف جريب . ووضّح على جريب الزرع درهما وقفبزا وعلى الكرم عشر دراهم وعلى الرطبة خمس دراهم ، وعلى الرجل اثني عشر درهما وأربعة وعشرين درهما ، وثمانية وأربعين درهما (١١) .

والله اعلم . وذكره أبو يوسف في كتاب « الخراج » ، واذ حللنا هذا النص نجد فيه مدى عدل الخليفة عمر ، فإنه لم يجعل الخراج مبلغا مساويا من المال يفرض على الأرض عامة ، ولكنه راعى في هذه الأرض نوعها ، ونوع المحصول الذي تنتجه ، ثم قدر بعد ذلك ، كما أنه راعى أموراً كثيرة منها سهولة ربيها وقربها وبعدها للعمار ، كما راعى ظروف الـذميّين ، فلم يجعل الجزية متساوية ، ولكنها قسمها طبقا لأحوال الفرد المالية .

وقد حاول المستشرق ماكس بريشم أن يدس اتهاماً آخر ، وهو أن الـذميّين « بدأوا يقبلون على الإسلام هرباً من هذه الالتزامات المالية الكبيرة التي فرضها عليهم الإسلام » (١٢) .

والحقيقة أن هذا الرأي خاطيء ، خاصة وأن المسلمين اضطروا في فترة من تاريخهم إلى ابتساء الجزية على من أسلم ومع ذلك فلم تقل حركة الدخول في الإسلام بل كانت تزداد يوماً بعد يوم ، فقد حدث أن رأى الحجاج بن يوسف وإلى العراق أن إيرادات بيت المال تنقص من جراء دخول عدد كبير من أهل الذمة في الإسلام ، لذلك خالف سنة ابن الخطاب وأبقى الجزية على من أسلم وسار الولاية من بعده على هذا العـمل ، فلم تقل حركة الدخول في الإسلام فقد حاول الوالى على مصر أن يفعل ذلك غير أنه عهد عمر بن عبد العزيز ، فرد عليه بقوله « فضع الجزية عن أسلم قبح الله رأيك ، أنا بعث الله محمداً هادياً ولم يبعثه جانياً » (١٣) ورغم الجزية عن أسلم مرة أخرى .

(١١) أبو يوسف « المصدر السابق » ص ٤١ .

(١٢) عبد الجليل شاذلي « الإسلام والمستشرقون » ص ٩٧ .

(١٣) الطبري . « تاريخ الرسل والملوك » ج ٦ ص ٢٠٣ .

الاسلام والملكية

اعترف الاسلام بالملكية الفردية الناشئة عن سبب مشروع ، ليشجع بذلك الدوافع الفطرية في حب التملك والادخار ، ولكنه لا يشجع الملكية الفردية اذا نشأت عن سبب مشروع ، فقد سمح بمصادرة هذه الأموال مهما طال عليها الزمن .

وقد شجع الاسلام الانسان ليحصل المال وينتفع به ، نأمر بتحصيله عن طريق التجارة وبالرحلة اليمنية والشامية اللتين يسرهما الله لقريش في تجارتها يمن عليهم ويذكرهم بفضلهم ونعيمه ، وأمر بتحصيله عن طريق الزراعة التي بها حياة الأرض واستثمارها ، وبتحصيله من الصناعة والصناعة اقوى العمد التي تقوم عليها الحضارات وفي القرآن الكريم اشارات كثيرة الى جملة من الصناعات مثل الحديد (١٤) .

أمر القرآن بتحصيل الأموال عن هذه الطرق وسمى طلبها **البتقاء** من فضل الله ، وقد بلغت عنايته بالأموال أن طلب السعى في تحصيلها بمجرد الفراغ من أداء العبادات الأسبوعية المفروضة ، وأنه لم يأمر بالانصراف عن تحصيلها الا لخصوص هذه العبادة ، يقول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع » (١٥) .

معنى ذلك أن المال ليس غاية في ذاته ، وإنما هو وسيلة من وسائل تبادل المنافع وقضاء الحوائج ، فمن استعمله في هذا السبيل كان المال في يده خيرا له وللمجتمع ومن استعمله على أنه غاية ولذو انقلب الى شهوة تورث صاحبه المهالك وتفتح على الناس أبوابا من الفساد .

هذا موقف الشرع من المال ، أما موقفه بالنسبة للانتفاع به فقد أمر بالاعتدال في صرفه ، وقرر بالنهاى عن الاسراف فيه ، وبالنهى عن الضن به وجعل الاعتدال في صرفه من صفات المقربين عباد الرحمن ، وجعل الاسراف فيه ، والضن به عن الحقوق والواجبات مما يوقع في الحسرة

(١٤) محمود شلتوت « الاسلام عقيدة وشرعية » ص ٢٥٠-٢٥١ .

(١٥) سورة الجمعة آية ٩ .

واللزمة (١٦) فالإنسان في الإسلام ليس مالكا حقيقيا يتصرف في ماله كيف يشاء لأن المال مال الله ، ومعنى هذه العبارة ، أنه مال الجماعة والغنى مرتبط على رعايته وانفاقه بما يوافق صالح الجماعة « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » (١٧) وقوله تعالى « وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » (١٨) .

فالملكية إذا وظيفة اجتماعية ، والغنى إذن مطالب ازاء مجتمعه بواجبات مالية أدناها الزكاة ، وهي ليست تبرعا ولا احسانا يعطيه الغنى للفقير فيشعر بالاستعلاء ، ويشعر الفقير بالاذلة والهوان ، بل هي حق معلوم وضريبة مفروضة تأخذها الدولة بواسطة الجباه العاملين عليها ، وتنفقها على المحتاجين ، وعلى المصالح العامة . قال تعالى :

« إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين . وفي سبيل الله وابن السبيل » (١٩) .

وقد نص الامام الشافعي على أن للفقير حقية استحقاق المال حتى صار بمنزلة المشترك بين صاحبه ، وبين الفقير ، ويجوز للفقير أن يأخذ مقدار الزكاة اذا ظفر به ، وكان صاحبه قد امتنع عن أدائه ، وفي هذا اخراج للزكاة عن أن تكون مظنة للذل والمهانة للفقير ، كما يتوهم بعض الناس (٢٠) .

والنسبة المفروضة من زكاة المال هي ٢٥٪ وهي نسبة مقبولة تسخو بها النفس طواعية ، واختيارا وهي مع ذلك تجمع حصيلة كبيرة جدا لأنها نسبة من رأس المال والربح الناشئ عنه خلال السنة كلها ، كما أن الزكاة عامل من عوامل توزيع الثروة وانتقالها من أيدي الناس

(١٦) محمود شلتوت « الإسلام عقيدة وشريعة » ص ٢٥٢ .

(١٧) سورة الحديد آية ٧ .

(١٨) سورة النور آية ٣٣ .

(١٩) سورة التوبة آية ٦٠ .

(٢٠) مصطفى السباعي « اشتراكية الإسلام » ص ١٢٨ .

خلال سنوات محدوده بحيث يكون ما يملكه الانسان بعدها ثروة جديدة
أنشأها بجهده وعمله (٢١) .

وقد أشاع بعض المستشرقين كلاما مرذولا حول بيت المال الذى
تجمع فيه الزكاة والموارد الأخرى ، وأن بيت المال ان هو الا خزينة
خاصة ينفقون منها كيف شاءوا ، دون معتب (٢٢) .

هذا رأى بعض المتغالبين والحاقدين على الاسلام ، حاولت أن
أعارضه برأى لمستشرق آخر منصفى هذا الموضوع بالذات وهى المستشرق
ساسينيون قال « ان لدى الاسلام من الكفاية ما يجعله يتشدد فى تحقيق فكرة
المساواة ، وذلك بفرض الزكاة التى يدفعها كل فرد لبيت المال ، وهو
يُناهض الديون الربوية والضرائب غير المباشرة التى تفرض على الحاجات
الأولية الضرورية ، ويقف فى نفس الوقت الى جانب الملكية الفردية ورأس
المال التجارى ، وبذا يحل الاسلام مرة أخرى مكانا وسطا بين نظريات
الراسمالية والبورجوازية ، ونظريات البلشفية والشيوعية » (٢٣) .

ولابد أن نرد هذه الشبهات عن الاسلام ، فالذى يعرفه كل دارس
للشريعة الاسلامية وتاريخها ان بيت المال ليس ملكا للخليفة ، وإنما هو
ملك للامة جميعها ، والخليفة إنما هو خازن أمين ليس له منه الا راتبه
بالمعروف كما قال أبو بكر رضى الله عنه : « أعطونى كأُسْدُ رجل من
قريش » وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه « إنما أنا وهذا المال كولى
اليتيم ان استغنيت استغنيت ، وان افتقرت اكلت بالمعروف » وأبى على
ابن أبى طالب أن يأخذ من بيت المال شيئا لنفسه وأهله ! (٢٤) .

هذا مسلك الراشدين من حكام المسلمين ، وخلفائهم ، أما انحرافات
بعض الحكام ، فليس حجة على الاسلام ولا يسأل عنها .

واذا كان الاسلام قد سمح بالملكية الفردية الا أنه وضع عليها
قيودا بل وسمح لولى الأمر أن يعمل جهده بما يحقق للامة الانتفاع بها

(٢١) مصطفى السباعى « المرجع السابق » ص ١٢٩ .

(٢٢) القرضاوى والعسال « الاسلام بين شبهات الضالين » ص ٢٣

(٢٣) محمد على « مولانا » الاسلام والنظام العالمى الجديد ص ٤٥

(٢٤) الطبرى « تاريخ الامم والملوك » ج ٤ ، ص ١٧٥ ، ٢٠٣ .

تسعى إلى أن يعمل على تنسيقها بحيث لا يترك الأموال تتكسفر في تركيز عنصر واحد منها دون سواه . فلا عليه أن يحول بعضا من الأراضي الزراعية إلى رؤس الأموال تجارية أو شركات صناعية ، على حسب حاجة البلاد المبنية على تقدير مصالحها : ويتم بذلك تنسيقها على الوجه الذي يجعلها غنية بنفسها عن غيرها (٢٥) .

وقد عني القرآن الكريم عناية كاملة بالحث على البذل للفقراء المساكين والانفاق في سبيل الله .

كما القرآن عمل على تحقيق الانتفاع بالمسال لخير الجميع . وتطهيرا للنفوس من بواعث الأثرة منها . وحارب الاسلام في المالكين لها والقائمين عليها خلق الشح الذي يمنع من البذل والانفاق . كما حارب البخل الذي يؤدي بالمال في غير وجوه النفع . واقامة المصالح يقول الله تعالى « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » (٢٦) .

وقد أرشد القرآن الكريم الى أن الضن بالأموال عن أداء الواجبات واقامته المصالح القاء بالنفس الى التهلكة .

وكما وقف القرآن ويجانبه اقوال الرسول صلى الله عليه وسلم من الشح بالأموال هذا الموقف : وقف أيضا الموقف عينه من التبذير فيها ، واضاعتها فيما لا يعود بخير على الأمة « ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا » (٢٧) . وبعد أن أفرد القرآن كلا من الضن والتبذير بما يصور سوء عاقبة جمعها في اطار واحد وارشد الى الطريق السوي الذي يسلكه ارباب الاموال في اموالهم ، فيحفظ عليهم حياتهم ، ويمكنهم من اقامتها على عمود قوية ثابتة (٢٨) قال تعالى :

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد

-
- (٢٥) محمود شلتوت « المرجع السابق » ص ٢٥٥ .
(٢٦) سورة التغابن آية ١٦ .
(٢٧) سورة الاسراء آية ٢٧ .
(٢٨) شلتوت « المرجع السابق » ص ٢٥٨ .

ملوما محسورا! « (٢٩) وقد حظر الشران الضعيف الربا تشبها وكثيرة ،
واعبر أكل الربا محاربا لله ورسوله « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا
ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين » (٣٠) .

وحرم عليهم الاحتكار الذى هو سمة الراسمالية فقد قال صلى الله
عليه وسلم « الجالب مرزوق والمحتر ملعون » (٣١) .

وقد حرم الاسلام الوان الترف التى بفسد الأفراد . فالخمر ممنوعة ،
وأوانى الذهب والفضة محظورة ، ولبس الذهب والحريير للرجال محرم
قال تعالى « وإذا اردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفينها ففستوا
فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (٣٢) .

من ذلك نرى أن النظم الاقتصادية الإسلامية نظم عالمية متحضرة ،
فقد أقام الاسلام قواعده الاقتصادية على منع الاستغلال بغير عمل ، وان
بتداول المجتمع الثروة حتى لا تكون دولة بين الأغنياء ، وقرر أن تكون
للضعفاء والمحرومين حصصة سنوية ، وهى حق معلوم للسائل والمحروم ،
قد يزداد عليها بأمر الإقامة وإحسان المحسنين .

فإذا كان المسلمون قد دفعوا الزكاة ، فقد دفع الذميون الجزية ،
فالمسلم لابد أن يتركى من ماله حتى لا يجبسه ، ويجب أن يتداول هذا المال
فى التجارة والصناعة والعمل (٣٣) .

من هذا العرض نرى أن الاسلام يشجع تداول رأس المال ، وتشغيله
فإذا حبسه الانسان حولا كاملا ، وجبت عليه الزكاة وهى ٢٪ كذلك
فرضت الى جانب زكاة المال زكاة الثمار والزررع ، وزكاة الأرض والثمار
والذهب والفضة ، فالمجتمع الاسلامى هذا مجتمع متكامل متضامن ، ولا

(٢٩) سورة الاسراء آية ٢٩ .

(٣٠) سورة البقرة آية ٢٧٨ .

(٣١) القرضائى والعسال « المرجع السابق » ص ٢٤ .

(٣٢) سورة الاسراء آية ١٦ .

(٣٣) عباس العقاد « ما يقال عن الاسلام » ص ١٨٨ .

ولا أظن أن النظم الاجتماعية الحديثة من تكافل وتضامن ورعايه اجتماعية إلا شيئا قليلا مما أقره الاسلام .

واعتقد أن هذا رد كاف على المستشرق المتفالى الذى تصور أن أهل الأئمة قد أسلموا هربا من الضغوط المالية ، كيف ذلك وهذه هى نظم الاسلام المالية .

فالنظم الاسلامية نظم عادلة : ومهما رفع دعاة الاشتراكية رؤوسهم ونادوا بمبادئهم ونظمهم ، فليس فى نظمهم وقوانينهم مثل هذه الاشتراكية النابعة من ضمير الانسان ، والتي جعلها الاسلام ديننا تقترب به دعواه من صلاة ، وشهادة ، وتوحيد ، والمال كله ملك للامة تحفظ اليد المستخلقة فيه وتنميه ، ثم تنفع به كلها ، يخرج من أحد جانبيها ويقع فى الجانب الآخر فهو منها كلها ، وهو اليها كلها ، وما اليد المعطية ، واليد الآخذة إلا يدان لشخصية واحدة كلتاها تعمل لخدمة تلك الشخصية ، وهى شخصية المجتمع الذى لا قوام له إلا بتكافل هاتين اليدين على خيره وبقائه ، ولعل معنى الوسيطة التى حل بها الاسلام المشكلة المالية تظهر بذلك ، نلکم المشكلة التى ظل بها العالم فى أمسه وحاضره متردد بين طرفى الافراط بالطغيان المالى والتفريط بالغاء الملكية الفردية ، وبذلك تقطعت أواصر الرحم الانسانى ، وسخر الأغنياء الفقراء ، وثار الفقراء على الأغنياء ، ونشبت الحروب المدمرة ، وأفلست دعاوى المدعين الذين بخدمون أنفسهم من واتع الأمر ، ويتظاهرون بخدمة المجتمع الانسانى ، وما ربك بغافل عما يعملون (٢٤) .

المستشرقون والنظم الاجتماعية في الاسلام

لم يهمل المستشرقون بابا في النظم الاسلامية الا تدارسوه ، وبدأوا في اصدار الاحكام الجائرة عليه ، وكما بينت في كلامي السابق ان مرجع كل هذا هو العداء الصريح للاسلام والجهل به ، ولذلك فمن الموضوعات التي شغلت افكار واقتلام طائفة المستشرقين المعادين للاسلام كانت النظم الاجتماعية في الاسلام ، واهم قضاياها . الفقر ، التعاون ، المرأة وما يخصها من موضوعات ، الرق في الاسلام .

وسأتناول كل قضية من هذه القضايا على حده . متعرضة لآراء المستشرقين فيها ، مع تقديم الردود المؤيدة بالقرآن والسنة .

وسأبدأ بمشكلة الفقر التي حاول هؤلاء المستشرقون أن ينسبوها الى بلاد الاسلام متخذين من سوء الاحوال الاقتصادية الموجودة في كثير من البلدان الاسلامية سببا في ترديد هذا الرأي متخذين من النظم الاقتصادية الاسلامية سببا لهذه المشكلة .

والدارس للاسلام يرى أن الفقر مرض اجتماعي ، وليس قدرا مقدورا . لا حيلة في دفعه بسعي أو كسب ، لقد أمر القرآن بالسعي في الأرض قال « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها ، وكلوا من رزقه » (١) فلا يكون الفقر بعد ذلك الا لاحد أمرين اما كسل أو خمول وهذا لا يقره الاسلام ، واما العجز عن العمل ، ومثل هذا الفقر الذي لا حيلة للانسان في دفعه ، هو الذي وضع له الاسلام من قوانين التكافل الاجتماعي ما يدفع بؤسه ويحفظ للفقر كرامته .

ومما يدل على نفرة الشريعة من الفقر قوله صلى الله عليه وسلم « كاد الفقر أن يكون كفر » (٢) وكان من دعائه عليه السلام « اللهم اني

(١) سورة الملك آية ٥١ .

(٢) رواه ابو نعيم في الحلية .

أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل . وأعوذ بك من الفقر والكفر
والفسوق . وأعوذ بك من الصمم والبكم والنجون وسوء الأستقام » (٢)
وفى دعاء آخر للرسول عليه السلام « اللهم انى أسالك التقى والهدى
والعفاف والغنى » (٤) .

وهذا انتقال من موقف السلبية ، تجاه الفقر الى الايجابية من عكسه
وهو الغنى ، وان فى طلب الرسول للغنى وهو قوة الزهاد فى الدنيا
لدلالة بعيدة الأثر فى هذا المقام (٥) .

وقد عمل الاسلام على حل مشكلة الفقر ، فشرع تشريعات تعمل
على الحد من هذا المرض الاجتماعى الخطير ، فقد راينا فى دراستنا للزكاة
التي فرضها الله سبحانه وتعالى على عباده القادرين حلا أمثل لهذه
المشكلة ، فقد جعلها الله اذن لتوفير العيش والطمانينة للناسين
والمحتاجين ، واذا امتنع الغنى عن اخراجها اخذتها الدولة منه قهرا ،
وجاز لها أن تعلن الحرب عليه .

وقد جاء الاسلام بنظام الارث . وذلك للتضاء على تكديس الثروات
فى يد واحدة ، وهو من عناصر الطغيان المالى الذى يثير فى الجماعة
حرب الطبقات ، ويعطى بذلك فرصة متكافئة للفقراء ليتقوا مع الأغنياء ،
وفتح لهم باب العمل والكسب . ولم يجعله محررا لحائفة ، ولا مسدودا
أمام أحد فمن احيا أرضا ميتة فهى له ومن طرق باب تجارة فربحها فهى
له ، ومن عثر فى باطن الأرض على ركاز (٧) ، يدفع الخمس منه
والباقى له (٨) .

ومن لم يجد عملا وجب على ولى الأمر أن يجيئه له عملا ، فان لم

(٣) رواه الحاكم والبيهقى .

(٤) رواه مسلم والترمذى وابن ماجه .

(٥) مصطفى السباعى « اشتراكية الاسلام » ص ٨٢ .

(٦) محمود شلتوت « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٢٤٥ .

(٧) ركاز : مركزه الله تعالى فى الأرض من المصادن فى حالتها
الطبيعية ، والكنز والمال . انظر المعجم الوسيط .

(٨) القرضاوى والعسال « المرجع السابق » ص ٢٥ .

بشيء له عملاً أي كان عاجزاً عن العمل أو كان أجبره على عمله بخلافه ، كان واجباً على ولي الأمر أن يرعاه . وأن يهيئ له ما شق له حتى لا يستسلم أو يذمى في ظل دولة الاسلام .

وقد جعل الاسلام نفقة الفقير العاجز واجبة على قريبه الغنى ، وللحاكم اذا لم تكن الزكاة كافية لسد هذه الحاجات ان يفرض على أغنياء اذا لم تكن الزكاة كافية لسد هذه الحاجات ان يفرض على اغنياء المسلمين الضرائب الكافية التي تقيم مصالح المسلمين (٩) .

وقد قرر علماء المسلمين هذا المبدأ ، فاذا احتاج المسلمون . فلا مال لاحد كذلك اوجب الاسلام على اهل كل قرية ان يلتزموا بسد حاجة فقرائها ، ان لم تكف الزكاة ، وقد قرر ابن حزم « ان من ولي الأمر يلزم الأغنياء من اهل كل قرية بذلك في هذه الحال » (١٠) . وهكذا اقام الاسلام العلاقة بين الغنى والفقير على اساس المساواة والعدل .

فهو يسوى بين الجميع في الحقوق والواجبات العامة ، ويتيح الفرصة للجميع ليتكسبوا ، ويقول للأغنياء « انفقوا من طيبات ما أنسبتم » (١١) ويقول لولى الأمر « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » (١٢) ويقول للفقير لا تحقد ، ولا تحسد « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجنا منهم » (١٣) ثم يقول للجميع ، كونوا عباد الله اخوانا .

والمعروف ان الاسلام اعطى للفقراء مالم يعطه دين آخر ، واهتم بهم اهتماماً بالغاً لم يهتم به اى نظام اقتصادى عرف من قبل . محاولاً بذلك رفع الفقر عنهم لئلا يفسد المجتمع الاسلامى بوجود عنصر حاقدة محرومة فيه فالفقر يدفع الى الكفر ، ولذا نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يشير الى الفقراء فى أكثر من موضع ، قال صلى الله عليه

(٩) محمد أبو زهرة « الاسلام عقيدة وشرعية » ص ٢٣٠ .

(١٠) المرجع السابق .

(١١) سورة البقرة آية ٢٦٧ .

(١٢) سورة التوبة آية ١٠٣ .

(١٣) سورة الحجر آية ٨٨ .

وسلم « شر الطعام الوليمه يدعى لها الأغنياء ويترك الفقراء (١٤) » ، وقال « أفضل الصدقة أن تشبع كبدا جائعا » (١٥) .

وقال عليه السلام « من منح منيحة لبن أو ورق أو أهدي زقاقا كان له مثل عتق رقبة » وكان الرسول صلى الله عليه وسلم فى أحاديثه الكثيرة يفضل الفتر على الغنى ، ليخفف من شأن الغنى فى المجتمع ، وليجعل الشأن للعمل النافع وللإيمان ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما لأبى ذر أتري كثرة المال هو الغنى ، قال نعم يا رسول الله ، قال فترى قلة المال هو الفقر ؟ قال نعم يا رسول الله ، فقال الرسول : « انما الغنى غنى القلب ، والفقر فقر القلب » ، وفى حديث آخر « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكى الغنى غنى النفس » (١٦) .

وكان الرسول عليه السلام يحارب مظاهر الغنى حتى لا تؤذى نفوس الفقراء معنى الحديث « لاتشربوا فى آنية الذهب والفضة ، ولا تلبسوا الحرير والديباج » (١٧) وفى حديث آخر « من لبس الحرير فى الدنيا ، لم يلبسه فى الآخرة » (١٨) وكان عليه السلام يأمر الفقراء الا ينظروا الى من فوقهم ، ولسكن الى الذين دونهم ، كيلا يعمل الحقد فى نفوسهم .

وقد أمر الاسلام باخفاء الصدقات التطوعية وعدم اظهارها أو المن بها ابتغاء الشهرة والظهور والا بطل ثوابها ، قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » (١٩) .

والمعروف أن التعاون من أهم الوسائل التى تقضى على ظاهرة الفقر فى مجتمع من المجتمعات ، لأن التعاون والتكافل يؤديان الى خلق مجتمع سليم . واننا نرى اليوم فى المجتمعات الحديثة مؤسسات تعاونية، ودور اجتماعية. هدفها ربط الناس وتكافلهم بعضهم ببعض .

(١٤) رواه الشيخان .

(١٥) رواه البيهقى .

(١٦) رواه البخارى ومسلم .

(١٧) رواه الشيخان .

(١٨) رواه الشيخان .

(١٩) سورة البقرة آية ٢٦٤ .

وأذا كانت هذه النظم الحنيئة تدعو الى ذلك ، فالدين الاسلامي هو دين الشاؤن والتكافل الاجتماعي ، والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم هو اول استاذ لهذه النظريات فى العالم .

وتعتبر دعوة الاسلام هذه اقدم دعوة فى تاريخ العالم من ١٤٠٠ سنة ، والقرآن الكريم يقول فى سورة المائدة محددًا التعاون على البر . وقد جاء البر فى القرآن بمعنى حسن المعاملة وطيب العشرة ومكارم الاخلاق ، والبعد عن الطغيان .

وفيه ورد قوله تعالى « وبرا بوالدتي ، ولم يجعلنى جبارا شقيا » (٢٠)

وجاء البر بمعنى الانفاق والبذل فى سبيل الله وهو طريق للحق والخير والنفع ، وورد قوله تعالى « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » (٢١) .

وجاء البر بمعنى العبادة من صلاة وزكاة ، وفيه ورد قوله تعالى بعد أن امر بنى اسرائيل باقامة الصلاة ، وايتاء الزكاة « اتأهرون الناس بالهر وتنسون انفسكم ، وانتم تتلون الكتاب افلا تعقلون » (٢٢) .

وجاء البر بمعنى مجموعة من الفضائل النفسية والاعتقادية والخلقية ، وفيه ورد قوله تعالى « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله ، واليوم الآخر والملائكة ، والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين وفى الرقاب واقام الصلاة ، وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » (٢٣) .

كما جاء البر أيضا بالدعوة الى التضامن فى اعمال الخير ، وعند

- (٢٠) سورة مريم آية ٣٢ .
(٢١) سورة آل عمران آية ٩٢ .
(٢٢) سورة البقرة آية ١٧٧ .
(٢٣) سورة البقرة آية ١٧٧ .

التضامن فى أعمال العدوان فى قوله تعالى « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » (٧٤) والى جانب البر نجد الاسلام اعلن عن مبادئ كثيرة للتكافل الاجتماعى فى نصوص كثيرة من القرآن والسنة ، فمن القرآن الكريم قوله تعالى « انما المؤمنون اخوة » (٧٥)

ان اعلان الاخاء بين افراد مجتمع ما يوجب التكافل بينهم لافى الطعام والشراب وحاجبات الجسم فقط ، بل فى كل حاجة من حاجيات الحياة .

فالدعوة التعاونية فى الاسلام قد عمت أكثر من ذلك ، غامر بأن يكون اخير بلا تحديد فى نواحيه هو هدف المجتمع التعاونى ، كما أمر بالبعد عن الاثم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ونرى الرسول صلى الله عليه وسلم فى جميع أحاديثه يدعو الى هذا المبدأ كما لرسول الله صلى الله عليه وسلم « الله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه » (٢٦) وقوله عليه السلام « من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا ، فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة » (٢٧) وقوله عليه السلام « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » (٢٨) وقوله « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحيمهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » (٢٩) .

وبذلك تتنوع أنواع التكافل فى الاسلام ، فهناك التكافل الأدبى ، وذلك أن يشعر كل واحد نحن الآخرين بشعور الحب وحسن المعاملة والتعاون فى سراء الحياة وضرائها ، وقد دل عليه قوله صلى الله عليه وسلم « أحب لأخيك ما تحب لنفسك » (٣٠) .

(٢٤) سورة المائدة آية ٢ .

(٢٥) سورة الحجرات آية ١٠ .

(٢٦) رواه الشيخان .

(٢٧) رواه البخارى ومسلم .

(٢٨) رواه الشيخان .

(٢٩) رواه الشيخان .

(٣٠) رواه الحاكم والطبرانى .

وهناك التكافل العلمى ، فقد أوجب رسول الله صلى الله عليه وسلم على العالم أن يعلم الجاهل ، وعلى الجاهل أن يتعلم من العالم . ويدخل فى ذلك إلا يضمن العالم بعلمه على الناس ، وأن يكتم ما أدركه من أسرار الشريعة أو الكون ، لكى ينفرد بالرئاسة أو التميز العلمى ، وقد جاء فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « من كتم علما لجمه الله بلجام من نار يوم القيامة » (٣١) .

وهناك تكافل سياسى . فقد قرر الاسلام أن لكل مواطن حقه السياسى وحقه فى المراقبة والنصح لأولياء الأمور ، لأنه مسئول عن مستقبل الأمة وما كان كذلك ، فالمجتمع كله متكافل فى تأييد السياسة الرشيدة ، وانكار الفساد والانحراف فيها ، ويدخل ذلك تحت عموم قوله صلى الله عليه وسلم « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » (٣٢) .

وهناك تكافل دفاعى . وذلك أن كل مسلم فى الدولة عليه أن يتكافل مع بقية مواطنيه بالدفاع عن سلامة البلاد ، وعليه النفير إذا أغار عدو أو مغير على ناحية منها بحيث أصبحت الأمة فى حالة استنفار . وفى ذلك نزل قوله تعالى « انفروا خفافا وثقالا » (٣٣) ولا يعفيه من هذا الواجب مقام ولا منزلة إلا أن يكون به عذر أو مرض (٣٤) .

وبذلك نرى أن الاسلام دين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويهدف الى تكوين مجتمع صالح متعاون متكافل ، متراحم متواص بالخير ، متواص بالرحمة له ولأفرادهم ، لهم المجد والفلاح فى الدنيا والفوز والنجاح فى الآخرة . وإذا كانت بعض المجتمعات الانسانية تسير الآن فى ظروف معتريها فيها الفقر والحاجة ، مما جعل أعداء الاسلام ينهالون على نظم الاسلام ويتهمونها ، فائنا بما قدمنا نكون قد أثبتنا أن المسئول عن هذه المشكلة ليس الاسلام ، ولكن سوء تطبيق نظام الاسلام .

(٣١) رواه أبو داود الترمذى .

(٣٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣٣) سورة التوبة آية ٤١ .

(٣٤) مصطفى السباعى « اشتراكية الاسلام » ص ١١٨ .

المرأة المسلمة في نظر المستشرقين

وجه المستشرقون اتهامات كثيرة حول قضية « المرأة في الاسلام » وحاولوا ان يشوهوا الصورة الكريمة الى رسمها القرآن الكريم للمرأة، ورددوا شبهات واهية ، وصورا مذبذبة .

فقد زعم زاعمون منهم ان الاسلام اهتضم حق المرأة وأسقط منزلتها وجعلها متاعا في يد الرجل يتصرف فيها كما شاء بما يشاء .

والحقيقة ان المسألة لا ترجع الى حق يريدون تقريره او باطل يريدون تزييفه ، وانما هي العصبية الدينية او الفتنة بالتقليد الأجنبي عن طريق استحسان ما يستحسنه القوى ، ولو كان قبيحا منكرا واستقباح ما يستقبحه الضعيف ولو كان حسنا معروفا ، وهذا شأن درج عليه 'نفس' في استحسان ما يستحسنون واستقباح ما يستقبحون (١) .

والحقيقة ان الاسلام قد شمل المرأة في جميع تشاريعه الخاصة بنظام الأسرة برعاية كريمة وعطف كبير ، وسما بها الى مستوى رفيع لم تصل الى ماله ولا الى ما يقرب منه أية شريعة أخرى من شرائع العالم القديمة والحديثة .

فقد رأينا كيف كانت تعامل المرأة قبل الاسلام معاملة مهينة ، فقد كانت تعامل كأنها سقط متاع ، فهي لا تشارك في الرأي أو الحرب ، ولا تدفع الأذى عن قبيلتها (٢) .

يقول ابن عباس رضي الله عنه « كانت الحوامل اذا قربت ولادتها حفرن حفرة ، فمخضت على رأسها ، فاذا كان المولود أنثى قذفت بها

(١) محمود ثلثوت « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٢١٨ .
(٢) عبد الرزاق نوفل « الاسلام والعلم الحديث » ص ٩٠ .

فى الحفرة واذا كان ذكرا استبقته فى حنان وعزه . وكان هناك طريقة
أخرى للواد وهى أن الرجل يترك البنت حتى السادسة من عمرها . فان
أراد النخلص منها قال لأُميا طيبيا وزينيا . ثم يذهب الى بئر حفرها فى
الصحراء ويقول لها أنظري هذا البئر . وينيل عليها التراب « (٢) .

يقول الله تعالى « ويجعلون لله البنات سبحانه . ولهم ما يشتهون
واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ؛ ينوارى من القوم
من سوء ما بشر به . أيهمكه على عون أم يدسه فى التراب إلا ساء
ما يحكمون » (٤) .

وفى الغرب كانت المرأة فى ظل الحكم الرومانى تعال معاملة الرقيق .
وتمنهن كرامتها وعفتها . وليس هناك أى تشريع عندهم يرفع من شأنها .
وقد اجتمع فى روما مجمع كبير وبحث شؤون المرأة ؛ فقرر انها كائن لانفس
له ، وانها لهذا لن ترث الحياة الأخرية . وانها رجس يجب . الا تأكل
اللحم والا تضحك . وعليها أن نمضى وقتها فى الصلاة والعبادة والخدمة .
وليس لها الحق فى أن تتكلم ؛ ولنعها من الكلام وضعوا على فمها قفلا
من الحديد ؛ فكانت المرأة من أعلى الأسر تروح وتغدو فى الطريق أو فى
دارها وعلى فمها قفل ؛ هذا غير العقوبات البدنية التى كانت توقع عليها
باعتبارها أداة الإغواء يستخدمها الشيطان لاغواء القلوب (٥) .

والعجيب ان اهل الغرب الذين أصبحت نساؤهم تعيش تحت ظل
المدنية الزائفة هم الذين يتكلمون عن مكانة المرأة فى الاسلام . ويقولون
ان حقها هضم ؛ وان منزلتها أسقطت وجعلها الاسلام متاعا فى يد الرجل .
فبالاسلام جعل المرأة شريكة الرجل حينما تحدث عن الأصل الذى تفرع منه
الإنسان . فكان الرجل أبا والمرأة أما فلا تفاضل بينهما فى جانب الإنسانية .
يقول الله تعالى « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم
شعوبا وقبائل لتعارفوا ؛ ان أكرمكم عند الله اتقاكم » (٦) .

(٣) المرجع السابق .

(٤) سورة النحل آية ٥٨ — ٥٩ .

(٥) عفيف طباره « روح الدين الإسلامى » ص ٢٨١ .

(٦) سورة الحجرات آية ١٣ .

كما عني الاسلام ببيان وحدة الزوجين وتساويهما من الناحية النفسية ليقضى على جميع النظريات الخاطئة التي كانت تزعم ان المرأة جنس منحط بذاته عن جنس الرجل (٧) . ويؤيد ذلك ما افترسه اللورد كرومر في كتابه « مصر الحديثة » ان الرجل يتمسك بالاسلام اشد من تمسك المرأة المسلمة بالاسلام ويعمل هذا الافتراض على انه ظاهرة في الحياة الاسلامية ، وبانه يرجع الى اختلاف وضعية كل من الرجل المرأة في الاسلام (٨) .

والرد على ذلك قوله تعالى « يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة » وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » (٩) .

فالاسلام يؤكد وحدة الزوجين ، وتساويهما من ناحية علاقتهما بربهما وجزائهما عنده « فاستجاب لهم ربهم اني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او أنثى بعضهم من بعض » (١٠) .

وليقف المتأمل عند هذا التعبير الالهي « بعضهم من بعض » ليعرف كيف سما الاسلام بالمرأة حتى جعلها بعضا من الرجل ، وكيف حدد من طغيان الرجل فجعله بعضا من المرأة ، وليس في الامكان ما يؤدي به معنى المساواة اوضح ولا اهل من هذه الكلمة التي تفيض بها طبيعة " جل والمرأة ، والتي تتبنى في حياتهما المشتركة دون تفاضل وسلطان قال تعالى « للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن » (١١) واذا كانت المرأة مسئولة مسئولية خاصة فيما يختص بعبادتها ونفسها فهي في نظر الاسلام ايضا مسئولة مسئولية عامة فيما يختص بالدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والارشاد الى الفضائل والتحذير من الرذائل .

أضف الى ذلك ان الاسلام احترم رأي المرأة فيما تبدو وجاهته شأن رأي الرجل تماما سواء بسواء ، واذا كان الاسلام جاء باختيار آراء

(٧) سيد قطب « الاسام ومشكلات الحضارة » ص ٦٤ .

(٨) محمد البهي « الفكر الاسلامي الحديث » ص ٥٣ .

(٩) سورة النساء آية ١ .

(١٠) سورة آل عمران آية ١٩٥ .

(١١) سورة النساء آية ٣٢ .

بعض الرجال ، فقد جاء أيضا باختيار رأى بعض النساء ، وذلك ملما
حدث عندما تحاورت خولة بنت ثعلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
بشأن زوجها الذى ظاهاها ، فسمع الله تحاورهما وانزل سبحانه وبعلى
الآية الكريمة « قد سمع الله قول النى نجادلك فى زوجها ونشنى الى
الله ، والله يسمع نحورك . ان الله سميع بصير » (١٢) فنرى كيف رفع
الله شأن المرأة ، وكيف احترم رأيها . وجعلها مجادلة ومحاوره للرسول
وجمعها واياه فى خطاب واحد ، « والله يسمع تحاوركما » وكيف قرر
رأيها وجعله تشريعا عاما (١٢) .

والى جانب مذكرناه ، فان الاسلام لم يسلب المرأة حق التعليم فقد
امرها ان تتعلم كل ما يمكنها من القيام بهذه المسؤولية على الوجه الذى
حددت فيه ، وطلب منها عليه وهو تحرى الخير والصلاح والبعد عن الشر
والفساد ومن هنا اوجب الاسلام عليها — كما اوجب على الرجل معرفة
العقائد والعبادات ومعرفة الحلال والحرام فى المأكول والمشروب وسائر
النصرفات ، ولا نعرف بينها وبين الرجل فارقا دينيا فى التكليف واهليته
سوى ان التكليف يلحقها قبل ان يلحق الرجل ، وذلك لوصولها بطبيعتها
الى مناط التكليف وهو البلوغ قبل ان يصل الرجل اليه ، وفى ميدان الجهاد
فقد سمح للمرأة بالاشتراك فيه بدون تكليف ، وقد وضع الاسلام ذلك
ونمره من اول يوم دخل فيه ميدان الحرب والجهاد ، غير ان اختلاف
النظم وتبدل الأحوال والشئون يوجب فى هذه الأيام حفظا لكرامة
المرأة اذا ارادت ان تساهم فى هذا الواجب العام ان يتخذ لها الوضع
الذى يصونها ، ويقيها شر العابثين مرضى القلوب الذين لا يسلم منهم
جيش ولا مجتمع (١٤) .

وخلاصة ذلك ان الاسلام منح المرأة انسانيتها المساوية لانسانية
الرجل ، وظهر ذلك فى كثير من نواحي التشريع الاسلامى ، فكان دينا
مساويا لدمه والحكم فيهما واحد وهو القصاص ، قال تعالى « وكتبنا عليهم
فبها ان النفس بالنفس » (١٥) وبذلك كان الجزاء الاخرى فى الاعتداء

(١٢) سورة المجادلة آية ١ .

(١٣) عائشة عبد الرحمن « المرأة المسلمة بين امس واليوم » ص ٧٥

(١٤) محمود شلقوت ، « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٢٢٧ .

على حياة المرأة من نوع الجزاء في الاعتداء على حياة الرجل : كما أن القرآن نزل واحداً في «سألة قتل الرجل خطأ ، وقتل المرأة خطأ » ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله » (١٦) وراضح أنه لا فرق في وجوب الدية بالقتل الخطأ بين الذكر والأنثى (١٧) .

وكذلك نجد أن القرآن الكريم لا يفرق بين الذكر والأنثى حينما حث الأبناء على البر بالوالدين « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين احساناً » (١٨) وإذا انتقلنا من القرآن الكريم إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نجد أنه ميز المرأة أكثر من الرجل ، فقد أجاب على سؤال أحد الرجال عن أحق الناس بحسن الصحبة فقال أمك ، وكررها ثلاث مرات ، ثم قال في الرابعة أبوك .

والواقع أن الإسلام لم يحرم المرأة من الحقوق المدنية : فأباح لها انتملك والتصرف فيما تملك ، وأباح لها توكيل غيرها فيما لا تريد مباشرته بنفسها وأباح لها أن تضمن غيرها وأن يضمها غيرها .

وهذه منزلة قد منحها الإسلام للمرأة باعتبارها إنساناً كاملاً الانسانية منذ أن أشرقت الأرض بنوره ، في حين أن المرأة الغربية في عصر الحضارة ، وحقوق الإنسان — كما يقولون — لم تصل إلى 'التمتع بهذا الحق' الإنساني الذي تمتعت به المرأة في ظل الإسلام (١٩) .

وإذا نظرنا إلى الحقوق التي منحها الله سبحانه وتعالى للمرأة في موضوع زواجها ، نرى أنها حقوق تثبت مدى تقدير الشريعة للمرأة ، وكيف أن لها حقوقاً قبل الزواج وفي فترة الزوجية ، وعند فسخ العلاقة بين الطرفين .

فإذا ما جاء المرأة دور زواجها وهي بالغة عاقلة ، فإن لها أن تختار الزوج الذي تريده اختياراً حراً ، على أن يشترك معها وليها بالرأي

(١٥) سورة المائدة آية ٤٥ .

(١٦) سورة النساء آية ٩٢ .

(١٧) شلتوت « المرجع السابق » ص ٢٣٧ .

(١٨) سورة الاسراء آية ٢٣ .

(١٩) سيد قطب « الإسلام ومشكلات الحضارة » ص ٦٦-٦٧ .

والمشورة فيمن تختاره . ولكن ليس له ان يجبرها على زوج معين وان اختار هو زوجها لا يتم زواجها به الا برضاها .

ويلزم الاسلام الزوج ان يقوم بتقديم مقيم صدق للمرأة ، ويعد منزل الزوجية ولا يحرم الاسلام ان تجهز المرأة بفاخر النياب والزينة ولا ان يزود منزلها بالثمين من الاثاث والمتاع قال تعالى « قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق » (٢٠) .

اما في مرحلة الزوجية ، فقد اعفى الاسلام المرأة من اعباء المعيشة، والقاهها جميعا على كاهل الرجل ، واحتفظ للمرأة مع ذلك بحقوقها المدنية كاملة غير منقوصة ، فللمرأة المتزوجة في الاسلام شخصيتها الكاملة وثروتها الخاصة المستقلتان عن شخصية زوجها وثروته ، ولا يجيز الاسلام للزوج ان يأخذ شيئا من مال زوجته قل او كثر (٢١) قال تعالى : « وان اردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن مئطرا فلا تأخذوا منه شيئا » (٢٢) وهذه المنزلة في المساواة بين الرجل والمرأة لم يصل الي مثلها بعد احدث القوانين في الأمم الديمقراطية المدنية (٢٣) .

وفي مرحلة الزوجية يعطى الاسلام الرجل الحق في انقواه على زوجته واسرته وقد بنى ذلك على سببين رئيسيين :

احدهما ان الرجل مكلف بالاتفاق على الأسرة ، ولا يستقيم مع العدالة في شيء ان يكلف فرد الانفاق على هيئة ما بدون ان تكون له القوامة عليها والاشراف على شئونها .

والسبب الثاني : ان المرأة مرهفة العاطفة ، قوية الانفعال ، وان ناحية الوجدان لديها تسيطر سيطرة كبيرة على مختلف نواحي حياتها النفسية ، وقد سوى الله المرأة على هذا الوضع حتى يكون لها طبيعتها مما يتيح لها القيام بوظيفتها الأساسية ، وهي الأمومة والحضانة على خير

(٢٠) سورة الاعراف آية ٣٢ .

(٢١) عبد الواحد وافي « نظام الأسرة في الاسلام » ص ١٦٧ .

(٢٢) سورة النساء آية ٢٠ .

(٢٣) سيد قطب « المرجع السابق » ص ٦٦ .

وجه ، فلا يخفى ان هذه الوظيفة تحتاج الى عاطفة مرهنة ووجدان رقيقاً
اكثر مما تحتاج الى التفكير والادراك والتأمل (٢٤) يشير القرآن الكريم
الى ذلك « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض،
وبما انفقوا من اموالهم » (٢٥) .

وقد حاول بعض المستشرقين ان يبنوا فكرة قوامة الرجل على
المرأة بفكرة التفوق Superiority ويجعل منه دلالة على نظرة الاسلام
الى وضع كل من الرجل والمرأة في الحياة ، فهو يسمو بالرجل الى ذرى
الرفعة بينما يهبط بالمرأة الى هاوية الضعة ، أما عن طاعة المرأة للرجل
فتعرض على انها نوع من الاذلال ، وسبب لفرض الرق والعبودية على
نصف البشرية الى غير ذلك مما يترتب على هذا الشرح المفرض (٢٦) .

ولابد ان نبين ان هذه الآراء جاءت من اجل تشويه الاسلام ، لان
الاسلام قد جعل قوامة الرجال في الأسرة قوامة رحيمة قائمة على المودة
والمحبة والارشاد ، وتقيدها بقيود كثيرة تحفظ للمرأة كرامتها ، وبذلك منح
المرأة مجال العلم ، ومجال العمل ، فقد تعلمت المرأة فعرفنا المرأة العاملة،
والأديبة ، والطبيبة ، والفقيهة ، والمتصوفة القائنة ، وما اليهن من كل
ما عرف مثله عن أخيها الرجل .

شهادة المرأة وميراثها :

يرى كثير من المستشرقين الأجانب أن المرأة في الاسلام قد أهدرت
انسانيتها ، لأنها ترث نصف حظ الرجل، كما أن شهادتها كذلك تعتبر نصف
شهادة الرجل ، وذلك في قوله تعالى « للذكر مثل حظ الأنثيين » (٢٧)
وقوله « فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان » (٢٨) .

والواقع ان السبب في تفضيل الرجل بالميراث انه مطالب بنفقات
المعيشة ومطالب بدفع المهر لزوجته، وعليه نفقتها وكسوتها وجميع ما تحتاج

(٢٤) عبد الواحد وافي « المرجع السابق » ص ١٧٠ .

(٢٥) سورة النساء آية ٣٤ .

(٢٦) محمد البهي « الفكر الاسلامي الحديث » ص ٥٣ .

(٢٧) سورة النساء آية ١٧٦ .

(٢٨) سورة البقرة آية ٢٨٢ .

اليه بالمعروف ببينها حتى أوجب الشداه رالحادمين • وأوجب عليه أن يدفع العدة اذا ما طلق زوجته • فهو اذا مطالب بنفقة على نفسه وأولاده، وعليها • ومكلف بوالديه وأقاربه • اذا كانوا ضعفا أو مفراء اذا فيماذا بتميز الرجل عنها ؟ الرجل مطالب بكل شيء والمرأة لانطالب بشيء (٢٦) •

أما موضوع الشهادة في قوله تعالى « ثمان لم يكونا رجيين فرجل وامرأتان » فليس واردا في مقام الشهادة التي يقضى بها أمام القاضي ويحكم وإنما هو وارد في مقام الإرشاد الى طرق الاستيفاء والاطمئنان على الحقوق بين المتعاملين وقت التعامل • فالمقام مقام استيفاء الحقوق لا مقام قضائي •

ليس معنى هذا ان شهادة المرأة الواحدة أو شهادة النساء اللاتي ليس مهين رجل لا يثبت بها الحق • ولا يحكم بها القاضي • فان أقصى ما يطلب القضاء هو البينة • وقد حقق العلامة ابن الجوزي ان البينة في الشرع أهم من الشهادة • وان كل ما يتبين به الحق ويظهره هي بينه يقضى بها القاضي ويحكم (٢٧) •

الاسلام وتعدد الزوجات :

لم تلق أي مسألة من مسائل الاسلام ملائمة هذه المسألة بالذات من طعن المستشرقين في الديانة الاسلامية فقد بثوا دعايات مسمومة ضد هذا الموضوع وحركوا الفكر الغربي • بل والفكر الشرقي لينظر في هذا الموضوع لأنه يعده امتهاناً لكرامة المرأة وأشعاراً لها بعدم أهميتها في الأسرة • وان ذلك يؤدي الى مشاكل اجتماعية وخيمة والى تشريد للأطفال والى قطع أواصر الرحمة والثراة ومن الآراء التي أمامي الآن رأى الكاتبة الألمانية « اليس ليختنستادتر » (٢٨) تقول « انه من الأمثلة التي طال بحثها واشتهر أمرها مثل النظام الذي يبيع تعدد الزوجات • فليس في البلاد الاسلامية ما عدا البلاد التركية قانون يحرم هذا النظام بحكم القضاء

-
- (٢٩) شلتوت « المرجع السابق » ص ٢٣٨ • محمد أبو زهرة « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٢٣٣ •
(٣٠) شلتوت « المرجع السابق » ص ٢٤٠ • أبو زهرة « نفسه » •
(٣١) عباس العقاد « ما يقال عن الاسلام » ص ٢١ •

السام أو القضاء الخاص بالأحوال الشرقية والمحاكمات الشرعية ، فلا يزال تعدد الزوجات عملاً مشروعاً في ج.ع.م والباكستان وإيران والعراق وأندونيسيا وأن العرف ليجته ، بتأثير القدوة العربية وتأثير متاعب تعدد الزوجات إلى النفور منه ، ويزداد هذا النفور مع الزمن ، فنظر المسلم المعاصر إلى البناء بأكثر من زوجة واحدة كأنه طراز عتيق ، وتخلق هذه النظرة بشيء من الترفع لأنه عمل يكاد أن ينحصر في الطبقة الرضيعة وأن المصلحين ليجدون السند الأقوى للاكتفاء بالزوجة الواحدة في آيات الكتاب إذ تدل الكلمات الأخيرة من الآية المشهورة في السورة الرابعة ، على أن الأزواج المفضل هو البناء بزوجة واحدة .

والحقيقة أن الإسلام سمح بتعدد الزوجات لأغراض عمرانية سامية وأغراض إنسانية نبيلة ، وأباح ذلك لضرورات حيوية لايسع مشرع حكيم إلا أن يقيم لوزنها أكبر وزن في تشريعها وخاصة إذا كان يشرع لجميع شعوب العالم كما هو الشأن في الإسلام .

فمن الأبحاث التي أقرها علماء الاجتماع أمثال جينزبرج وويستر مارك أن تعدد الزوجات كان النظام المتبع في الشعوب المتمدنية في حين كان نظام الزوجة الواحدة هو النظام المتبع عند الشعوب المتأخرة وأن الشعوب التي كانت تحرم الزواج بأكثر من واحدة ، إنما كانت تتبع تقاليد لا تتصل بالدين ، كما أن الشعوب التي أجازت الزواج بأكثر من واحدة ، إنما أجازته طبقاً لما رأت فيه من فوائد اقتصادية أو ديمرافية دون النظر إلى ذلك الدين ، فلم يرد في الإنجيل نص صريح يدل على تحريم الزواج بأكثر من واحدة ، وإن الإسلام في إباحته تعدد الزوجات قد أباحه في حدود بعينها وظروف حددها وبقيود تجعل من العسر الأخذ به إلا في حالات اضطرارية (٣٢) .

كما أنه ثبت من علم الإحصاء أن نسبة الوفيات من الذكور أكثر منها في الإناث وذلك من ساعات الولادة حتى أول مراحل الشباب الأمر الذي يؤدي إلى زيادة نسبة الأحياء من الإناث على الذكور وفي مرحلة الشباب

تظل النسبة ثابتة ، اذ يموت من الشبان اكثر من الشابات وذلك يرجع اولاً الى الحروب والى اخطار الأعمال التى يقوم بها الرجال فى المصانع والمعامل حيث نجد الوفيات بين الرجال اكثر منها بين النساء وكذلك فان كثافة الأعمال التى تسبب الامراض الخطيرة والموت المفاجيء والحوادث القاتلة يتعرض لها الرجال مثل رجال المطافئ والغواصون ورجال الانتقاذ ورجال الملاحه وغيرهم مما يجعل نسبة الأحياء من النساء اكثر من الرجال (٢٢)

واذا فرضنا جدلاً ان جيلاً من الأجيال انعدمت فيه الحروب والحوادث ونساوت نسبة الأحياء من الذكور والاناث فى العمر حتى مرحلة الشباب فان كل فتاة فى سن الزواج لن تجد الفتى الذى يلائمها فى العمر على درجة الاستعداد للزواج نسبة لتكاليف المعيشة والزواج (٢٤) .

وبمناسبة هذه الأسباب الإنسانية العامة التى تبرز نظام تعدد الزوجات كثيراً ما تظن على الحياة الزوجية أسباب خاصة تجعل التعدد ضرورة لازمة فقد تكون الزوجة عقيماً أصلياً أو قد تصاب بالعقم بعد زواجها ، فلا تحقق فى كلتا الحالتين أهم غرض من أغراض الزواج ، وقد نصح على اثر أصابته بمرض جسمي أو عصبي أو بعاهة غير صالحة للحياة الزوجية فى أخص شئونها وفى هذه الأحوال وأحوال أخرى كثيرة من نوعها ، يكون زواج الرجل بغير زوجته ضرورة لازمة لضمان الاستقرار العائلي ، وتحقيق الأغراض العمرانية من الزواج وللوقاية من الوقوع فى الرذيلة (٢٥) .

وقد أوجب الإسلام على الزوج فى حالة تعدد زوجاته ان يعدل بينهم واشترط على من يريد تعدد الزوجات ان يكون واثقاً بقدرته على هذا العدل وأمره فى حالة خشيته من الجور ان يقتصر على واحدة قال تعالى « وان خفتم الا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم الا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى الا تعدلوا » (٢٦) .

(٣٣) عبد الواحد وافي « الأسرة والمجتمع » ص ٤٣ .

(٣٤) عبد الرزاق نوفل « الإسلام والعلم الحديث » ص ٩٣ .

(٣٥) عبد الواحد وافي « نظام الأسرة فى الإسلام » ص ١٧٦ .

(٣٦) سورة النساء آية ٣ .

ولكن العدل الذى أمر الله به مقصور على الأمور التى يستطيع الرجل أن يعدل فيها بين زوجاته كالأموال المتعلقة بالمأكل والمشرب والملبس والسكن والمبيت والوقت الذى يقضيه الرجل مع كل زوجة من زوجاته أما الأمور التى لا يستطيع الرجل بحسب طبيعته البشرية أن يعدل فيها كالميل 'أنفسى والحب' ، وما يترتب على ذلك من آثار فى العلاقات الخاصة بين الزوج وزوجته ، فلا تدخل فى نطاق العدل المأمور به .

وهذا هو ما وضحه الكتاب الكريم اذ يقول « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ، وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان عفورا رحيفا » (٢٧)

ومعنى ذلك أن الرجل لا يستطيع سبيلا الى العدل المطلق بين زوجاته مهما حرص على تحقيقه ، لأن ثمة أمورا لا سلطان للإنسان عليها كالحب والميل النفسى فلا يستطيع تبعا لذلك سبيلا الى العدل فيها بحسب طبيعته البشرية ، وليس الرجال مكلفين بالعدل فى هذه الأمور لأن البشر لا يكفون الا ما يستطيعون القيام به ، وهم مكلفون بالعدل بين زوجاتهم فيما يستطيعون العدل فيه (٢٨) .

المرأة المسلمة والطلاق :

يعتبر موضوع الطلاق من الموضوعات الهامة التى بدأ الغرب يصوب اتهاماته نحوها ، ويذكرون أن المسلمين يستخدمون هذا الشريح الإلهى أسوا استغلال ، ويتزوجون النساء ويطلقوهن بدون أسباب أو مبررات ، مما أدى الى تدهور الحياة الاجتماعية بين الشعوب الإسلامية .

والحقيقة أن الاسلام شرع الطلاق من أجل استقرار حياة الإنسان لأن كثيرا ما يحدث فى هذه الحياة ما يقتضى الطلاق ، بل ما يجعله ضرورة لازمة ووسيلة متعينة للاستقرار العائلى والاجتماعى .

ولسكن الاسلام لم يبحه على الاطلاق ، بل قيده بقيود تكفل تحقيق

(٣٧) سورة النساء آية ١٢٩ .

(٣٨) محمود شلتوت « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ١٨٤ .

المصالح العام وصالح الأسرة نفسها ، وسكفل تحقيق التوازن فى حقوق كل من الزوجين وواجباته والمساواة بين كفيهما فى هذه الشؤون .

ولذلك بغض الاسلام الناس فى الطلاق ، وصوره فى ايشع صورة ، وحث المسلمين على اتقائه ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، وفى هذا يقول الرسول عليه الصلاة السلام « أبغض الحلال الى الله الطلاق » (٣٩) « تزوجوا ولا تطلقوا ، فان الطلاق يهتز له عرش الرحمن » (٤٠) .

ولم يكتف الاسلام بهذا الزجر وهذا الوعيد ، بل اتخذ من النظم فى شؤون الأسرة مايكفل تحاشي الطلاق الاسباب قوية قاهرة .

فقرر أنه لا يصح الالتجاء الى الطلاق لأسباب يمكن علاجها أو لأمر يمكن أن تتغير فى المستقبل أو لا تحول بطبيعتها دون استقرار الحياة الزوجية على وجه ما . وحتى الأمور التى تتعلق بعاطفة الزوج نحو زوجته أو بكراهيته لبعض أحوالها لا يعدها الاسلام من مبررات الطلاق .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى « وعاشروهن بالمعروف ، فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » (٤١) .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم « لا يفرك مؤمن مؤمنة ان كره بها خلقا رضى منها آخر » (٤٢) .

ومن النظم التى تقررهما الاسلام لتحاشي الطلاق أنه أمر الزوجين عندما يحدث بينهما شقاق أو نفور أن يعملوا على ازالته باثارة دواعى الرحمة والوئام (٤٣) وفى هذا يقول الله تعالى « وان امرأة خافت من بعلها نشوزا

(٣٩) رواه البخارى باب الطلاق .

(٤٠) ذكره الكاسانى فى كتابه « بدائع الصنائع » باب الطلاق .

(٤١) سورة النساء آية ١٩ .

(٤٢) رواه مسلم فى صحيحه .

(٤٣) عبد الواحد وفى « نظام الأسرة فى الاسلام » ص ١٨٤ .

أو اعراضا . فلا جناح عليهما ان يصلحا بينهما صلحا والصلح خير » (٤٤) .

ومن النظم التي قررها الاسلام كذلك لتحاشى الطلاق . انه اوجب على الزوجين اذا لم يستطيعا ان يصلحا ما بينهما بنفسيهما وبوسائلهما الخاصة ان يعرضا امرهما على مجلس عائلى يتألف من حكيم ، حكم من اهل المرأة ، وحكم من اهل الرجل ، اى من رجلين لا يرى كمالا الزوجين غضاضة فى الافضاء اليهما بذات نفسيهما وبأسباب شقاقتهما ،

وهما يعملان على بحث اسباب الشقاق والنوفيق بين رغباب الزوجين حتى يحل الصفاء والوثام (٤٥) .

يقول الله تعالى « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من اهله وحكما من اهلها ان يريدوا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليما خبيرا » (٤٦) .

ومن الأمور التي قررها الاسلام لنحاشى الطلاق انه قد رتب عليه من الناحيتين المالية والاجتماعية نتائج خطيرة والتي بسببه على كاهل الزوج أعباء ثقيلة . وان من شأن هذه النتائج والأعباء ان تحمل الزوج على ضبط النفس وتدبير الأمور قبل الطلاق . فتد قرر أنه يجب على الزوج اذا طلق زوجته ان يوفئها مؤجل صداقتها ويقوم بنفقتها من مأكـل وشرب وملبس ومسكن مادامت فى العدة . وتكون حضانة اولادها الصغار لها ولقربانها حتى يكبروا ، ويقوم بنفقة اولادها منه واجور حضانتهم ورضاعتهم ، حتى لو كانت الأم نفسها هى التى تقوم بذلك (٤٧) قال تعالى « فان اضعن لكم فآتوهن اجورهن » (٤٨) .

فاذا لم يستطع مجلس التحكيم أن يوفق بين الزوجين ، ولم تجد الوسائل السابقة جميعا ، ولم تثن الزوج عن عزمه على الفرقة كان فى ذلك دليل على قيام حالة خطيرة تهدد استقرار الأسرة .

(٤٤) سورة النساء آية ١٢٨ .

(٤٥) شلتوت المرجع السابق ص ١٦٨ .

(٤٦) سورة النساء آية ٣٥ .

(٤٧) عبد الواحد وافى « نظام الأسرة » ص ١٨٦ .

(٤٨) سورة الطلاق آية ٦ .

عندئذ يجيز الاسلام للزوج الطلاق لمصلحة الأسرة ، ولتحقيق الصالح العام .

وحتى في هذه الحالة قد احاط الاسلام للامر فوضع لالطلاق نظاما تتيج للزوج في اثناء استراءات الفرقة فرصة طريفة لراجع نفس. ويعدل عما شرع فيه . ان كان نمة سبيل للابقاء على الحياة الزوجية فأباح للزوج ان يراجع زوجته بعد كل من الطلاقين الأولين .

فاذا تكرر الطلاق مرة ثالثة كان ذلك دليلا على ان الحياة الزوجية قد أصبحت غير محتملة بين الزوجين وانهما حاولا جبرا اختل عليهما نظامهما، فحينئذ يقرر الاسلام الفرقة بينهما نهائيا ، ولا تحل له بعد ذلك حتى تنمحي آثار العقد الأول والحياة الزوجية الأولى انمحاء تاما ذلك لا يكون الا اذا تزوجت من شخص آخر ، وانتهى الأمر بطلاقها منه طلاقا عاديا ، وراى كلاهما بعد هذه المدة الطويلة ، وبعد تغير الأحوال على هذا الوجه انه من الممكن استعادة الحياة الأولى على وضع 'وم وأمثلة (٤٩) .

وفي هذا يقول الله تعالى « الطلاق مرتان فامسك بمعروف أو تسريح باحسان » (٥٠) الى ان قال « تلك حدود الله فلا تعتدوها » ومن يتعد حدود الله فاولئك هم الظالمون » (٥١) فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ، فان طلقها هذا الزوج طلاقا عاديا « فلا جناح عليهما ان يتراجعا ان ظننا ان يقيما حدود الله ، وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون » (٥٢) .

هذا ولم يدخر الاسلام وسعا في احاطة المرأة المطلقة بعطف كريم ورعاية كريمة وفي العمل على حفظ حقوقها وحمايتها من الأضرار بها ، وذلك بما سنه من نظم رشيدة في النفقة والحضانة والعدة والأرضاع وطرق ايقاع الطلاق وزمنه وما الى ذلك .

هذه هي تعاليم الاسلام والسمة التي تعمل على المحافظة على الأسرة

-
- (٤٩) المرجع السابق ، ص ١٨٧ .
 - (٥٠) سورة البقرة آية ٢٢٩ .
 - (٥١) سورة البقرة آية ٢٢٩ .
 - (٥٢) سورة البقرة آية ٢٣٠ .

غوية متماسكة منجوبة . فإذا اختل بناؤها وتماسكها أوجد الدلول ، فإذا عجزت أوجب الطلاق كما رأينا إيعيد البناء والتماسك .

وإذا كانت هذه القضية قد شغلت بال الغرب ، وبدأوا يتخذونها مادة لهجومهم على الإسلام . لذلك آثرت أن أتى برد على هذه الاتهامات من قبل مستشرق انجليزي منصف من رجال القانون يسمى مستر بننام فى كتابه « اصول الشرائع » وفيه ينقد النظام الكنسى المسيحى الذى يمنع الطلاق ، جاء فيه « حقا ان الزواج الابدى هو الالىق بالانسان والملائم لحاجة ، والأوفق لأحوال الأسرة ، والأولى الأخذ به ، ولكن ان اشترطت المرأة على الرجل ألا تنفصل عنه ، حتى لو حلت فى قلبيهما الكراهية الشديدة مكان الحب والثقة لكان ذلك أمرا منكرا لا يستسيغه أحد من الناس ، على ان هذا الشرط موجود بدون ان تطلبه المرأة ، اذ القانون الكنسى يحكم به ، فيتدخل بين العاقدین حال التعاقد ويقول لهما ، أنتما تقتربنا لتكوبا سعيدين ، فلتعلما أنكما تدخلان سجنا سيحكم غلق بابيه ، ولن أسمح بخروجكما ، وان تقتلتما بسلاح العداوة والبغضاء (٥٣) .

ويعلق المستر بنتام على هذا بقوله « ولو كان الموت وحده هو المخلص من زواج هذا شأنه لتنوعت صنوف القتل ، واتسمت مذاهبه ، ولكن لحسن الحظ استحدث المسيحيون من القوانين مايفتح لهما ابواب الطلاق ، ويعفيهم من أن يلجأوا الى القتل أو الانتحار للخروج من هذا السجن » (٥٤) .

لذلك رأينا ان القوانين الوضعية فى الغرب بدأت تشرع الطلاق لتقضى على كثير من الانهييار والفساد الذى عم الأسر الغربية ، ولكن جميع هذه الحالات من الطلاق لا ترضى عنها الكنيسة ، ولكنها تقف صامتا أمامها ، فنجد أن آلاف من حالات الطلاق وزواج المطلقين والمطلقات الذين يعدون فى نظر الكنيسة زناه ، تحكم بها المحاكم الأوربية والأمريكية . وتنفذها الهيئات المدنية فى مختلف شعوب الغرب المسيحى على مرأى من الكنيسة ومسمع من رجال الدين ، دون أن تحرك ساكنا .

(٥٣) منير البعلبكي « دفاع عن الإسلام » ص ١٢٥ .
(٥٤) المرجع السابق .

الرق في الاسلام :

يذكر الاستاذ عباس العقاد في كتابه « ما يقال عن الاسلام » ان مسألة الرق في الاسلام موضوع حملة من اقوى الحملات العصرية يقامر عليها الذين لايتفقون على شىء فيما عدا هذه الحملات وهم الماديون المنكرون للاديان وجماعات المبشرين الذين يحترفون صناعة الدعوة الى هذا الدين او ذاك (٥٥) .

والواقع ان الرق كان امرا شائعا منذ قديم الزمان ، ولم يذكر التاريخ بداية استعباد الانسان لأخيه الانسان واسترقاقه الا انه عرف ان الهند كانت من قديم الزمان تعيش على الحكمة التى تقول « من ليس برهميا فهو عبد للبرهمي » كما أن الفراعنة بنوا الأهرام بسواعد الرقيق (٥٦) .

والرق كان معروفا عند جميع الأمم القديمة خاصة عند اليونان والرومان ، كما أن التوراه اباحت الاسترقاق بطريق الشراء او سبيا في الحرب ، وكذلك المسيحية ، فقد سمحت بالرق ، ويؤكد ذلك قول توما الأكويني في أن الرق حال من الحالات التى خلق عليها بعض الناس بالفطرة الطبيعية ، وليس مما ينساقض الايمان أن يقنع الانسان من الدنيا بأهون نصيب (٥٧) .

وقد انتشر الرق عند العرب قبل الاسلام انتشارا كبيرا ، وكانت الحروب التى لا تنقطع فى الجزيرة العربية ، وكان الغالب يأسر من المفلوبين من يستطيع ليصبحوا عبيدا ، ومن وسائل الرق عند العرب القوة فاذا قابلت قبيلة قوية قبيلة ضعيفة استسلمت القبيلة الضعيفة للقوية ، وخضعت لها واصبح أفرادها عبيدا .

ومن وسائل الرق عند العرب الهجوم السريع ، فالشخص الذى يوشى وحده أو الجماعة من الناس التى تمشى نون أن تستطيع حماية نفسها كانت عرضة للخطف نتيجة هجوم سريع فيصبحون بذلك عبيدا (٥٨)

(٥٥) عباس العقاد « ما يقال عن الاسلام » ص ١٥١ .

(٥٦) أحمد زكى « الرق في الاسلام » ص ٩٨ .

(٥٧) العقاد « حقائق الاسلام واباطيل خصومه » ص ٢١٥ .

(٥٨) أحمد شلبى « مقارنة الأديان » ص ٣٣٥ .

والرقيق يعتبر مملوكا لسيدته اذا اشتراه كمتاعه ، له الحق فى بيعه أو قتله واذا كانت أننى فله ان يستمتع بها كيف شاء ، وليس للرقيق قبل سيده ولا قبل المجموعة . ولا الدولة أى حق ، بل عليه كل الواجبات مشروعة أو غير مشروعة كانت فى الاستطاعة أم لم تكن ، بل بلغ من الانسخاف بأمر هؤلاء الرقيق أن كانت الفلاسفة والحكماء بقررون أن ارواح الرقيق غير خالدة (٥٩) .

وجاء الاسلام الذى صوره المستشرقون على أنه أباح الرق . وأباح استرقاق الأسرى وقتلهم ، كما أنه جعل هذا النظام نظاما مشروعا . فهذا كتاب يحمل اسم « الاسلام فى اثيوبيا » يقول كاتبه « وتجارة الرقيق ، وما تدره من أرباح تفوق حد التصور . تغرى كثيرين على احترامها . ولهذا اشتغل بها عدد كبير من العرب . فيمكننا اذن أن نتصور العدد الكثير من العرب الذى اشتغل بهذه التجارة ، وكون المراكز التجارية الكبيرة والصغيرة ، واستقر فى هذه المراكز المنتشرة بين قرى شرق افريقية صغيرة وكبيرة » (٦٠) .

وهكذا يحصر مؤلف هذا الكتاب تجارة الرقيق فى العالم كله فى افريقيا ، ثم يحصرها فى العرب ، كأن الرقيق لم يكن يسود العالم كله .

ثم يستطرد فيقول : « ولكن الاسلام وحد بين العرب وحد من خصوماتهم ، وأوقف غزواتهم التى كانوا يشنونها على بعضهم ، كما حرم أن يسترق مسلم مسلما وبذلك نقص مورد من موارد الرقيق الذى كان يعتمد عليه العرب فى حراسة قوافلهم وزراعة أرضهم وخدمتهم وليس هناك من مكان يستطيع أن يسد هذا النقص سوى الساحل الأفريقى للبحر الأحمر ، وما يسكنه — من مورد لا ينقطع — من شعوب سوداء » (٦١) .

وبذلك يعتمد المؤلف الى الوقعية بين المسلمين والأفريقيين الذين يريدون اعتناق الاسلام .

(٥٩) المرجع السابق .

(٦٠) عبد الكريم الخطيب « الاسلام فى مواجهة الملحد والماديين »

ص ١٦٣ .

(٦١) المرجع السابق .

والحقيقة التي لا شك فيها أن الإسلام حرر البشرية من عبودية الرق ، وأوصى بتحرير الرقيق ، وكما هي سنة الإسلام بعدم الأخذ ببدا الطفره فقد عالج مشكلة الرق بمحاولة الغائها على مراحل ، لأن المجتمع العربى كان يعترف بهذا النظام ويسير عليه ، ومن الصعب أن يجيىء الإسلام ويلغى هذا النظام ويحرر جميع العبيد الموجودين فى العالم الإسلامى دفعة واحدة مما يؤدى الى ثورات السادة الكبار ، وتخلخل المجتمع وخلق مشكلة جديدة ازاء هذه الفئة المحررة .

لذلك قضت الحكمة الالهية بأن يتدرج الالفاء ، ورسمت له خطة محكمة تتألف من النقاط التالية :

١ — لا يرد فى القرآن الذى هو النصوص الأصلية الأساسية ، أى فصل يدل على الأمر بالاسترقاق أو اتخاذ الاماء سرارى ، ان كان ذلك لا يمنع أن يتحدث القرآن عن هذا حديث من يعرفه ويقره كواقع ويرتب الأحكام التشريعية على أساس واقعته التى تقضى الحكمة بأن تترك مؤقتا (١٢) .

٢ — تتكفل النصوص من الكتاب والسنة ببيان أن الرق واقع مكروه ، وتشريع مايكفل تصفيته من العتق فى مناسبات متعددة ، لما عرض فى سوق المعارضات مايسع كل من فى يدهم رقيق ليحرره وليأخضوا العوض المجزى لهم ، من صور تلك المعاوزات .

(أ) العوض المالى :

وذلك بأن يشتري العبد نفسه من سيده ، ومالك رقبته نظير مال يتفقان عليه ، فان اتفقا على الثمن المطلوب ، أعطى السيد عبده كتابا بهذا يحدد فيه المال الذى كاتب عبده عليه ، ويسمى الرقيق نى تلك الحال مكاتباً ، لايتحرر من الرق حتى يؤدى المال الذى كوتب عليه . وقد دعا الإسلام الى هذه المكاتبه ، وجعلها أمرا ملزما لمالك الرقيق اذا طلب

محمد المدنى « المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء »

الرقب من ذلك منه فقال تعالى « والذين يبتغون السكاتب مما ماكت ايمانكم فمكاتوهم ان علمتم غيبهم خرا » (٦٣) وهى دعوة الى مالك الرقيق ان ينظر فى حاله ، وأن يتحرى قدرته على الحياة ، اذا هو تحرر من أسر الرق ، فان بعض الأرقاء قد أفسد الرق وجودهم الإنسانى وفى خروجهم من يد بائعهم ذىاع لهم .

ولما كان الرقيق المكاتب لا يملك مالا ، فقد جاء أمر الاسلام لى المسلمين أن يخفوا لمساعدته ، وتخليصه من قيد الرق بتقديم المال المطلوب منه فقال تعالى « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » (٦٤) وقال سبحانه « ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والسكاتب النبیین ، وآتى المال على حبه ذوى القربى والیتامى والمساكين وابن السبیل ، والسائلین ، وفى الرقاب » (٦٥) .

وقال جل شأنه « فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو اطعام فى يوم ذى مسنغة ، يتيما ذا مربة أو مسكينا ذا مربة » (٦٦) .

ولم يكتف الاسلام فى شأن الرقيق المكاتب بهذا ، بل جعل فى الزكاة المفروضة فى مال أصحاب المال من المسلمين نصيبا لىؤلاء المكاتبين ، فقال تعالى « انما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعلمین علیها والمؤلفه تلوبهم ، وفى الرقاب والغارمین وفى سبیل الله وابن السبیل ، فريضة من الله » (٦٧) .

(ب) العوض بما يقابل المال والجهد :

وهناك أعمال ارتكبها المسلم مخالفا غيبها شريعة الله ، فاذا أراد أن يكفر عنها كان كفارة ذلك مالا بنفقته فى سبيل الله ، وعبدا يعتقه أو

- (٦٣) سورة النور آية ٣٣ .
- (٦٤) سورة النور آية ٣٣ .
- (٦٥) سورة البقرة آية ١٧٧ .
- (٦٦) سورة البسلة آية ١١ — ١٦ .
- (٦٧) سورة التوبة آية ٦٠ .

أياماً معدودات يصومها فمن ذلك : الحنث فى اليمين وكفارته كما يقول القرآن « اطعام عشرة مساكين من أوسط ماتطعمون اهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة إيمانكم إذا حلفتكم » (٦٨) .

وهناك القتل الخطأ : وكفارته كما نص القرآن الكريم « ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا . فإن كان من قوم عدو لكم ، وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة . وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق ، فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين » (٦٩) .

وهناك الظهار ، وهو أن يقول الرجل لزوجته « أنت على كظهر أمى ، يريد تطليقها وتحريمها بهذا البدع من القول ، وفى هذا يقول الله تعالى « والذين يظاهرون من نسائهم ، ثم يعودون لما قالوا ، فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلك توعدون به ، والله بما تعملون خبير ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً » (٧٠) .

فهذه ثلاثة وجوه ملزمة للمسلمين ، فتحها الاسلام لتحرير العبيد من أسر العبودية ، وقد كان لهذه الوجوه اثر ظاهر فى تحرير أعداد لاحصر لها من الرقيق (٧١) .

٣ - يقصر الاسلام مورد الرزق على الأسر فى حرب لاعلاء كلمة الله تعالى ، وفى هذه الحرب لا يجوز للمسلمين أن يتخذوا أسرى حتى يثخنوا أى حتى يظهروا فيها ، وتعلوا كلمة الحق والتوحيد ، وإذا اثخنوا فى حرب وانتصروا كان لهم أن يأسروا حينئذ ، ثم كان لأولياء الأمر الخيار المقرر بقوله تعالى « فاما منا بعد واما فداء » أى فاما أن تمنوا عليهم منا ،

(٦٨) سورة المائدة آية ٨٩

(٦٩) سورة النساء آية ٩٢

(٧٠) سورة المجادلة آية ٣ ، ٤

(٧١) عبد الكريم الخطيب « الاسلام فى مواجهة الماديين الملحدين »

فتطلقوهم تفضلا عليهم واحسانا بغير مقابل ، واما ان تتخذوا منهم فداء اى تطلقوهم بمقابل ، وعلى هذا فلا ذكر صراحة للاسترقاق ، وانما يتكلف بعضهم فيجعل الاسترقاق داخلا فى المن لان المن اما ان يكون كاملا باطلاقهم دون اى مقابل ، واما ان يكون جزئيا باعفائهم من القتل مع استرقاقهم ، وبعضهم يحاول ادخال الاسترقاق تحت الفداء فيقول ان فداء حياتهم اما ان يكون بمقابل ما يبذلونه او بنفس الاسير حيث يستعبد ويسترق ثمنا لابقائه حيا دون قتله (٧٢) .

والخلاصة التى تنتهى اليها ان هذا النص هو الوحيد المتضمن حكم الاسرى وسائر النصوص تتضمن حالات اخرى غير حالة الاسر : وانه هو الاصل الدائم للمسألة ، وما وقع بالفعل خارجا عنه كله لمواجهة حالات خاصة واوضاع وقتية ، فقتل بعض الاسرى كان فى حالات فردية يمكن ان يكون لها دائما نظائر ، وقد اخذوا بأعمال سابقة على الاسر ، لا بمجرد خروجهم للقتال ، ومثال ذلك ان يقع جاسوس اسيرا فيحاكم على الجاسوسية لا على انه اسير ، وانما كان الاسر مجرد وسيلة للقبض عليه .

ويبقى الاسترقاق الذى كان لمواجهة اوضاع عالمية قائمة ، وتقاليد فى الحرب عامة ، ولم يكن ممكنا ان يطبق الاسلام فى جميع الحالات النص العام « فاما منا بعد واما فداء » فى الوقت الذى يسترق أعداء الاسلام من يأسرونهم من المسلمين ، ومن ثم طبقه الرسول صلى الله عليه وسلم فى بعض الحالات فأطلق بعض الأسارى منا ، وفادى ببعضهم أسرى المسلمين ، وفادى بعضهم بالمال وفى حالات اخرى وتمع الاسترقاق لمواجهة حالات قائمة لاتعالج بغير هذا الاجراء (٧٣) .

تلك هى الخطة التى وضعها الاسلام لتصفية الرق ، وتضييق مداخله وتوسيع مخرجه ، ولا ينبغى ان يؤخذ الاسلام بفعل المسلمين ، فيما بعد حينما كان الاسترقاق خارجا على هذه الخطة ، وكان الخلفاء من أمويين وعباسيين وغيرهم من الاغنياء يتخذون السرارى بغير تقييد ،

(٧٢) المدنى « المجتمع الاسلامى كما تنظمه سورة النساء » ص ١٤٨ .

(٧٣) سيد قطب « فى ظلال القرآن » ج ٦ ص ٣٢٨٥ .

بل بتوسع واسراف فان ذلك كله مناف لروح الاسلام ، وان ادخل على النصوص بالاراء والأقوال وتأويل الرجال .

وقد رأينا فيما ذكرناه من آيات أن الأرقاء قد فتح الله امامهم باب العتق لأن الاسلام يعتبر أن الرق ماهو الا امرأ عارضا .

أما موقف الاسلام من الأرقاء في حالة استرقاقهم فقد كان موقفا كريما أصيلا .

فقد ذكرت أحاديث كثيرة للرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن منها جاء في الحديث « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين » ذكرتهم « ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاها ثم أدبها فأحسن تأديبها ، ثم اعتقها وتزوجها » (٧٤) وقوله صلى الله عليه وسلم « من لطم مملوكا له أو ضربه فكفارته عتقه » (٧٥) وقوله صلى الله عليه وسلم « الا أنبئكم بشراركم ؟ قالوا نعم يا رسول الله ، قال من أكل وحده ، ومنع رغبة ، وجلد عبده » (٧٦)

وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرقيق حيرا قال : « اتقوا الله في الضعيفين المرأة والرقيق » (٧٧) .

ويؤيد هذا الكلام مستشرق هو ستانلى لين بول وهو يتحدث عن الأرقاء بأسبانيا عقب الفتح الإسلامى للاندلس قال : أما فرج العبيد بما طرا على نظام الحكم من التغيير فقد كان عظيما حقا ، بعد أن لاقوا من ضروب العنف والقسوة من القوط والرومان ماتقشعر له الأبداء ، فان الرق في رأى المسلمين نظام انساني رقيق ، حتى أن النبي « صلى الله عليه وسلم » حينما لم يجد بدا من الإبقاء على هذا النظام العتيق الذي يعارض مبادئ الاسلام بذل كل جهد لتخفيف ويلاتة في كثير من الوصايا والأحاديث (٧٨) .

(٧٤) رواه البخارى ج ٨ .

(٧٥) رواه مسلم وابو داود .

(٧٦) رواه الطبرانى .

(٧٧) رواه ابن ماجه .

(٧٨) لين بول « العرب في أسبانيا » ص ٤٠ .

ونرى مصداقاً لجميع هذه الآراء ما عرضه المستشرق جوستاف لوبون بقوله « واعترف جميع السياح الذين درسوا الرق في الشرق درساً جيداً بأن الضجة المغرضة التي أحدثها حوله بعض الأوروبيين لا تقوم على أساس صحيح ، وأحسن دليل يقال تأييداً لهذا هو أن الموالى الذين يرغبون في التحرر بمصر ينالونه بإبداء رغبتهم منه أمام أحد القضاة ، وأنهم لا يلجأون إلى حقتهم هذا » . قال المسيو اير مشيراً إلى ذلك « يجب عد الرقيق في الإسلام منجوتاً على قدر الإمكان » (٧٩) ويذكر السير توماس ارنولد ، ما يؤكد كلامنا هذا بقوله « كان للرقيق كما كان لسائر المواطنين حقوقهم ، بل قيل أنه كان للعبد أن يقاضى سيده إذا أساء معاملته وأنه إذا تحقق القاضى من اختلاف طبيعتهما اختلافاً بينا إلى حد تعذر الاتفاق بينهما ، فله أن يرغم السيد على بيعه » (٨٠) .

وقد أوصى الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم بحسن معاملة الرقيق « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ، وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصالح بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم » (٨١) .

ويقول الأستاذ العقاد في هذا الموضوع (٨٢) « إن الأديان جميعاً قبل الإسلام أباحت الرق ، والزمّت الأرقاء طاعة سادتهم وتسخيرهم في خدمتهم وخدمة ذويهم واعتبره بعض الدعاة قضاء مبرماً يعاقب به الخالق من يعصونه من خلقه ويضلون عن سبيله ، فشرع العتق ولم يشرع الرق ، وقد ندب المسلمون إلى فك الأسار عن الأسرى فجعله فريضة من التكفير عن ذنوب كثيرة .

أوجب الإسلام قبول الفداء مع استحسان فك الأسار بنقير فداء وفرض تحرير الرقاب على من يقتل خطأ ، ومن يحنث في يمينه ، ومن بظاهر من زوجه ، ومن يؤدي الزكاة في مزارعها ومنها غدية الرقاب .

-
- (٧٩) جوستاف لوبون « حضارة العرب » ص ٣٧٧ .
(٨٠) توماس ارنولد « الدعوة إلى الإسلام » ص ٢٠٠ .
(٨١) سورة النساء آية ٣٦ .
(٨٢) عباس العقاد « ما يقال عن الإسلام » ص ١٥٤ .

ولم يبق الاسلام من قيود الرق الا ما هو باق الى اليوم سائق الدول وسيبقى بعد اليوم الى ان يشاء الله .

فالقوانين الدولية اليوم تبيح تسخير الأسرى واعتقالهم الى ان يتم الفداء بتبادل الأسرى او يبذل التعويض الذى تفرضه الدولة الغالبة . وقد تأخرت دول الحضارة أكثر من عشرة قرون قبل ان تنتظم ببيامعاملات الحرب على هذا النظام الذى شرعه الاسلام . وأوجبته على الدولة الاسلامية ، وهى تتولى صرف الزكاة « فى الرقاب » .

فاذا كانت الدول غير الاسلامية ، لم تعرف لها نظاما نفعه لإطلاق اسراها من الرق ، فهى المسئولة عن هذا التقصير ، وليس على الاسلام . ار الدولة الاسلامية ملزمة فيه ، وقد نعود الى الواقع من تاريخ الحرب بين الدول الاسلامية ، وغيرها فنسلم ان هذه الدول الأخرى قد تعلمته من المسلمين نظام تبادل الأسرى وتحرير الأرقاء منذ اشتبكت بالحروب بين حكومات الروم فى آسيا الصغرى ، وحكومات المسلمين التى تجاورها . ولو وجدت شريعة الفداء عند حكومات القرن السابع للميلاد ، كما وجدت عند الحكومة الاسلامية لتقدم العالم كله فى قضية الأسير والرق أكثر من عشرة قرون .

ولنسأل أدعياء التحرير فى العصور الحديثة ، ماذا يحدث فى هذا العصر . لو لم يصبح تبادل الأسرى معاملة متفقاً عليها بين المقاتلين ؟ ماذا تصنع كل دولة بأسراها فى ميادين القتال ؟ هل تمنعهم من العمل ؟ هل تعامل أعداءها المأسورين معاملة المواطنين أصحاب الحقوق ؟ هل تطلقهم وتبقى جنودها المأسورين عند أعدائها ؟ هل تصنع بهم ما نبيها أكرم من صنع الاسلام يوم أوجب على المسلمين ان يمنوا بالتسريح او يقبلوا الفداء والعق أو يوجبوه فى مقام التكفير والاحسان .

ان صنيع الاسلام الذى أوجبته قبل أربعة عشر قرناً هو غاية ما تستطيعه دول الحضارة اليوم فى انصاف اسراها واسرى أعدائها ، فأما ان يكون ، ولا كيف يأتى لنظام من النظم الدولية أن يستقر عليه .

على أن دول الحضارة لم تدرك فضيلة الدين الاسلامى ، تشريعات الرق ، استثناء دولة منها فى أحدث تشريعاتها الإنسانية كما تسهوا ، أما

الإسلام فقد أنصف الأرقاء ابتداء بغير اضطرار الى الأنصاف انقضاء لثورة سياسية أو منازعة اقتصادية أو أزمة من أزمات الحروب والاستعداد بالسلاح .

ان اول خطوة من خطوات الحضارة الحديثة الى تحرير الأرقاء جاءت على اثر النزاع بين اصحاب الصناعات الكبرى في بلاد تنفق الأجور النافرة على الصناع ، وبين اصحاب الصناعات حيث تدار بأيدي الأرقاء ، ولا تنفق عليها أجور ، فان اصحاب الأموال والصناع معا حاربوا الرق ليحاربوا هذه المنافسة ، واستجابوا لداعى المنفعة قبل ان يستجيبوا لداعى الكرامة الانسانية .

ثم جاءت الخطوة الثانية يوم احتاجت الدول الى العبيد لتجنيدهم أو لصنع السلاح في غيبة المجندين ، فخطبت ودهم بمنحهم حقوق الانتخاب والتصويت ، وجاءت بعدها آخر الخطى يوم نهضت القارة الأفريقية نهضتها تحررت شعوبها من سادتها وخاف أولئك السادة أن يسببهم السود الى معسكر أعدائهم في سباق التنافس على التحرير واجتذاب قلوب المستضعفين الى هذا الفريق أو ذاك الفريق ، فلما وصلت الحضارة الأوروبية الى هذا المدى بعد طول التعثر والمحال ، لم تكن قضية الرق عندها قضية سماحة وأنصاف وكذا كانت ولا تزال قضية مساومة واضطرار وحيلة من حيل السياسة والإدارة ، وخطة من خطط التأخير والاستغلال .

والفارق الأكبر في مسألة الرق من جانب الواقع التاريخي هو ذاك الفارق الذي تحصيه الأرقام بالحساب بين عدد الأرقاء في البلاد الإسلامية وعددهم في البلاد الغربية حيث يعيشون اليوم بين الأمريكتين ، فان الأرقاء من الزوج لم يزدوا في البلاد الإسلامية — بعد ثلاثة عشر قرناً — على ثلاثة ملايين أو نحو هذا العدد القليل بالقياس الى سعة البلاد وطول الزمان واقتراب المكان ولكن عدد السود في الأمريكتين قد يبلغ العشرين مليوناً ولمس لم يمض على قيسام الحكم الأبيض هناك أكثر من ثلاثة قرون . وبعد من هذا الفارق في العدد فارق في المعاملة التي لقيها الأرقاء في البلاد الإسلامية والمعاملة التي لقيها اخوانهم في الأمريكتين ، فلا وجه للمقارنة بين المساواة في النسب والمصاهرة ، وحقوق الدم والمال وبين

تحريم المساكنة والمصاهرة ، واستباحة الدم انتقاماً من الأسود الذى يرفع
هذه الحواجز بينه وبين سادته البيض .

ان مسألة الرق تصلح للدعاية الواسعة بين الناشئة الاسلامية
والأمم الأفريقية التى تتحرر من قيودها وتتلمس سبيلها الى عقيدة مثلى ،
وحضارة يصلح لها وتخاطبها بما يقنعها ، ولكنها دعاية للاسلام ، وليست
بالدعاية التى يحارب بها الاسلام ، فاذا انعكست الآية ، وذهب بها
سماسرة المادية والتبشير مذهب الحملة الشعواء على الاسلام ، بمسمع
ومشهد من المسلمين ، فمن ذا يلام على ذلك غير أولئك المسلمين « (٨٣) » .

الفصل الخامس

الإسلام والعلوم الحديثة

الإسلام والعلوم الحديثة

يعجب المسلم عندما يقرأ ما كتبه الغربيون المستشرقون عن الإسلام والمسلمين وموقفهم من العلوم العلمية .

فهذا هو المسيو رينان أحد أعضاء جمعية المعارف بفرنسا في جامعة السوربون ببافيس (١) يكتب مقالا عن دين الإسلام والعلم ، وفيه نرى افتراءات واكاذيب وجهلا كبيرا بحقيقة الدين الإسلامي وموقفه من العلوم العلمية .

يقول المسيو رينان في ثانيا مقالة ص ٤ .

« كل من ذهب معنا الى المشرق او الى أفريقيا رأى ان عقولهم بلغت من الحق غاية حتى كأن دينهم صار كنانا على قلوبهم فحجبها عن ان تعى شيئا من العلوم والأفكار الجديدة ، فلا ترى الا القليل من أولادهم من تشاهد فيه النبهة ، لكن اذا بلغ العشر او الاثنى عشرة سنة وتعلم العقائد صار متعصبا في الدين ، واخذ يختال حمقا على غيره ظلنا ان هذا هو الحق فيعد نفسه سعيدا بما اختصه مما هو في الحقيقة سببا لانحطاطه » (٢) .

(١) أرنست رينان أحد أعضاء جمعية المعارف بفرنسا في جامعة السوربون ببافيس له كتاب « الإسلام وآراء العلم والفلسفة » وهناك محاضرة معربة عن دين الإسلام والعلم قام بتعريبها على يوسف .

(٢) أرنست رينان « دين الإسلام والعلم » ص ٤ .

ويقول فى موضع آخر ص ٨ « قال بعض كتاب المشرق المدعو « أبو الفرج » — وهو مسيحى ملطى — فى اثناء كلامه عن طباع العرب « ان العلوم التى كانت تفخر بها هذه الأمة « يعنى العرب » هى علوم اللغة والعروض والقياف والانشاء اما من جهة الفلسفة فما علمهم الله منها شيئا وما جعلهم اهلا لها » ويستكمل مسيو رينان كلامه بقوله « وهذا هو نفس الحقيقة اذ البدو وان كانوا اكثر الناس كلاما وهم اقلهم فى التأمل والبحث عن الخفى والعربى المتدين يكتفى فى تعليل حوادث الكون بقوله : ان الله تعالى خالق العالم هو الذى يدبر الأمور مباشرة ، يرسل لنا انبياء يرشدونا اليه . ولهذا لاترى فى المدة التى كان فيها الاسلام منحصر فى الأمة العربية — أعنى مدة الخلفاء الأربعة الأولين ومدة بنى أمية ادنى فكرة خارجة عن الديانة » .

ويقول رينان فى موضع آخر ص ٣٩ .

« ان الدين الاسلامى اخر العقل البشرى وحجبه عن التأمل فى حقائق الأشياء بنفوذ زاد مفعول تأثيره عن الأديان الأخرى حتى جعل بعض البلاد التى انتشر فيها كميدان لايعبر البحث عن حقائق الأشياء الذى به يتسع العقل ، وزد على ذلك ان عقول اهل هذه البلاد قلصرة من نفسها ، وما يتميز به المسلم هو بفضه للعلوم ، واعتقاده ان البحث كفر وقلة عقل لا فائدة فيه » (٣) حتى ان هذا المستشرق يشير الى أن رفاعه رافع الطهطاوى عندما عاش فى باريس اثناء بعثته ثم عاد الى مصر الف كتابا ادعى فيه ان العلوم مضادة للدين الاسلامى .

والى جانب هذه الاتهامات يقول : عندما دخل الاسلام بلاد الفرس أوقف النشاط العلمى حيث كانوا منفردين بالطب وعلى المسام بالفلسفة الاغريقية واساقفتهم كانوا من اهل الهندسة والمنطق فترى قسما

(٣) رينسان « دين الاسلام والعلم » ص ٣٩ .

الفرس التى اشتهروا فيها ووقائع رستم انه كان يدعو جاتليك كلها احتاج لعمل قنطرة ، وهذا الاسم كان يطلق على اساتفة وبطارقة النصارى . حتى انه يقول ان بغداد اسست عاصمة لهذه الدولة الفارسية ؛ لكن ما امكن تعويض لغة الفاتحين اى لغة العرب باللغة الفارسية ؛ حتى انه يشك فى اسلام الخلفاء المشهورين اعنى المنصور وهارون الرشيد والمأمون المعاصرين للكارلوسيين عندنا غانهم كانوا يعملون ظاهرا لا باطنا بالديانة التى هم رؤساؤها ، وكانوا يميلون لمعرفة كل شىء خصوصا الأشياء الأجنبية وثنية كانت او هندسية او فارسية او اغريقية (٤) .

هذه جملة افتراءات واكاذيب وجهل صدرت عن مستشرق فرنسى فى القرن التاسع عشر وابواب القرن العشرين ، يحاول فيها أن يبعد عن الاسلام كل اتجاه علمى — ويرمى الاسلام بالجمود والتخلف ، وبسبب المسلمين ويدعى انهم يحرمون الاشتغال بالعلم .

والحقيقة اننى اخترت واحدا من هؤلاء المستشرقين * لانهم كثر والانحراف فى اقوالهم واحكامهم الجاهلة يسيء اليها ، ولكن لابد لنا من معرفة ما يقال عنا وما نتهم به حتى نستطيع ان نقدم الادلة والبراهين التى نسوقها جميعا من كتاب الله « دستور المسلمين » .

ويرى الشاطبى فى الموافقات (٥) ان القرآن يشمل علوم الدين وعلوم الدنيا وهى ما تسمى بالعلوم الكونية ، وما يلحق بها من فنون وعلوم للمتقدمين والمتأخرين لعلم المنطق ، ودليل هذا قول الله فى كتابه العزيز : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » (٦) وقوله « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء » (٧) .

(٤) المرجع السابق ص ١١٠-١٢٠ .

(٥) الشاطبى « الموافقات » ج ٢ ص ٥٢ .

(٦) سورة الانعام آية ٣٨ .

(٧) سورة النحل آية ٨٩ .

ولذلك فان العلوم الحديثة على اختلاف انواعها وتباين موضوعاتها لم تكن نظرياتها وقواعدها او قوانينها الا ترجمة ناطقة بلسان الحقائق الصامته الموجودة فى الكون . غداً العلوم ومسمياتها موجودة عند موضوعاتها منذ خلقت الدنيا ، وانها عمل فيها واضعوها بعد ان استكشفوا حقائقها باستقرار جزئياتها ، عملوا امرين اثنين :

١ — تسميتها وجمع قواعدها وترتيبها .

٢ — تحقيقها ببراهينها وتطبيقها على افرادها .

ولنضرب لذلك مثلاً الحرارة والبرودة فانهما خلفتا مع السموات والأرض وكذلك الكهرباء الاستاتيكية مخلوطة مع الغمام وتلك شرارة كهربائية تبدو مشاهدة للعالمين كلما برق البرق ودوى الرعد قبل ان يعلم الانسان علم الكهرباء . والكهرباء الديناميكية موجودة قبل العلم بنظرياتها كلما كان احتكاك بين جسمين صلبين كالصلب والحديد مثلاً ، وهكذا ظاهرتا الضوء والصوت ، فانهما من الحقائق حين يدا فى الكون الضياء والأصوات وان الذى استطاع الانسان عمله من ذلك بعد مرور الآلاف من السنين هو انه اهتدى اليها وكشف غطاء الجهالة عن وجهها فتجلت له نظريات وقواعد ونجارب ومسائل جمعت ورتبت فكانت علوماً ، واختص كل علم بما يناسبه من تلك النظريات ، وان من الخطأ البين القول بأن العلماء اوجدوا باختراعهم طرق تسخير الطبيعة لارادتهم وتيسير سبل الانتفاع بها بعد كشفها ، وكذلك نقول فى العلوم الاجتماعية . كعلم التاريخ مثلاً الذى يقرر الحقائق الماضية التى وقعت فى الأزمنة المنقرضة فيجمع المؤرخ شتاتها ويؤلف بينها ويهذب عبارتها ويرتبها فتكون علماً يسمى علم التاريخ اذا تجلى هذا يتبين لنا ان القرآن الكريم ، حينما يعرض لنظرية من نظريات العلوم التى استكشفت ، ولم يكن للعلماء علم بها من قبل ، فاننا نقول ان استكشاف ذلك العلم الذى منه تلك النظرية اثبتت شسيتها موجوداً فى الكون من قديم الزمان (٨) .

(٨) رضوان شافعى « التوفيق العلمى » ص ١٩٠ .

والحقيقة التي أحب أن أركز عليها في هذا الموضوع هو أن الدين الإسلامي يحث المسلمين على البحث والاطلاع والدراسة والتنقيب فهو ليس دين جمود ولم يحارب العلم مطلقا ، فكما ذكرت من قبل فإن أولى آياته التي نزلت على رسوله هي « اقرا باسم ربك الذي خلق — خلق الإنسان من علق » (٩) . وتتكرر آيات القرآن الكريم في الدعوة الصريحة الى النظر في خلق السموات والأرض ولابد أن هذا حض على البحث العلمي بقوله تعالى (١٠) « قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » .

وقوله تعالى (١١) « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء » .

وقوله تعالى (١٢) « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » .

وقوله تعالى (١٣) « فلينظر الإنسان الى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شققا ، فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا متاعا لكم ولانعامكم » .

ويقرر القرآن أن الله سبحانه وتعالى علم الإنسان فيقول في سورة الرحمن (١٤) « خلق الإنسان علمه البيان » وفي سورة العلق « علم الإنسان ما لم يعلم » (١٥) وفي سورة البقرة (١٦) « واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم » .

-
- (٩) سورة العلق آية ١
(١٠) سورة يونس آية ١٠١ .
(١١) سورة الأعراف آية ١٨٥ .
(١٢) سورة ق آية ٦ .
(١٣) سورة عبس آية ٢٤ — ٣٢ .
(١٤) سورة الرحمن آية ٤ .
(١٥) سورة العلق آية ٥ .
(١٦) سورة البقرة آية ٢٨٢ .

معنى ذلك أن آيات القرآن الكريم كلها تحث على البحث والاستقصاء والتعلم والتفكر ومعرفة أسرار الكون والاطلاع الدائب ، وسنورد أمثلة صريحة لمعظم العلوم العلمية وأن الله سبحانه وتعالى حض الإنسان على الاهتمام بها بل وشرح نظرياتها التي يتصور الغرب أنه صاحب فضل فيها ، وينسى أن للإسلام السبق في ذلك ، فكيف لأمة هذا دينها أن ترمى بالقصور والتخلف .

علم الجغرافيا الطبيعية

من نظريات علم الجغرافيا أن الأرض كانت جزءا من الشمس ، ثم انفصلت لأسباب غير معروفة والدليل على ذلك وجود حرارة عظيمة في جوف الأرض تصهر المعادن التي لا تنصهر إلا بحرارة عظيمة وتنبعث من باطنها فوارات الماء الحميم مثل ماكان في طوفان نوح عليه السلام . وهذا يريشدنا الى أن الشمس والأرض كانتا جزءا واحدا وكذلك الحال بين الشمس والنجوم (١٧) . وفي ذلك يقول الله تعالى (١٨) « أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » أي فصل الله تعالى الأرض عن السماء ثم « استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وبالتالي فإن النظريات الحديثة أثبتت أن القبة المضروبة فوق سطح الكرة الأرضية فضاء لم يستطع الإنسان أن يدرك له نهاية، بل عاين بالآلات نجوما وكسومسا لأعداد لها مختلفة في بروجها متباينة في حجومها ويدل على ذلك قول الله تعالى في سورة الرقن (١٩) « تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقهرا منيرا » ، والسراج هنا معناه الشمس .

وهناك مذنبات ذات أذيال ضافية وأفلاك مترامية وهنالك كواكب أعظم حجما من الشمس لا تكاد هذه الشمس تذكر بجانبها .

وهناك نجوم تتم دورتها كل مائة سنة ، ومنها ما يتم دورته كل ألف سنة ، ومنها ما يتم كل مائة سنة وألف سنة ومنها ما يتم كل ثلاثة آلاف سنة ،

(١٧) جمال الدين الفندى « قصة الكون » ص ٤٩ .

(١٨) سورة الأنبياء آية ٣٠ .

(١٩) سورة الفرقان آية ٦١ .

سنة ومنها ما يتمها كل مائة ألف سنة ، وقد عرف العلماء ذلك بواسطة حساب المثلثات الكروية (٢٠) .

وإذا كان الغرب قد نوصّل الى نظرية كروية الأرض ، وتصور أنه اضاف للعلم الجغرافى حقائق جديدة ، فإن الدين الإسلامى قد أثبت فى دستوره كثيرا من هذه الحقائق التى لم يكن على الإنسان إلا أن يتفهم معناها ، ولكن كيف يتفهم ذلك إلا بسلطان العلم .

قال الله تعالى « والأرض مددناها » « ألم نجعل الأرض مهادا » « الذى جعل لكم الأرض فراشا » ونحو ذلك من الآيات الشريفة الخاصة بالكرة الأرضية .

والله سبحانه وتعالى قد نفى عن الأرض صفة التسطح ، فلو كانت الأرض مسطحة ، لما كثر فى الآيات القرآنية قول الله وتذكيره لعباده بأن الأرض « مع كونها كروية » صالحة لمعاشهم ومع كونها كذلك تند جعلها ذلولا ، فامشوا فى مناكبها آمنين على ظهريها لاتخافون قلعا ولا اضطرابا، ومهما سرتن فلن تجدوا لها آخر فقد مددناها أمامكم ، فلا تعترضكم نهايتها ولا نهاية لها .

وأما الجسم المسطح فلا بد أن له نهاية من كل جانب فحينما يتوغل السائر فى ناحية منه وجد آخره فينقلب على عقبه .

ثم يقول الله تعالى فامشوا فى مناكبها ، بدين أن يحذرهم من المشى فى اطرافها « ان كانت مسطحة » فهذا دليل يصدع بأن الأرض لا اطراف لها والاطراف لازم من لازمات المسطح ونفى اللزم وهو الاطراف يستلزم نفى اللزوم وهو السطح ، فالأرض اذا كروية وليست مسطحة (٢١) .

(٢٠) جمال الفندى « حقيقة السكون » ص ٥١ — ٥٢ .
(٢١) رضوان شافعى « التوفيق العلمى » ص ٦٧ — ٦٨ .

الاسلام وعلم الفلك :

قال الله تعالى « والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » (٢٢) وقوله تعالى « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » (٢٣) .

تستمر الشمس طول السنة في قطع محيط دائرة، وهذا المحيط يسمى الفلك وكذلك القمر ، فان له فلكا ، ولكن الشمس تقطع فلكها في سنة كاملة اما القمر فيقطعه خلال شهر واحد . وكل من الشمس والقمر ، وما يتبعهما من النجوم والتوابع في فلك يسبحون أى يسرون بسرعة شديدة، ثم ان فلك الشمس مقسم الى اثني عشر جزءا ، تقطع كل جزء في شهر وفي اثناء سيرها حين تقطع الجزء الأول من الاثنى عشر جزءا تكون الشمس موازية لكواكب مخصوصة أى انها تسامت الكواكب التى فوقها بقى الشهر الأول ، وهذه المجموعة من الكواكب التى تسامتها الشمس ، وهى جزء من هذه الأجزاء تسمى برجا ، فاذا تم الشهر تكون الشمس قد انتهت من هذا البرج وانتقلت الى البرج الثانى ، وفى ذلك يقول الله تعالى (٢٤) « والسماء ذات البروج » وقوله تعالى (٢٥) « تبارك الذى جعل بقى السماء بروجا » .

ثم ان القمر يقطع فلكه في ثلاثين أو تسع وعشرين ليلة كل ليلة يقطع جزءا منه ، ويسامت كواكب كل ليلة غير التى يسامتها فى ليلة اخرى من الشهر ، فالقمر مثل الشمس الا ان الليلة بالنسبة للقمر بمثابة الشهر بالنسبة للشمس ، والمجموعة من الكواكب التى تسامت القمر فى ليلة واحدة تسمى منزلة ، والجمع منازل ، ولذلك يقول الله تعالى (٢٦) « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل » وقوله (٢٧) « والقمر

-
- (٢٢) سورة يس آية ٣٨ .
 - (٢٣) سورة يس آية ٣٩ .
 - (٢٤) سورة البروج آية ١ .
 - (٢٥) سورة الفرقان آية ٦١ .
 - (٢٦) سورة يونس آية ٥ .
 - (٢٧) سورة يس آية ٣٩ .

قدرناه منازل « فذلك بروج الشمس وهذه منازل القمر . لئى ذلك المستقر
فى قوله تعالى (٢٨) « والشمس تجرى لمستقر لها » .

والجواب اننا اذا قابلنا آية الشمس وهى « والشمس نجى
لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » بآية القمر ، هى « والقمر قدرناه
منازل » نجد أن قوله منازل فى القمر تقابل قوله « لمستقر لها » فى
الشمس والدليل على ذلك أنه بمعرض ذكر حركة كل من الشمس والقمر
لقوله « وكل فى فلك يسبحون » ثم ذلك التقدير فى قوله « ذلك تقدير
العزيز العليم » وكما قال فى القمر « قدرناه منازل » أى أن المستقر مقدر
للشمس بتقدير العزيز العليم كما أن المنازل مقدرة للقمر ايضا .

وعلى ذلك يكون مستقر الشمس هو برجها . وقد يقال أن المستقر
اسم مكان من استقر والبرج هو طائفة من الكواكب العالية جدا المسامة
للشمس ، فكيف تكون مستقرا للشمس ؟ والجواب أن ذلك مكان اعتبارى
أو على حسب النظر ، ولما كان فلك الشمس أكبر من فلك القمر كانت
المسافة التى تقطعها الشمس عظيمة جدا تحتاج فى قطعها الى سرعة ،
ولذلك عبر فى جانب الشمس بلفظ تجرى ليشير الى أن تلك المسافة الطويلة
جدا فرض الله لها مدة تجرى فيها الشمس جريا حتى تتمكن من انمامها
فى موعدها (٢٩) .

وقد قال بعض المفسرين فى قوله تعالى « تجرى لمستقر لها » هذه
إشارة الى دوران الشمس حول محورها وهى الحركة الرجوية . والمستقر
هو محور الشمس ، وهذا بناء على القول بأن الشمس ثابتة فى مكانها
وانما تدور حول محورها دورتها الرجوية . ولكن الظاهر المتبادر من
الآيات التى وردت فى الشمس أن المستقر هو يوم القيامة الذى يستقر فيه
كل متحرك ، وانا لنجزم بأن معنى قوله تعالى « والشمس تجرى لمستقر
لها » يساوى قوله تعالى « وسخر الشمس والقمر كل يجى لأجل مسمى »
فيكون قوله « تجرى لمستقر » مساويا لقوله « تجرى لأجل » وكل من

(٢٨) سورة يس آية ٣٨ .

(٢٩) رضوان شافعى « التوفيق العلمى » ص ١٠١ — ص ١٠٣ .

اللام فى قوله لمستقر واللام فى قوله لأجل للانتهاء أى تجرى الى مستقر وتجرى الى أجل مسمى فاذا جاء الأجل استقرت فى مستقرها .

والحقيقة ان القرآن الكريم يسير سيرا منظما فى شرح علم الفلك وغيره من العلوم التى حاول الناس بعد ذلك أن يتفهموها ويشرحوا غامضها ويأتوا بنظريات فيها ، وقد شرحها القرآن وبينها ، وبين سطورها معانيها ، ولكن عقلية الانسان هى التى لم تكن لتصل الى هذه الدرجة العالية من العلم لتتفهم كل ماخفى من معجزات القرآن فحينما تفتتح لها نظرية جديدة تتصور أنها قد اُضيفت جديدا ، أما الحقيقة فهى أنها تفهمت أشياء فى الكون وفى القرآن لم تكن قد وصلت اليه من قبل .

ففى الفلك اذن نرى أن القمر يسير بأحكام نظام سيرا دقيقا يتخذه الناس فيما بينهم مواعيت بالأيام حين ينزل كل ليلة ، منزلة من منازلها التى قدرها الله له ، ويعرف به الناس مواعيد الحج فى كل عام فكأنه ساعة نعرف بها المواعيت كل يوم وكل عام .

وكذلك يسير الله الشمس وسائر الكواكب على ذلك النظام المحكم ، وهذا دلالة على أن الكواكب على اختلاف طبقاتها وتفاوت حجوماتها خاضعة بأسرها لذلك النظام المبدع وعلى ذلك يكون قول الله تعالى « مواعيت للناس والحج » ، وقوله (٣٠) « وهو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » وقوله « فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب » (٣١) مرادا به السير بنظام هو غاية فى الأحكام وليس مجرد أخبار .

لذلك فدين الاسلام دين العلم ، وهو الذى حث الانسان على التوغل فى ملكوت السموات والأرض سواء بالدراسة أو بالإنفاذ فى الفضاء فى قوله تعالى « يا معشر الجن والإنس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار

(٣٠) سورة يونس آية ٥ .

(٣١) سورة الاسراء آية ١٢ .

السموات والأرض فانفوا لا تنفذون الا بسلطان « (٣٢) وقد قرر العلماء أن هذا السلطان هو قوة الله سبحانه وتعالى صاحب السلطان ؛ ولن ينفذ الانسان الا بالملم . فأين هذا مما يتهمننا به المستشرقون من تأخر وجمود .

الاسلام وعلم النبات والحيوان

قال الله تعالى فى سورة الانعام « وهو أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخيل منطلعها قنوان دائية ، وجنات من اعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا الى ثمره اذا اثمره وينعه ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون « (٣٣) .

توضح هذه الآية الكريمة ما أثبتته علم وظائف الأعضاء فى النبات من أنه عندما ينزل الماء من السماء ينبت البذور فتخرج اجنة النبات من دور الركود الى دور النشاط ، وتبدأ فى وظائفها الحيوية ، وينمو النبات ويتخصص اجزاء منه هى الأوراق فى انتاج المادة الخضراء « الكلوروفيل » وهى المادة اللازمة لتكوين المادة الغذائية فى داخل النبات من عناصر التربة ، ومن عناصر الهواء ثم تنتقل هذه المواد الغذائية ، على هيئة عصارة داخل عروق النبات فتتكون البذور والثمار « (٣٤) .

ويقول الله تعالى فى سورة النحل « وان لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائفا للشاربين « (٣٥) وقوله تعالى « أولم يروا الى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم « (٣٦) وقوله تعالى « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين « (٣٧) .

هذه بعض آيات القرآن التى تفتح للبشر النظر والبحث ، بل وتأمرهم بدراسة ما غمض فيها ، وتوضح للانسان الأسس الأولى فى هذين

(٣٢) سورة الرحمن آية ٣٣ .

(٣٣) سورة الانعام آية ٩٩ .

(٣٤) محمود دياب « الطب والأطباء » ص ١٠٠ .

(٣٥) سورة النحل آية ٦٦ .

(٣٦) سورة الشعراء آية ٧ .

(٣٧) سورة الرعد آية ٣ .

العلمين ، أولهما ان كل مخلوق من مخلوقات الله سواء أكان انسانا أم حيوانا أو نباتا فهو زوجان ذكر ومؤنث ، يتكاثران ويخرجان أصولهما من نفس نوعيهما .

وقد أمر الله الانسان ان ينظر الى النبات وكيف توضع بذوره في الأرض وكيف ينمو وترعرع ، ويخرج لنا حبا وفاكهة مختلفة أنواعها بالرغم من أن الأرض واحدة ، فهذه قدرة الله سبحانه وتعالى ، الى جانب أن الله جل شأنه أوضح للإنسان كيف يعرف ذكر النبات من مؤنثه لأن ما يظهر منه وما لا يظهر ، الى جانب أن الله أوضح في آياته المحكمات أن النبات يلقيح بواسطة الرياح اللواقح، وتارة يكون بواسطة الحيوان انسانا أو بهيمة تنتقل من شجرة الى شجرة أو طائرا يهوى من غصن الى غصن (٣٨) ، وحينئذ فلا شك أن كل أنواع النبات لا تخرج عن عموم قوله تعالى « من كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » (٣٩) .

واستهرت عقلية الانسان في توضيح أسرار علوم النبات واستكشاف غوامضه، حتى وصلوا الى طرق جديدة في الزراعة وزيادة الغلة وتحسين المحصول ، كل ذلك نجد له معان اذا فسرنا آيات القرآن الكريم بعقلية علمية .

لقد كان الانسان فيما مضى يقرأ هذه الآيات ، وكان يتصور انها ترمى الى ما يقع تحت حسه من أنواع الحيوان والنبات ، فلما تطور علما النبات والحيوان ، وجد أن هذه الآيات تتكشف عن دائرة هامة مترامية الأرجاء وتشمل أصنافا من الحيوان نراها ولا نراها .

أفلا ينظر المفترضون كيف كان دستور الاسلام هو قلعة العلم الحديث، فكيف اذا لا يشجع ابناءه ، ولا يدعوهم الى الكشف عن الكون وما فيه .

(٣٨) رضوان شافعى « التوفيق العلمى بين الحضارة الاسلام »
ص ١١٢ — ١١٣ .
(٣٩) سورة الذاريات آية ٤٩ .

الاسلام وعلم الطب

لاشك أن دين الاسلام يحث على الاهتمام بصحة الانسان وبدنه، فهو الدين الذى بنى على النظافة والطهارة والوضوء والسواك وتطهير الثياب وعدم القاء الأوساخ فى طرق المسلمين ، وعدم البصاق . وعدم الافراط فى الأكل أو ادخال الطعام على الطعام ، وعدم الأكل قبل الجوع ، وعدم الامتلاء واللجوء الى الحمية « لأن المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء » (٤٠) .

وهناك احاديث الرسول صلعم كلها تتلاءم مع نظريات الطب الحديث فيذكر المؤرخون أن الرسول صلعم عندما بعث اليه المقوقس عظيم القبط نى مصر بالطبيب ، رده اليه قائلا « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا اكلنا لانشب » (٤١) وبعد طول السنين وبالدراسات العلمية ثبت ان هذه نظرية طبية وهى أساس صحة الانسان .

ومن احاديث الرسول صلعم التى تدل على الوعى الطبى : وهو مانسميه الآن بعمليات الوقاية من الأمراض والحجر الصنى قوله عليه السلام « اذا سمعتم به — أى بالوباء والطاعون — بأرض فلا تقدموا عليه ، واذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه » (٤٢) .

فالاسلام يأمر بالوقاية من الأمراض لئلا تنتقل العدوى الى سائر أفراد المجتمع ، وذكر أيضا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك « فر من المجذوم كما تفر من الأسد » (٤٣) .

وهناك كثيرا من احاديث الرسول صلعم التى تدل على ان المسلمين اهتموا بالطب والدواء ، فقد جاء اليه صلى الله عليه وسلم يوما بعض الأعراب وسألوه أنتداوى ، قال « تداوا فان الله لم يضع داء الا ووضع له دواء » (٤٤) .

(٤٠) صلاح الدين المنجد « المجتمع الاسلامى فى ظل العدالة » ص ٥٩ .

(٤١) رواه البخارى ..

(٤١) رواه البخارى ومبطل بسند صحيح .

(٤٣) رواه البخارى .

(٤٤) رواه أحمد وإسحاق السنن بسند صحيح .

أما إذا أردنا أن نحلل القرآن الكريم ونرى بعض الآيات التي أثبت العلم الحديث صحتها ، وكيف نزلت على الرسول الأُمى فى وقت لا يمكن لإنسان أن يحلل هذه الآيات ويفسرهما كما فسرتها النظريات العلمية الحديثة . فلنأخذ أولا موضوع خلق الإنسان .

قال الله تعالى فى سورة المؤمنون « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة . فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما » (٤٥) .

فمن المعروف أن علم الأجنة يعتبر من العلوم الحديثة ، فإنه لم يصل إلى حقائق تكوين الجنين ، وتصوير أشكاله المختلفة فى مراحلها المختلفة إلا بعد أن اكتشفت المجاهر والأشعة حيث عرف التشريح المقارن معرفة تامة ، وحيث وصل العلم إلى الحقائق التى تقرها الآية الكريمة ، خلقناكم من عناصر التراب المختلفة ، ثم خلقناكم بطريق التناسل من حيوان منوى داخل سائل متدفق بواسطة تلقيح الحيوان المنوى لبويضة الأنثى . ثم تحونت علقة تنمو حتى تصبح شبيهة بقطعة دم تتعلق بجدار الرحم ثم تنمو العلقة حتى صير فى حجم مايمكن مضغه .

وفى الجنين توجد الطبقة المتوسطة من طبقات الجرثومية الثلاث وهى تنقسم إلى خلايا يتكون منها العظام والعضلات ، وتتصل خلايا الطبقة الصلبة وتمتد إلى أماكنها الكثيرة ، وتصبح باقى خلايا الطبقة الجرثومية عضلات تسير جنباً إلى جنب مع التعضرف . وفى الأسبوع الثانى يظهر التكلس والتعظم للغضاريف ، وتكون العضلات قد تميزت بسرعة فى جميع أنحاء الجسم وأخذت الشكل النهائى لها ، ويعد أن يكسو اللحم العظام يكون الإنسان قد أنشئ خلقاً جديداً وظهرت جميع أعضاء الجسد (٤٦) .

وقد كان المسلمون فى القرون الخالية يقرعون تلك الآية وأمثالها قراءه تعبدية فحسب ، ويمرون على ما فيها من علم صادق ويقولون آمنا به كل

(٤٥) سورة المؤمنون آية ١٢ — ١٤ .

(٤٦) محمود دياب « الطب والأطباء » ص ٩٤ — ٩٥ .

من عند ربنا ، حتى جاء علم التشريح ، ووضح هذه النظرية العلمية التي سبق القرآن بها العالم أجمع فقد قال تعالى « تلك من انباء العيب نوحينا اليك ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » (٤٧)

وهناك اعجاز قرآنى آخر فى مجال الطب فى قوله تعالى « فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب » (٤٨)

ففى هذه الآية يبين الله تعالى عملية خلق الانسان ، وكيف توضع النواة فى رحم الأم ونوعيتها ، وكل ذلك عكف على دراسه العلماء . فوجدوا فى القرآن الكريم أساسا لما يدرسون فهو الذى يبين كيفية الحمل ومراحل الخلق وكيفية الوضع ، ثم عملية الرضاعة ، وأهميتها الصحية للانسان ، ومدتها ، كل هذه آيات محكمات دقيقة الصنع . وما العلماء المحدثون الا أناس يحاولون تفسير ماغض (٤٩) .

وإذا اردنا أن نتمعن كيف كان الاسلام هو أساس الطب الحديث . فلننظر الى تعاليمه التى أمرت المسلم بالوضوء فى قوله « يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين ، وان كنتم جنبا فاطهروا » (٥٠) .

فللوضوء حكمة بالغة ، فالانسان ينظف أعضائه الظاهرة ، فكلما شعف الانسان وتغبر جاء ميعاد الوضوء فأزال القذارة عن أعضائه فلذلك فهو دين يدعو الى النظافة التى هى الأساس الأول فى علم الطب ، فهى التى تحمى الانسان من مختلف الأمراض (٥١) .

أما تعاليمه بالنسبة للصوم : فهو يفيد الانسان لعلاج كثير من الأمراض ، ويقلل من وزن الجسم .

-
- (٤٧) سورة هود آية ٤٩ .
(٤٨) سورة الطارق آية ٥ — ٧ .
(٤٩) عبد الرزاق نوفل . ص ٧٦ .
(٥٠) سورة المائدة آية ٦ .
(٥١) محمود دياب ص ٨١ .

كذلك حرم الله تعالى الميتة والدم ولحم الخنزير . فالحيوان الميت لا يموت الا لمرض او شيخوخة . فاذا مات نتيجة لمرض فانه مما لا شك فيه انه مازال يحمل فى جسمه بعد الموت مواد غير طبيعية ، وتسمميه ضارة بجسم الانسان الحى حتى بعد أن تعقم من الجراثيم .

وكذلك الدم . فانه سائل أغلبه وأهم عنصر فيه كريات الدم الحمراء وفيه من افرازات الجسد ما هو معد للافراز بالبول والعرق .

فالدم مزيج من مواد مفيدة للجسم ، ومواد تضر اذا لم يفرز ، واذا كان الحيوان المأخوذ منه الدم ايضا مريضا كان شرب الدم اشد ضررا .

واذا بقى الدم فى الحيوان قبل اكله احدث تفاعلات فى أنسجة الحيوان مثل العضلات وبصبح اكلها غير صالح للانسان .

والميتة بالشيخوخة ضررها كضرر الميتة بالمرض لأن الشيخوخة معناها انحلال احد الأنسجة وذلك مقدمة لانحلال آخر حتى تنحل جميعا ويصبح الأكل فى هذه الحالة اكلا لأنسجة مريضة متحللة ، ولحم الخنزير كثيرا مايصاب بطفيليات ، وينقل من الأمراض التى ثبتت أخيرا مثل التيفيا والبلانتيدوم ، كما انه الحيوان الوحيد الذى يصاب بالتركينا وهو نوع خطير من الديدان لأنه اذا أصيب به الانسان يحدث تسمما عموميا واسهالا مثل الكوليرا يؤدى الى الوفاة (٥٢) .

وقد حرم الله سبحانه وتعالى الخمر ، فالخمر تسبب الاضرار بكثير من أجهزة الجسم المختلفة ، كالجهاز الهضمى والعصبى والدموى (٥٣) .

وفى مجال الطب والصحة التى أثبت العلم الحديث صحتها وأهميتها قول الله تعالى « ويسألونك عن المحيض ، قل هو أذى ، فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن » (٥٤) .

ولقد ثبت علميا أن الحيض أذى أى ضرر على الرجل والمرأة على

(٥٢) عبد العزيز اسماعيل « الاسلام والطب الحديث » ص ١٠٤ .

(٥٣) احمد علوش « الخمر والحياة » ص ٦٥ .

(٥٤) سورة البقرة آية ٢٢٢ .

حد سواء فهو يؤدي الى امراض للرجل لأن دم المرأة فى هذه الفترة خليط من خلايا بطانة الرحم وامرازات الغدد وبه كثير من الجراثيم (٥٥) .

وهناك معجزة علمية طبية فى القرآن فى قوله تعالى فى سورة الأحزاب آية ١٩ « فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يخشى عليه من الموت » (٥٦) .

تشير الآية الكريمة الى حقيقة علمية لم يكن سببها معلوما عند نزول القرآن وهى دوران مقلة العين عند اقتراب الموت وعند الخوف ومن اسباب ذلك ان شدة الخوف تذهب الوعى فتعطل الادراك ، فتعمل المراكز العصبية اللاواعية منطقة مهاد المخ فيصير الخائف فى حالة شبيهة بحالة الذى يغشى عليه من الموت اذ تدور مقلته وتتسع حدقته (٧٥) .

وهناك معجزة أخرى من قوله تعالى فى سورة الحديد آية ٢٥ « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » (٥٨) .

فللحديد منافع جمة للكائنات الحية اذ تدخل مركبات الحديد فى تكوين الكلوروفيل وهو المادة الأساسية فى عمليات التمثيل الضوئى التى ينشأ عنها تنفس النباتات وتكوين البروتوبلازم الحى وهى الطريقة التى يدخل الحديد بها جسم الانسان والحيوان .

ويدخل الحديد فى تركيب بروتينات النواة « المادة الكروماتينية » فى الخلية الحية ، كما انه يوجد فى سوائل الجسم مع غيره من العناصر وهى احدى مكونات الهيموجلوبين .

ويقوم بدور هام فى عملية الاحتراق الداخلى للانسجة والتمثيل الحيوى بها او الحديد يوجد كذلك فى الكبد والطحال والكلى والعصل والنخاع الأحمر ، ويحتاج الجسم الى كمية مناسبة من الحديد يجب ان

(٥٥) دياب ص ٩٠ .

(٥٦) سورة الأحزاب آية ١٩ .

(٥٧) دياب ص ٩٩ .

(٥٨) سورة الحديد : آية ٢٥ .

يزود بها من مصادره المختلفة . فاذا نقصت تعرض الانسان لأمراض
أهمها فقر الدم (٥٩) .

الإسلام وعلم الكيمياء :

حاول كثير من المستشرقين أن يفضوا الطرف عن الدور الذى قام
به المسلمون فى مجال الكيمياء ، هذا المجال الذى يعتبر واحدا من أهم
الميادين العلمية التى اشتغلوا بها ، بعد أن حثهم دينهم الحنيف على العلم
والبحث واستطلاع خبايا الكون .

ومن أول من اتهم المسلمين المستشرق أوليرى فى كتابه « الفكر
العربى ومكانه فى التاريخ » قال ان « الكيمياء العربية تعيد عرض ما قام
به الكيميائيون فى مدرسة الاسكندرية » ويرى المستشرق Rnska
« ان مادة الكيمياء العربية منقولة الى العربية من القبطية ، ولكن
ربما كان بها عنصر خفى مصرى أصيل » فان أوليرى يرجع فيقول « ان
النسخ القبطية فيما يبدو ، أنها ترجمت من أصول عربية الأمر الذى يبعد
معه أن يكون أصل الكيمياء العربية ترجمات من القبطية » (٦٠) .

والحقيقة ان العرب غطوا الى علم الكيمياء منذ صدر الدولة
الإسلامية فى العصر الأموى فقد شغف المسلمون كما نعلم منذ بداية الأمر
بالبحث عن الحقيقة ، فاتبعوا منهاج سليمان تتبعوا به سير الظواهر ، ولم
يقبلوا شيئا على أنه الحق مالم تؤكد به الخبرة والواقع العلمى (٦١) .

ومن أوائل العلماء الذين ظهروا فى ميدان الكيمياء وأثروا ابلغ الأثر
فى تطور هذا العلم ، واقامة دعائمه ، خالد بن يزيد الأموى وجابر بن
جبران وأبو بكر الرازى وابن سينا وكثير غيرهم ، الا أن جابرا هو بحق
المثل العظيم للكيمياء الإسلامية فى عهدها المبكر (٦٢) ، وبجهود جابر

(٥٩) دياب ص ١٠١ .

(٦٠) أوليرى « الفكر العربى ومكانه فى التاريخ » ص ١٣٦ .

(٦١) مصطفى لبيب « الكيمياء عند العرب » ص ٢٤ .

(٦٢) Mocre " A History, of, Chemistry." p. 23.

والرازي وبفضل عبقريتهما بدأت تتضح مبادئ الكيمياء ويصبح لها ضابع العلم الحقيقي ، كما بدأت الحقائق التجريبية تساند النظريات العقلية التأملية وتدعمها ، وتحدد المواد الكيماوية . وصنفت تصنيفا محدد الخصائص كما تقدمت وسائل البحث العلمي وطرق التقطير والتصفية والحل والعقد والتبلر ، وفهم الفرض منها . وقد بعثت عقلية هؤلاء الرواد من علماء المسلمين عن السحر والخرافة وكانوا أول من طبق المنهج العلمي في دراسة الظاهرة الكيمائية (٦٣) .

وقد ثار جدل بين مؤرخي العلم حول حقيقة الأصول التي استقى منها المسلمون معارفهم الكيمائية ، وتنوعت حججهم قوة وضعفا في هذه السبيل ، ويكاد يجمع الغربيون والمسلمون من كتاب التراجم والطبقات على أن خالد بن يزيد هو أول من تكلم في الكيمياء وأنه تلقى علومه من مصادر يونانية أو على الأرجح مصادر هلينستية على يد واحد من رهبان الاسكندرية يدعى ماريانوس الذي ترجم كتب الكيمياء الى العربية .

والواقع أن المسلمين الأوائل ان كانوا قد ورثوا شيئا من المعلومات الكيمائية التي انتهت اليها جهود المصريين القدماء أو اليونانيين إلا أنهم بحق قد بعثوا عن الارتجال والغموض وأسسوا كما يقول هوليسادر « نظاما عمليا عماده الحقائق التي تدعمها التجربة ، وتبعد عن الخيال ، ومى الجانب العملى في الكيمياء الإسلامية يبدو التنظيم السليم بأوسع مداه » (٦٤) .

وحينما بدأ المسلمون يتشككون في النظريات الكيمائية القديمة بدأت مرحلة وصولهم الى مستوى عال من التفكير الكيمائى (٦٥) . وإذا كان من الممكن للمرء أن يطلع على علوم الآخرين فان ذلك ليس ضمانا له بالقدرة على التفكير المبدع ، فالعرب وقد كانوا تلاميذ معتمدين على كتب اليونان إلا أنهم سرعان ما أدركوا أن التجربة والرصد خير من الف كتاب (٦٦) .

Helmyard. " Makers of Chemistry " p. 56. (٦٣)

Helmyard. " Chemistry to the Time of Dalton " p. 30 (٦٤)

(٦٥) سارتون جورج « مقدمة لتاريخ العلم » ص ٣١ .

(٦٦) لوبون « حضارة العرب » ص ٤٣٥ .

ان تاريخ العلم يؤكد ان المسلمين فى بحوثهم الكيميائية اتبعوا الطريق العلمى بالرغم من معرفتهم ان التجربة لاتوصل الى اليقين الحاسم وليست وثيقة وثيقة البرهان او القياس ولكنهم وقد كان هذا شأنهم أدركوا تماما ان مطلب اليقين ليس هدف الكيميائى ، او حتى فى متناوله وان نتائج العلم تخضع لاعتبارات الاحتمال والترجيح كما لم يروا فى القانون العلمى صبغة مطلقة تحتم ضرورة صدقه فى كل مكان وزمان وتجعل « التنبؤ العلمى » فى المستقبل على نحو ما أظهرته تجربة الماضى والحاضر امرا محتوما . لذلك نرى ان المنهج العلمى فى الكيمياء الاسلامية قام على المشاهدة المضبوطة ، والتجريب المحكم بعكس الطريقة المدرسية التى سادت اوربا بعد ذلك طوال العصر الوسيط ولا يمكن فى واقع الامر ان نظهر قيمة العرب الحقيقية ومكانتهم العلمية الا باظهار الفرق بين المنهجين السالفى الذكر ، فان زملاء العالم الايطالى جاليليو قد رفضوا فى عناد حتى مجرد ان يكلفوا خواطرم بالنظر فى منظاره ليروا ما يتعاقب على على الاجرام من تغيرات » .

فالجانب التجريبي فى الكيمياء العربية من اهم المسائل الجديرة بالاعتبار ، وعلى أساسه استطاعت اوربا ان تجد الأساس السليم ، ونقطة البدء الصحيحة فى هذه الدراسات التى خلفها العرب ، يقول هوليار ، لقد قدم كيميائيو العرب الجوهر والاساس لهذا العلم الناشئ واستطاعت اوربا ان تبدأ بحوثها الكيميائية على أساس واقعى سليم ، وبناء نظرى مشتق وتأكيد لقيمة الكيمياء المباشرة فى حياة الفرد » (٦٧) .

ان النقاش الطويل حول الطريقة التجريبية ، ومحاولة اسنادها لغرب العرب ليس الا حلقة من حلقات التضليل وليس الا تصحيفا فى فهم المصدر الحقيقى للحضارة الاوربية كما يقول « بريفولت » فالدراسات العلمية التى ظهرت فى اوربا كانت نتيجة لروح جديد فى البحث وطرق حديثة فى الاختبار والفحص ، وكانت كذلك نتيجة للتجارب والملاحظات ودقة المقاييس ، وكل هذه الدعائم لم تكن معرفة للاغريق انها جميعا هدية المسلمين الى اوربا .

الفصل السادس

الإسلام ومشكلات الحضارة والمدنية الحديثة

مشكلات الحضارة

تعرضت الانسانية عامة فى الشرق والغرب لهزات عنيفة بعد الحربين العالميتين الاولى والثانية .

فقد انقلب ميزان القوى فى العالم ، وانتصرت فئة وانهزمت فئة أخرى وعلت جبهة وانخفضت جبهة ، بل ان هناك من الدول العظمى التى انكسرت هذه الكسرة فى الحرب — مثل المانيا ودول المحور — وكان لابد عليها من أن تعيد بناء نفسها من البداية .

أصبح أمام الشعوب مشكلات ضخمة سياسية واقتصادية واجتماعية، وقد أصبح من المحتم على العالم الاسلامى ان يسهم بحظ وافر من تلك المشكلات ، وان يشارك بقية العالم فى القاء القدر الكافى من الأضواء لحلها والاستفادة من نتائجها .

ومن الطبيعى أن العالم الاسلامى يختلف كلية عى العالم الغربى فى هديته وتقاليده وعاداته وتراثه العلمى ، الذى يختلف مع ما للآخر من نظائر هذه المميزات كل الاختلاف .

ويرجع هذا الاختلاف الى الفترة التى بدأت فيها أوربا عصر النهضة، وأذعنت لدعوة الأحرار من مفكريها ، فانفصلت عن الكنيسة ، واندفعت فى الطريق الذى جعلها تبتعد عن المدنية والحضارة الشرقية شيئاً فشيئاً .

ولقد جعل مفكرو الغرب يمعنون فى توسيع الهوة بين الحضارتين، فأعلنوا جدودهم للروحانيات ، وصرخوا بانكارهم لكل ما لا يعرفون سببه الظاهرى ، ونادوا باستقلال العلوم التجريبية عن الدين ونادوا بصدارتها عليها ، وقرروا أن كل ما لا يخضع للتجربة غير ثابت ، ولا جدير بالتصديق . فقال قائلهم « اذا وضعتم الاله والروح على المشرحة ، وحسبتم اليهما

الميكروسكوب ، فأنا مستعد للايمان بهما » (١) . وأعلنوا كذلك أن العقل البشرى المعتمد على الحواس هو وحده الوسيلة المثلى للمعرفة ، وجأهروا بأن المعرفة نسبية وبأن مبادئ الأشياء وغاياتها مجهولة أو غير قابلة للمعرفة ومعنى هذا أنه يجب علينا أن نحصر جهودنا فى دراسة الظواهر الطبيعية ، وما دامت هى وحدها فى متناول عقولنا ، فلم يعد العقل سوى قوة تتعقب تحولات المادة ، لتنتزع منها خواصها .

هذه هى مميزات الروح الغربية التى يسودها العلم التجريبي سيادة تامة . والتى ظفرت فى القرون الأخيرة بنمو وانتشار غير قابلين للتصديق ولقد تغلغلّت فى جميع البيئات الدينية ، بل نفست الى أكثر القلوب المسيحية اخلاصا ، وأشدّها استمساكا بالايمان وحرصا على العقيدة دون أن يبدو لها ما فيها من تناقض مع العقل السليم ، والمنطق السليم (٢)

سلط الغرب افكاره على العالم كله ، ومنها العالم الشرقى الذى بدأت تتغلغل فى مجتمعاته وبيئاته ، وطالما كان الاجتياح مقصورا على انشئون المادية من الحياة محصورا فى الأمور العملية من الوجود ، لم يكن الخطر داهما ، ولا الدمار محققا ، ولكنه بدا يغزو الارواح والنفوس والعقائد والقلوب ، فقد سلط الغرب على الفرد المسلم او « الانسان » فكرا وعادات وعقائد غريبة عنه ، محاولا بذلك تحطيم المفهوم الحقيقى للانسان المسلم والمجتمع الاسلامى ، لكى ينشأ افرادا يكفرون بالاسلام والمجتمعات الاسلامية ويعملون على هدمها .

فالاسلام دين دعوة الى الحياة بنص القرآن الكريم ، نقد جاء فيه قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم » (٣) .

وهكذا انفرد الاسلام بطابع دعوة الى الحياة ، ولكنها حياة تقوم على أسس جديدة تكفل الأمن والسلامة لجميع بنى الانسان ، فكما ربطنا

(١) محمد غلاب « الاسلام من خلال مبادئه التأسيسية » ص ١٩ .

(٢) محمد غلاب « المرجع السابق » .

(٣) سورة الأنفال ، آية ٢٤ .

مابين دعوة الاسلام وبين مشكلات الحياة التى يعاينها الناس . وجدنا حولا علمية تضمن لهم حياة انسانية كريمة ، وآمنة .

وكما أغفلنا هذه الصلة مابين دعوة الاسلام ومشكلات الحياة التى يعاينها الناس ، فقد ابتعدنا عن روح الاسلام .

وانه مما يلفت نظر الدارس لتاريخ الحضارات العالمية المقارن هو ان جميع النهضات المادية فى التاريخ — كما هو شأن النهضة فى عصورنا الحديثة — وقد تكشفنا فى عز سلطانها عن مشكلة واحدة مشتركة وهى أنها هدفت عملا بمبادئها ونظمها الى جعل فئة قليلة من الناس امة من الأمم تتحكم فى مصير لقمة غيرها من الجماهير والأمم ، وفى مصير أمنها وسلامتها ، وذلك بما اختصت به تلك الفئة القليلة أو الأمة الغالبة نفسها من امتيازات خاصة وحق الوصاية على الغير بما لا يتفق مع مبادئ الوحدة الانسانية ، ولا مع القواعد الاخلاقية ، ولا مع الحقوق الطبيعية . ولكن نهضة واحدة ظهرت فى القرون الوسطى ، وهى النهضة الاسلامية الانسانية شذت عن ذلك ، وكانت وحدها بكل مبادئها وقواعد نظامها قائمة على محاربة هذا التحكم بجميع اشكاله والوانه . واستنت نظاما اجتماعيا جديدا يقوم على فكرة الاخاء والتضامن .

والسائد الآن فى العصور الحديثة هو انتشار الحضارات المادية التى تحاول ان تقضى على الانسان وتحوله الى آلة ، وتدمر خصائصه وهى تعامله بالمقاييس الآلية وبالمقاييس الحيوانية التى أمكن دراستها فى عالم الحيوان (٤) .

الى جانب ذلك نجد الانسان الان أصبح جاهلا بدوره الذى رسمه الله سبحانه وتعالى فى الحياة ، والمعيشة وفى كيفية استغلال طاقات الحياة وكنوزها كلها فى التعمير والتنمية والارتقاء ، وفى ان يضع لنفسه نظاما شاملا لجوانب حياته كلها ، يتناسب مع طبيعته وخصائصه ، ويحتفظ بها جميعا فى حالة تجدد ونمو وازدهار .

(٤) سيد قطب « الاسلام ومشكلات الحضارة » ص ٧ .

معنى ذلك ان هذا الانسان يحتاج قبل كل شيء الى قيم بينية ، والى تمسك تام بالشرعية السماوية حتى لا يخرج بحضاراته عن الهدف المقصود منها وحتى لا يجعل من تلك الحضارة أداة تدمير تدمره ، معنويا وجسديا .

معنى ذلك ايضا ان المؤمنين يستطيعون — اذا تحررت عقولهم من أى افكار هدامة تخرج تحت اسم الحضارة والمدنية — أن ينشئوا أروع الحضارات ، وأن يستلهموا سر الحكمة من الله خالقهم ، وخالق الأكوان ، وأن ينهضوا برسالتهم الكبرى فى الحياة .

على الانسان أن يقدر نفسه كإنسان خلقه الله سبحانه وتعالى ونفخ فيه من روحه وأنه قد تحول بهذه النفخة القدسية من روح الله الى كائن عظيم ، له قداسته ومنزلته تسجد له الملائكة بأمر الله ، وسخر له الكون كله (٥) قال تعالى « اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » (٦) .

فالاسلام قد رفع الانسان الى أعلى منزلة وكرمه أعلى تكريم ، وجعله من روح الله ، فهل هناك منزلة أعلى من ذلك .

الى جانب أن الاسلام يؤكد انسانية الانسان ، ويرتفع بها فوق حيوانيته ، ويؤكد بالتالى القيمة العليا للانسان فى الوجود كله ، ويؤكد أن مافى حياة الانسان من دين وعلم . وما للانسان من حواس وادراك ، وما لجماعته من تاريخ هو مجموعة متناسقة من طرق المعرفة تنتهى الى غاية واحدة هي سعادة الانسان .

وعندما لاح نور الاسلام ، وانشأ فى أرجاء العالم أجمع ، حمل معه حضارة ذات خصائص معينة ، كل جانب من جوانبها يعمل على سعادة الانسان ورخائه ، وعلى تطور عقله وعلمه ، وعلى احترام آدميته ، وعلى ارضاء الله جل وعلى خالقه ، فكانت هي الحضارة الغالبة والسائدة .

(٥) توفيق سبيع « تيم حضارية فى القرآن الكريم » ص ٩٥ .
(٦) سورة ص آية ٧١ ، ٧٢ .

ولم تقتصر هذه الحضارة الاسلامية على خدمة الفرد المسلم فقط ،
ولكنها ذاعت وانتشرت وشملت العالمين الشرقى والغربى ، فممنها بدا
الأوربيون نهضتهم اعتمدوا اعتمادا كبيرا على الحضارة الاسلامية فى
شتى فروعها .

ولعل أهم جانب من جوانب الفكر هو المنهج التجريبي الذى يؤكد
العلماء الغربيون انه ليس من صنع الغربيين ، ولكنه مأخوذ حقا
عن العلماء المسلمين .

يقول بريفولت فى كتابه « بناء الانسانية » ان روجر بيكون درس
اللغة العربية والعلم العربى والعلوم العربية فى مدرسة اكسفورد ، على
خلفاء معلميه العرب فى الأندلس وليس لروجر بيكون ، ولا لسميه الذى
جاء بعده الحق فى أن ينسب اليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبي ،
فلم يكن روجر بيكون الا رسولا من رسل العلم والمنهج الاسلاميين الى
أوربا المسيحية ، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه اللغة
العربية وعلوم العرب ، هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة والمناقشات
الى دارت حول واضع المنهج التجريبي ، هى طرف من التحريف الهائل
لأصول الحضارة الأوربية ، وقد كان منهج العرب التجريبي فى عصر
بيكون قد انتشر انتشارا واسعا ، وانكب الناس فى لهف على تحصيله
فى ربوع أوربا « (٧) .

وبعد أن انتقل المنهج الاسلامى الواقعى التجريبي الى العقلية
الأوبية ، اتجه الفكر الغربى الى البحوث العلمية التجريبية ، وبدا البحث
العلمى يكشف عن حقائق فلكية وجغرافية وطبيعية ، غير تلك المجموعة
من الأوهام والأساطير والخرافات التى تتبناها الكنيسة ، وتعتبرها حقائق
مقدسة ، وهى ليست من النصرانية فى شئ ، وإنما هى مجرد افكار —
غير علمية كانت شائعة فى تلك الأزمان ولم يتنزل بها كتاب من عند الله
فتبنتها الكنيسة ، ودافعت عنها بوصفها جزءا من العقيدة .

ولقد وقفت الكنيسة ، وقفة عنيدة فى وجه هذا الاتجاه الجديد
المنبثق من منبع الثقافة الاسلامية فى الأندلس وفى الشرق كذلك ، وقابلت

(٧) سيد قطب « الاسلام ومشكلات الحضارة » ص ٣٥ .

سائج بحوث الطليعة من العلماء الأوربيين الذين استقوا من ذلك النبع بجفوة وعداء شديدين ، واستخدمت سلطاتها ضدهم بوحشية كان من جرائرها ذلك الشرود من الكنيسة وضمننا من الهها الذى تستطيل باسمه زورا وبهتانا ، ومن كل ظل للدين وللتوجيه الدينى (٨) .

لذلك ضاق المجتمع الأوربى ذرعا بالكنيسة ، وتطلع الى معرفة انقى وعلم أنفع ، فلم يكن بد أمام الأوربيين الا أن يعتمدوا على العقل وحده بعيدا عن أى دين ، لأن الدين فى نظرهم عدو للعلم والحرية والابتكار .

انطلق الفكر الأوربى مزهوا تياها بما أحرز من انتصار على الكنيسة فظن انه يستطيع أن يبنى حضارته بعيدا عن دين صحيح ، يسبغ عليها الكرامة ، ويحفظها من الانزلاق ويعصمها من الهبوط ، لأن الاتحاد هو الأب الطبيعى لكل المساوىء والآفات الحضارية ، ورغم ذلك فقد انطلقت الحضارة الغربية من نقطة الاتحاد لا تلوى على شىء ، ووصلت بهذا الى قمة التفوق المادى (٩) .

وعلى الرغم من أن العالم الغربى قد نجح فى ايجاد عالم صناعى مريح فيه كل مايفتقر اليه الانسان المتحضر من الكماليات ، الا أن القوم هناك فى غاية التوتر والقلق ، تغمرهم المشكلات الحادة ، وتواجههم المتاعب القاسية ، وكأنما الانسان فى ظل الحضارة قد اعتراه الملل وسئم الأجواء الصناعية المادية ، وتطلع الى لون آخر من الحضارة تغذى عواطفهم وتملأ قلوبهم بالأمن والسكينة .

ولو تتبعنا الانعكاسات السيئة التى ترسلها هذه الحضارة لأعياننا الاستقصاء وتكفى وسائل التدمير والتخريب ، وكيف تستعمل فى ترويع الأمن والاعتداء على كرامة الشعوب ، يكفى ما أورثته هذه الحضارة أصحابها من غرور وصلف فقدت معه التوازن ، وتحيزت للظلم وضربت حركات الايمان فى كل مكان .

ان الحضارات المسادية فى الشرق والغرب ، قامت على اساس

(٨) سيد قطب ، المرجع السابق ص ٣٦ — ٣٧ .

(٩) توفيق سبع « قيم حضارية فى القرآن » ص ١١٣ .

مناهج بشرية تدعى انها تستطيع أن تلبي حاجات الانسان ا وبتنع حياته،
وكانت نتيجتها شقاء وضلال ، لانها حضارات قامت على جهل مطبق
بطبيعتنا وبحجمننا وعواطفنا وخصائصنا .

وقد بدا العالم الغربى يشعر بأزمة ضمير لانه لم ينطلق بالحضارة
المادية الى أفقها الروحى النبيل ، فيتخذ منها وسائل لرضا الله .
ودعائم لتقوية الايمان ، وانما اعتبرها فى ذاتها غاية ، فانفصل عن الله
تل الانفصال ، ولم ينجح فى تهيئة هذه الحضارة لخدمة الانسان ،
فاستبعدت هذه الحضارة المادية ضمير الانسان والفت ارادته . وبددت
مطامحه وأشواقه ، وجعلته عبدا خاضعا لها لا سيدا مسيطرا عليها .

ومثل هذه الحضارة لا يمكن ان تنجح فى بناء مدنيت فاضلة .
لكنها تنجح فى بناء امبراطوريات ضخمة ، تغرى بمظهرها فى حين
ان الباطن خواء لانها دعت الى تخلف الخلق عن العلم فى مضمار
السباق ، وبذلك باعت مثلها وقيمها فى عالم الأرقام والكميات والحساب .
وصارت حضارة بلا ضمير ، وتأتى الحضارة المثالية الا ان تكون مزاجا
بين الروح والسكم بين الغائبة والسببية ، حتى اذا حدث اختلال فى هذا
التوازن هوت المدنية الى الحضيض ، لانها تحيف على فطرة الانسان
ونصادم طبيعته التى جعلها الله مزيجا من المادة والروح .

لذلك فلا بد على الانسان المؤمن ان يفجر بالعلم كل ينابيع الحضارة
ويضبط بالايمان مسارها فلا تنحرف او تضل . وبهذا يتعاقب الايمان مع
العلم فى تشييد صروح الحضارات ، ومن غير الايمان بالله ، واتباع
منهجه وهداه يضل الانسان وتخطىء الحضارة طريقها وتتصارع عناصرها
تصارعا يؤدى الى تدمير الحياة والأحياء « ومن أضل ممن اتبع هواه
بغير هدى من الله » (١٠) .

وهذه النتائج السيئة للحضارات المادية ليست نظريات للدراسة ،
وانما هى تجارب للذكرى والاتعاظ والتدبير .

فأله قد أهلك أمّا وأنى حضارات ودمرها على رؤس أصحابها لأنها قد ضلت طريقها ، وأخطأت سبيلها حين رفضت أن تخضع لأمر الله وتحقق منهجه وهداه « فصب عليهم ربك سوط عذاب — ان ربك لبالمرصاد » (١١) .

وعندما طغت الحضارة المادية على أوربا بهذه الطريقة السريعة ، فقدت أوربا معها دينها ، وضعف سلطان الدين نهائياً ، ولذلك بدأوا ينظرون الى الأمم الأخرى ليتوسعوا فيها ، وليصرفوا منتجاتهم بعد هذه الانطلاقة الحضارية المادية ، ولينشروا فكرهم وآراءهم بين الشعوب المختلفة .

ولعل أهم الشعوب التي ركز الغربيون النظر عليها هي الشعوب الإسلامية لما بينهم من عدااء ديني ، ولما تتمتع به البلاد الإسلامية من خيرات وموارد ، وموقع جذب انتباه الغربيين .

لذلك بدأت حركة استعمار الشعوب الإسلامية منذ القرن السابع عشر الميلادي الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، فتمكن الاستعمار الغربي المسيحي من السيطرة سيطرة تامة على المسلمين في وسط آسيا وشرقيها ، واتخذ له نقطة ارتكاز رئيسية في افريقية ، كما تمكن من مد نفوذه الى قلب العالم الاسلامي ومركزه الرسمي في منطقة الشرق الأدنى ، وبذلك طوق العالم الاسلامي من الشرق والغرب ، وسلط الاغبيه ودسائسه على بقية التجمعات الإسلامية الأخرى بين هذين الطرفين ، فوهنت هذه التجمعات ، وانحل عقدها ، يسقط بعضها اثر بعض تحت نفوذ المستعمر الغربي ، وما جاءت الحرب العالمية الاولى وانقضى اجلها حتى أصبح العالم الاسلامي كله تحت نفوذ هذا المستعمر .

ويهمنا من هذا الموضوع خطورة تدفق سيل الأجانب على البلاد الإسلامية وقيامهم بنشر الحضارة المادية بين صفوف المسلمين على اساس من اضعاف العقيدة الإسلامية وتوهينها ، وتخريج جيل غير مؤمن بالدين وبالرسالات السماوية .

وهما يؤكد صحة هذه النظرية المقال الذى كتبه المستشرق الفرنسى « هانوتو » يصف فيه المسلمين وعقيدتهم ؛ ويضع المقترحات الضرورية فى نظره لتوجيه سياسته فرنسا فى مستعمراتها الاسلامية تحت هذا العنوان (١٢) .

« اخترق المسلمون ابناء آسيا شمال القارة الأفريقية بسرعة لاتجارى حاملين فى حقائبهم بعض بقايا تمدن البيزنطيين ؛ تم تراموا بها الى أوروبا ، ولكنهم وجدوا فى نهاية انبعاثهم هذا مدنية يرجع أصلها الى اسيا بل أقرب فى الوصلة الى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم ألا وهى المدنية الآرية المسيحية ؛ ولذلك اضطروا الى الوقوف عند الحد الذى اليه وصلوا . وأكروهوا على الرجوع الى أفريقيا حيث ثبتت اقدامهم أحقابا منعاقبة ، ولكن لا يزال الهلال ينتهى طرفاه من جهة بمدينة القسطنطينية . ومن أخرى ببلدة غاس فى المغرب الأقصى معانقا بذلك الغرب كله .

« فى تلك البقعة الأفريقية التى أصبحت مقر ملك الاسلام جاءت الدولة الفرنسية لماغتته — جاء التدريس لويس الذى ينهى الى أسبابها بوالدته — ليضرم نيران القتال فى مصر وتونس ، وتلاه لويس الرابع عشر فى تهديده الامارات الأفريقية الاسلامية . وعاد هذا الخاطر نابليون الاول . فلم يوفق الى تحقيقه الفرنسيون الا فى القرن التاسع عشر ، حيث أخذوا على دولة الاسلام التى كانت لاتنى فى متابعة الغارات على القارة الأوربية . فأصبحت الجزائر فى أيديهم منذ سبعين عاما وكذلك قطر التونسي منذ عشرين عاما .

« اذن فقد صارت فرنسا بكل مكان فى صلة مع الاسلام ، بل صارت فى صدر الاسلام وكبدته ، حيث فتحت أراضيه ، وأخضعت لسلطوتها شعوبه وقامت تجاهه مقام رؤسائه الأولين ، وهى تدير اليوم شئونهم وتجبى ضرائبه وتحشد شبابه لخدمة الجندية وتتخذ منهم عساكر يذبون عنها فى مواقف الطعان ومواطن القتال » .

(١٢) محمد البهى « الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى » ص ٢٨ — ٣١ .

نرى من هذا الموضوع أن هانوتو يرى أنه يجب على المسلمين أن ينتقلوا إلى الحضارة الأوروبية الآرية المسيحية ، ويجب على شعوب أوروبا المسيحية الآرية أن تتعاون فيما بينها على دفع الخطر الإسلامي الكامن ضمن الوحدة الإسلامية الفكرية والروحية

معنى ذلك أن الغربيين يعملون على إضعاف المسلمين في إسلامهم أولاً وحضارتهم ثانياً . وفملاً استطاع الأوروبيون أن يدخلوا إلى البلاد الإسلامية كثير من المذاهب المادية والفكر المادى الذى سبب لنا مشكلات حضارية كبيرة ، وأغوى شبابنا ، مما يدعونا إلى البحث فى هذه المذاهب والأفكار لنحدد نوعية المشكلات الحضارية . أفكار فلسفية عقائدية مثل فلسفة هيغل والوجودية وأفكار اقتصادية وسياسية مثل التيار الشيوعى الماركسى ، والفكر الرأسمالى ، ومذهب الليبرالية الديمقراطية . وكل هذه الأفكار — كما سنبين فيما بعد — أدت إلى مشكلات حضارية فى المجتمعات الإسلامية ، وخلفت فى هذه المجتمعات أفراداً آمنوا بها — بحكم ضعف إيمانهم — وأفراداً قاوموها ودفعوها ، كما أنها أدت إلى نشأة حركات دينية لهدم مبادئ الإسلام — تحت اسم التقدمية — مثل حركة الأحمدية والقاديانية فى الهند ، والبهائية فى البلاد الإسلامية الأخرى إلى غير ذلك مما سنعرض له .

نظرية دارون

وسنبداً موضوعنا هذا ببحث عن نظرية دارون ، وكيف كانت سبباً فى خلق مشكلات فكرية وحضارية عند الشعوب الإسلامية .

والحقيقة أن نظرية دارون تعتبر من أخطر النظريات التى ظهرت فى القرن التاسع عشر ، وأوجدت مشكلات حضارية ، وعملت على بليلة الفكر الدينى ، إلى جانب أنها كانت بداية لموجة الألحاد التى سادت فى العصور الحديثة .

ولابد لنا أن نعطى فكرة عن دارون هذا ، فهو عالم بريطانى شهير ، له نظريات علمية من أهمها نظرية التطور والارتقاء ، وخلاصتها « أن الحياة الأولى للإنسان والحيوان والنبات بدأت على ظهر هذه الأرض بجرثومة أو جراثيم قليلة تطورت من حال إلى حال تحت تأثير عوامل طبيعية حتى وصلت إلى هذه التنوعات التى نراها وعلى رأسها الإنسان .

وعلى هذا فان الانسان عندهم بدأت حياته على ظهر الأرض بجرثومة صغيرة تحولت الى حيوان صغير ، ثم تدرج هذا الحيوان وارتقى الى حياة حيوانية بدائية ، فالى حيوانات اكبر ، فأكبر ريشيه ومجنحة ، ثم تحولت الى ذوات فقرات ، ثم ارتقت الى حيوان أشبه بالانسان ، ثم كانت نهاية هذا التطور انسانا اول لايعقل ولا يدرك ولا يتكلم . ثم انسانا كاملا ، وهو المشهود اليوم بعقله وتفكيره وإدراكه . ويقولون ان هذه التحولات والتطورات والترقيات جاءت بعد صراع مرير بين هذه الكائنات وعوامل الطبيعة وتقلباتها ، وبين نفس هذه الكائنات الحية بعضها مع بعض عبر آلاف القرون من أجل البقاء (١٢) .

وجه الالتداد فى هذه النظرية :

لابد من مناقشة الجانب الالحادى الذى حمل لواءه باسم هذه النظرية أرنست هيكل وأوبارين وقبلهما لامارك وغيرهم من مادييين وماركسييين استغلوا اهتمام الناس الشديد « علميا » بهذه النظرية واقتبسها على الاعتناء بها ودراستها فصاروا يتخذون منها شركا يصطادون بوساطته صغار العقول من البسطاء الذين قل حظهم من الثقافة الدينية فيرمونهم فى هاوية الالحاد ، وذلك عن طريق تفسيرهم لهذه النظرية تفسيراً يدخلون ببساطته « وباسم العلم » فى روع هؤلاء البسطاء المجردين من الحصانة الروحية والدينية أن واقع الوجود وطبيعة الكائنات الحية وتطورها، وتحول بعضها عن بعض ، واشتقاق بعضها من البعض الآخر ، كما هى « قواعد نظرية التطور والارتقاء » من انتخايب طبقى واصطفاء نوعى يجعل من غير الضرورى الاعتقاد بوجود خالق يتولى إدارة هذا السكون وتنظيمه لأن المادة — كما يزعمون — بطبيعتها وخصائصها الملازمة لها تقوم مقام الخالق فى ذلك .

فالجناح الالحادى من أنصار هذه النظرية يزعم أن الحياة الأولى جاءت نتيجة تفاعل طبيعى بين أجزاء من المادة ، هذه المادة التى يزعمون أنها كانت ولم تزل قادرة بطبيعتها على إعطاء الحياة ، ولهذا فهم ينكرون أن تكون الحياة من صنع قوة فوق الطبيعة .

(١٣) محمد احمد باشمىل « الاسلام ونظرية داروين » ص ٢١-٢٢

فهذا الجناح الالهادى — عندما يتحدث عن مراحل التطور والارتقاء يخرج من حسابه قوة مافوق الطبيعة « وهى القوة الالهية » لأن حالة المادة — بزعمهم لا تحتاج الى هذه القوة ، فالطبيعة ملازمة للمادة بحركتها الدائمة، هى التى تخلق وتبدع وتنوع وتطور وتصفى وتبيد .

بل انهم حاولوا أن يفسروا الطبيعة ويقولون ان ظهور الأحياء الى الوجود قديم بفضل الطبيعة مباشرة . وان تنوع الأحياء ، انما حدث بقوة الطبيعة الملازمة للمادة وعلى طريقة النشوء والتحول والارتقاء (١٤) .

ومنطقة الخطر فى نظرية التطور والارتقاء ليست فى كرنها لم تبلغ من الناحية العملية درجة الصحة واليقين . وانما فيها يتولد عن الايمان بها — فى محيط قصار النظر وضعفى الايمان — من نزعات الحادية وميول تحليلية وجودية تربط الانسان بما على وجهه الأرض من غرائز حيوانية ، وميول بهيمية ، وتقطع صلته بما سواها على اعتبار ان الانسان — كما هى نظرية دارون — فى الأصل حيوان .

ويذكر الاستاذ محمد قطب « ان العيب الرئيسى لنظرية دارون ليس فى الوقائع العملية التى بسطها فى كتبه ، وتابعه فيها أعوانه ومريدوه ، بقدر ما هو فى احياءات تلك النظرية التى خلفت طابعها الخطر ، لا فى افكار الجماهير وحدها ، بل فى اتجاه العلماء كذلك منذ عهده الى العصر الأخير » (١٥) .

ومن أهم الاعتراضات التى وجهت لمذهب دارون ماكتبه الأستاذ محمد فريد وجدى فى « دائرة المعارف » (١٦)

١ — عدم مشاهدة أى ارتقاء من أى نوع كان فى الأحياء الأرضية من عهد الوف السنين .

٢ — عدم وجود الصورة المتوسطة بين الأنواع اللازمة لمذهب

(١٤) باشميل « الاسلام ونظرية داروين » ص ٢٦—٢٧ .
(١٥) محمد قطب « الاسلام بين المادية والاسلام » ص ١٩ .
(١٦) محمد فريد وجدى « دائرة المعارف » ص ٣١ .

التسلسل كأن يوجد مثلا حيوان أرقى من القرد رتبة واحدة وأدنى من الانسان رتبة واحدة أيضا .

٣ — طول الزمان اللازم لحصول الترقى بين الأحياء ، فان عمر الأرض كما قالوا لا يكفى لاحداث كل مايرى من هذه الاشكال المختلفة غاية الاختلاف .

وهناك رأى آخر يدحض هذه النظرية يقول الأستاذ نديم الجسر :
ان الحيوانات البحرية الدنيا هي باقية حتى اليوم ، على الحالة التي كانت عليها فى ابتداء العالم ولم نجد انها تأثرت بناموس الارتقاء ، وان طوائف الأحياء الكبرى ، الدنيا منها والعليا ، وجدت منها آثار فى أسفل طبقات الأرض ، فلو كان ناموس الارتقاء أكيدا لوجب ان يكون الأعلى منها كذوات الفقرات فى أعلى الطبقات واننا نجد كثيرا من الأجناس والطوائف قد كانت فى العصور القديمة الأولى اكمل منها اليوم ، ونجد فى الطبقات الأرضية بعض حيوانات دنيئة فوق حيوانات عالية جدا (١٧)

والمهم فى نظرية دارون هذه انها اتخذت أساسا للمذاهب المادية المختلفة والفلسفات التى سادت الغرب بعد ذلك ، فقد استندت عليها الشيوعية واستند عليها فرويد فى نظريته الى غير ذلك من المذاهب الهدامة .

وقد حاول دارون فى كتابه « أصل الأنواع » ان يبين ان أنواع الأحياء كلها ترجع الى أصل واحد أو عدة أصول أوجدها الخالق ، وان الحياة سر يعجز كل البشر عن معرفته . معنى ذلك ان دارون قد اعترف بدون ان يدري — بأن لهذا الكون خالقا بل لقد صرح دارون نفسه بأن بحوثه الخاصة بنظرية التطور والارتقاء لا تستهدف الدعوة الى انكار الخالق، وليس فيها أى خطر على الدين (١٨) .

والمهم فى هذا الموضوع — كما يرى الأستاذ العقاد — ان صاحبى مذهب التطور والارتقاء « داروين وولاس تلميذه من بعده » لم يستندا الى

(١٧) نديم الجسر « قصنة الايمان » ص ١٦٥ .

(١٨) عباس العقاد « عقائد المفكرين » ص ٥٦ .

هذا المذهب فى انكار العقيدة الدينية ، ولم يزعم انهما يفسران سر الحياة أو سر الكون — واحداهما وهو ولاس — كان مؤمنا بالله وبحكمته فى مخلوقاته والاخر وهو دارون كان يأبى ان يوصف بالالحاد ويؤكد فى آخر أيامه ان الاستدلال بمذهب التطور على انكار الاله الخالق خطأ كبير .
وادعاء لاسند له من العلم ولا من التفكير الأمين .

هذا من ناحية موقف نظرية دارون الشخصى حيال مايفترئه الملحدون من شيوعيين وغيرهم من ادعاء مفاده ان بحوث هؤلآء الاقطاب « حول التطور والارتقاء — تقوم على انكار الخالق سبحانه وتعالى .

أما من ناحية جوهر نظرية التطور والارتقاء ، فإنه بالرجوع الى قواعد هذه النظرية يتضح لكل ذى عقل منزه عن الهوى انه ليس للملحدين فى أى من هذه القواعد سند علمى أو برهان يعتمدون عليه لتأييد نزعتهم الالحادية الداعية الى انكار وجود الله » .

بل ان بعضا من هذه القواعد اذا مالمعن الانسان فيه النظر يجسد انه لا يؤدى الى انكار الله تعالى وانما يهد الانسان بروافد من الايمان بعناية الله ورحمته وحكمته (١٩) .

موقف الاسلام من نظرية دارون :

يجب علينا كمسلمين مؤمنين بالله وبكتابه وسنة نبيه أن نتقف موقف الحذر وأن نحكم بالكفر والخروج عن الدين على من قال واعتقد فى :

١ — ان الحياة الاولى التى أشار اليها دارون فى نظريته قد وجدت مصادفة وانها حدثت بغير قدرة الله وارادته ، وانما تولدت من المادة نولدا ذاتيا — وان كل ادوار التطور والتحول والارتقاء قد حدثت تلقائيا أى بغير قدرة الله وعلمه وارادته كما زعم الآخرون بهذه النظرية من الملحدين أمثال لامارك وارنست هيكل واوبارين .

٢ — ان يسلم القبائل بهذه النظرية أن الانسان الأول الذى كان يعقل ولا يدرك ولا يتكلم هو أبونا آدم عليه السلام؛ وهذا لم يرد فى كتاب دارون ولكن قال به من اقتنع بصحة هذه النظرية من علماء الغرب .

ان فى القول الأول انكارا لوجود الله سبحانه وتعالى : وفى القول الثانى تكذيبا صريحا للقرآن الكريم ، لأن، ينفى قصة آدم وحواء — الوارد ذكرها فى القرآن الكريم — نفيا تاما يضاف الى هذا ان قصة وجود انسان أول لا يعقل ولا يدرك ولا يتكلم « كما هى قواعد نظرية دارون » هى قصة مبنية على الفرض والتخمين والظن ومن السفه ان ينفى الانسان خاصة المسلم — قصة آدم وحواء المذكورة فى القرآن الذى لا يأنيه الباطل من بيد يديه ولا من خلفه ليصدق قصة ليس لها أى ظل من الحقيقة، قصة أساسها الفرض والحدس والتخمين لا القطع واليقين (٢٠) .

بطلان نظرية دارون :

تميز الانسان — كما عرضنا من قبل — بخصائص لا توجد فى عالم الأحياء ، وهو الذى جعل « جوليان هكسلى » فى « الدارونية الحديثة » بتراجع عن الكثير من الدارونية القديمة التى قررها دارون .

يقول هكسلى فى كتابه « الانسان فى العالم الحديث » بعنوان تفرد الانسان .

« لقد تأرجح رأى الانسان كالخطر « البندول » فيها ينقلب بمركزه بالنسبة لبقية الحيوانات ، بين اعجابه الشديد أو التليل بنفسه ، تفصل بينه وبين الحيوانات هوة سحيقة جدا وحينما آخر هوة صغيرة جدا » .

وبظهور نظرية دارون بدأ الخطار « البندول » يتأرجح عكسيا ، واعتبر الانسان حيوانا مرة أخرى ، ووصل الخطار شيئا فشيئا الى أقصى مدى تأرجحه ، وظهر ما بدا أنه النتائج المنطقية لفروض دارون ، غالاتسان حيوان كغيره من الحيوانات ، ولذلك فإن آراءه فى معنى الحياة الانسانية والمثل العليا لا تستحق تقديرا أكثر من آراء الدودة الشريطية أو سكتريا

(٢٠) باشميل « الاسلام ونظرية دارون » ص ١٥٤ .

(م ١٣ — الاستشراق)

الباشلى ، والبقاء هو المقياس الوحيد للنجاح التطورى . ولذلك فكل الكائنات الحية متساوية القيمة ، وليست فكرة التقدم الا فكرة انسانية ، ومن المسلم به أن الانسان فى الوقت الحاضر سيد المخلوقات، يمكن تد تحليل محله القطة او الفسار .

« ولم تصغر الهوة هنا بين الانسان والحيوان نتيجة المبالغة فى اعطاء الحيوان صفات الانسانية ، وانما نتيجة التقليل من الصفات الانسانية فى الانسان ، ومع ذلك فقد ظهر منذ عهد قريب اتجاه جديد سببه فى الغالب زيادة المعرفة ، واتساع نطاق التحليل العلمى .

« ان الخطار يتأرجح مرة ثانية ، وتتسع الهوة بين الانسان والحيوان مرة أخرى وبعد نظرية دارون لم يعد الانسان يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيوانا ، ولكنه بدأ يرى نفسه حيوانا غريبا جدا ، وفى حالات كثيرة لامثيل له . وتحليل تفرد الانسان من الناحية البيولوجية لم يبلغ تمامه بعد — وما هذا المقال الا محاولة لعرض مركزه الحالى .

« واول خصائص الانسان الفذه واعظمها وضوحا قدرته على التفكير التصورى . ولقد كان لهذه الخاصية الأساسية فى الانسان نتائج كثيرة ، وكان أهمها نمو التقاليد المتزايدة ، ومن أهم نتائج تزايد التقاليد او اذا شئت من أهم مظاهره الحقيقية مايقوم به الانسان من تحسين فيما لديه من عدد وآلات ، وان العدد والتقاليد لهما الخواص التى هبأت للانسان مركز السيادة بين سائر الكائنات الحية وهذه السيادة البيولوجية — فى الوقت الحاضر — خاصية أخرى من خواص الانسان الفذه ، وهكذا يضع علم الحياة « الانسان » فى مركز مماثل لما انعم به عليه كسيد المخلوقات كما تقول الاديان » .

« والانسان لا مثيل له أيضا كنوع مسيطر ، اذا تقسمت كل الانواع الأخرى المسيطرة الى المئات وآلاف كثيرة من الانواع المنفصلة ، وتجمعت فى اجناس ونصصائل عديدة ومجموعات اكبر ، اما الانسان فقد حافظ على سيادته من غير انقسام ، ولقد تم تنوع سلالات الانسان فى حدود نوع واحد .

« وأخيرا فإن الانسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية في طريقة تطوره .

وللإنسان خاصية أخرى بيولوجية ، وهي تفرد تاريخ تطوره ،
وإنما خاصية الإنسان الجوهرية ككائن حي مسيطر فهي « الفكر المعنوي » (٢١)
معنى ذلك أن نظرية التطور والارتقاء التي قال بها دارون وأخذ
بها الكثيرون نظرية غير ثابتة ثبوتا قاطعا لا من الناحية العلمية
ولا من الناحية الحسية .

وإذا كان دارون قد اعترف صراحة بأن الطريقة التي وجدت بها
الحياة الأولى على وجه الأرض لاتزال مجهولة حتى يومنا هذا . فإن جهله
بالطريقة التي تسلسلت بها الكائنات الحية ، وتنوعت « كما يزعم »
لا عن جهله بالطريقة التي وجدت بها الحياة الأولى على وجه الأرض ،
وكيف ومتى وجدت .

فالتابع لما كتبه ونشره دارون عن نظرية التطور والارتقاء . يجد
أن دارون لم يبين هذه النظرية على أسس علمية قاطعة ثابتة ، لا يمكن
الرجوع عنها ، وإنما بناها على افتراضات وتقديرات وتخمينات
تحتل الخطأ والصواب .

فجميع الذين قالوا بنظرية التطور والارتقاء وعلى رأسهم دارون
يعترفون بأن هذه النظرية هي فرض علمي يعوزه الدليل الحسي ، بل أن
جوهر بحوث علماء التطور والارتقاء جميعها تشير كلها إلى أن أصول هذه
النظرية وفروعها هي من باب الافتراض لا القطع والتقدير لا التأكيد .
وإذا رجعنا إلى مكان مذهب التطور من العلم لانجد من يحسبه علما قاطعا
مفروغا منه من أصوله وفروعه وأكبر أنصاره لا يدعى له أكثر من أنه
صحيح في بعض ملاحظاته ومقارناته (٢٢) .

(٢١) سيد قطب « الإسلام ومشكلات الحضارة » ص ٣٩-٤١ .

(٢٢) عباس العقاد « عقائد المفكرين » ص ١٢٠ .

ولعل من أخطر آثار فكر دارون ونظريته هو انهماك العالم الغربي بعد ذلك فى البحث العلمى من هذا المنطلق المادى ، محاولين الاستناد على ما جاء بهذه النظرية ، بل محاولين تفسيرها على النحو والاتجاه الذى يرضيهم فى ضوء المادية الحديثة .

واذا أغمضنا الطرف عما فى هذه النظرية من مكامن الضعف ، ومواطن النقص من الوجهة العلمية والفعلية ، ونظرنا الى الفتن التى قد اثارها هذا التخييل الباطل لاهلاك الانسانية والفتك بها بعد ان دخلت الفلسفة والاخلاق والعلوم العمرانية والاجتماعية . فلعل أحدا لا ينكر ان نظرية دارون هذه قمة النظريات التى ناصبت الانسان العداء ، وعملت للقضاء على انسانيته ، فقد حاولت ان تجعل الانسان يعتقد انه ليس الا حيوانا كسائر الحيوانات ، ومن نتائجها ان بنى آدم لايتعاملون فيما بينهم الا كما يتعامل الوحوش فى الغابة ، ومن تأثيرها ان الانسان بدلا من يستمد القوانين والمبادئ لحياته من المصادر السامية انما يبحث عنها فى حياة البهائم والوحوش . وهى التى عرضت على الانسان نظام الحياة كميدان للصراع والقتال ، وان من يبدى قوته وجدارته فى هذا الصراع يستحق الحياة . ومن نتائجها ان الأمم والشعوب جعلوا الدنيا ميدانا للتنازع والصراع ليس مقتضى الفطرة ولكن لأن القوى من حقه ان يبيد الضعيف (٢٣) .

نظرية فرويد وأثرها على الحضارة الإنسانية

أثرت نظرية فرويد فى الجنس تأثيرا خطيرا على الحياة الاجتماعية فى أوروبا والشرق فقد أدت نظريته فى العقل الباطن ، وفى التفسير الجنسى لمختلف نواحي سلوك الانسان الى انقلابات خطيرة .

وترجع خطورة نظرية فرويد الى اصرار زج الجنس فى كل مجالات النشاط الحيوى للانسان ، وقيل فى هذا الصدد انه تأثر بدراسة الشواذ الذين كان يفحصهم ، ثم أخطأ فى تعميم احكامه المستقاة من حالات شاذة على بقية البشر الأسوياء .

(٢٣) أبو الأعلى المودودى « الاسلام فى مواجهة التحديات » ص ٢٥.

ولكن النقد الأول الذى ينبى أن يوجه الى فرويد فى أساس نظريته الى الانسان على أنه كائن أرضى بحث ، لا يرتفع بمشاعره . وعواطفه من عالم الارض الا فى حالات الشذوذ (٢٤) .

ولعل نظريته هذه اتخذها من نظرية دارون السابقة الذكر التى تنظر الى الانسان على أنه مخلوق أرضى عانته كله محصور فى هذا النطاق الضيق الغريب .

وتأثر فرويد بدارون من ناحية أخرى حين تابعه فى قوله ان غرائز الانسان هى الامتداد الطبيعى لغرائز الحيوانات السابقة فى سلم الصعود مضافا اليها قدر من التطور ، هو القدر الذى نتج من الظروف التى صادفت الجد الأعلى للانسان فأثرت فيه ، وانتجت منه الكائن البشرى على مر الايام . فالنظرة الحيوانية للانسان ان كان يصلح تطبقها فى علم الحياة . من الخطأ ان تطبق كما هى فى علم النفس لانها تؤدي الى نتائج بعيدة عن الصواب .

ونظرية فرويد التى وجدت فى كتاب *The Contribution to Sexual Theorg* تؤدي الى أن الغريزة الجنسية هى التى تحرك الحياة كلها ، وهى نبع المشاعر البشرية جميعا بلا استثناء ، كما أنه يؤكد أن الحضارة كلها ناشئة من الغريزة الجنسية ، وعلى هذا النسق من التعسف والسخف يجرى فرويد فى تفسير السلوك الانسانى كله على ضوء الجنس ، وما يحتاج الانسان لكى يؤمن بقوة الدافع الجنسى وتعمقه أن يصل الى كل هذا التعسف (٢٥) .

والدين فى رأى فرويد اختراع محض خلقت له الرغبات البشرية المرفوضة لكى تجد جنة خيالية لحركة حرة من غير عائق ، وهم يقولون ان العقائد والاراء الدينية ليست شيئا أكثر من نظريات بدائية عن الطبيعة حاول البشر استخدامها فى تخليص الحقيقة من بشاعتها الأصلية وإظهارها فى صورة اقرب الى هوى القلب مما تسمح به حقائق الحياة ، أما ان

(٢٤) حيد قطب « الانسان بين المادية والإسلام » ص ١٦ .

(٢٥) المرجع السابق ص ١٦٨ .

هناك أديانا وصورا من الفن تهيب لنا نوعا من الفرار المزرى من حقائق الحياة ، فأمر لا أنكره وكل الذى أجادل فيه هو أن هذا الحكم لا يصدق على الأديان كلها ، فالعقائد والآراء الدينية لها من غير شك امارة ميتافيزيقية (٢٦) .

هذه هى الآراء المسادية التى نادى بها فرويد ، والتى أخذ بها الغرب واعتقدوا فيها ، وبذلك أخرجوا الإنسان من الوضع الكريم الذى رسمه الإسلام ، ووضعته فيه حضارة الإسلام ، وجعلوه يتردى الى أسفل الدرك فى صورة بهيمية حيوانية ، فهو يجرى وراء شهواته بدون ضابط ، وبدون نظام ففى هذه الحالة لانرى هناك فرقا بين الإنسان والحيوان ، فالإنسان الذى ميزه الله سبحانه وتعالى بالعقل ، ووضع له الأسس والقواعد يترك ذلك ليسير وراء شهواته فيعيش الإنسان فى مجتمع الغابة .

ان هناك وهما صارخا يستولى على أفئدة الناس فى الغرب ويتسلسل انى المستعبدى فى الشرق فيما مافى نفوسهم من تفاهة وقراغ ، انهم يظنون أن العظمة العلمية تستتبع حتما أن يكون الإنسان كله قد ارتقى ، فلا بد اذا ان تكون الأخلاق والعادات والتقاليد الموجودة فى عصر الذرة افضل من مثيلاتها فى العصور السابقة ، التى لم يكن العلم فيها قد وصل الى هذه الأسرار ، وما دام الناس لا يؤمنون بالله ولا يتبعون قواعد الأخلاق ، ويستبيحون الفوضى الجنسية . وينكرون القيم العليا ويعتبرونها خرافة ، فلا بد اذا أن يكون هذا كله هو الدمار الحقيقى للإنسان والانسانية (٢٧) .

ذىوع نظرية هيغل :

من الضلالات الكبرى التى تدفقت مع الحضارة الغربية على الإنسانية ، وسببت للعالم الإسلامى مشكلات حضارية ضخمة ، ترجع بعضها الى الفلسفة التى وضعها هيغل للتاريخ ، وأسس على مقدماتها كارل ماركس بناء تفسيره المادى للتاريخ فيما بعد وهيغل هذا فيلسوف المانى ظهر فى أوربا فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر ،

(٢٦) محمد البهى « الفكر الإسلامى الحديث » ص ٣٨٦ .

(٢٧) محمد قطب « المرجع السابق » ص ٢١٨ .

وكان يشغل أستاذا لكرسى الفلسفة فى جامعة هاينلبرج سنة ١٨١٦
ثم فى جامعة برلين سنة ١٨١٩ (٢٨) .

وخلاصة فلسفة هيغل للتاريخ « ان مايحصل فى الحضارة الانسانية
من تطور وارتقاء انما يحصل بظهور الأضداد وتناطحها وتمازجها فيما بينها .
وان كل دور من ادوار التاريخ فى حد ذاته وحدة او كائن جسمى حى .
وان مختلف نظريات الانسان من سفسية واقتصادية ومذهبية وفخائية ،
وعلمية وعقلية ودينية تكون على مستوى معين فى ذلك الدور ويكون بها
التناسب والتلاؤم والوحدة المتماسكة ، كأنها جوانب مختلفة لهذا الكائن
الحى ، او الوحدة الزمنية تسرى فيها روح الدور بكامله .

وان المبادئ والنظريات والأفكار الانسانية التى تقوم بالنوحيه
فى هذا الدور عندما تصل بالحضارة الانسانية ومدنيها الى قمة الطاقة
والصلاحية ينبثق من حضان هذا الدور نفسه عدوه الذى يترعرع فيه .
ويأتى أشده أى ان طائفة أخرى من الأفكار الحديثة والميول الحديثه
والنظريات الحديثه والمبادئ الحديثه لا تتولد الا من المقتضى الطبيعى
لهذا الدور الآخذ فى الزوال نفسه ثم تشرع فى محاربة الأفكار البالية
القديمة » .

يستمر الصراع على قدم وساق بين القديم والجديد الى ما بعد
الزمان ، وفى النهاية يحصل التمازج بينهما بعد الأخذ والرد . ويخرج الى
حيث الوجود حضارة عصرية جديدة خالطة من عناصر قديمة وأخرى جديدة .
وهكذا يفتح الدنيا دور جديد من ادوار التاريخ .

ثم عندما ترتقى روح هذا الدور الجديد فى اعلى مدارجها على غرار
الدور الذى سبق يظهر من حضانها أيضا عدوها ، وينشب الصراع العنائدى
الذى يتمخض عنه أيضا خليط جديد مكون من عناصر من هذا وعناصر من
ذاك ، وبعد الأخذ والرد يصير روحا لدور جديد للحضارة والادنية (٢٩) .

(٢٨) عبد الفتاح الديدى « فلسفة هيغل » ص ٦١ .
(٢٩) ابو الأعلى المودودى « الاسلام فى مواجهة التحديات »

وهذه العملية للارتقاء هى التى يعبر عنها هيجل حسب اصطلاحه بالعملية الجدلية فكان مجال التاريخ ، وحلبة الدهر تجرى فيها — فى نظره — مجادلة منطقية متسلسلة وبموجبها يقوم أولا الدعوة ثم يبرز صدها جوابها ، وبعد ان يطول بينهما الصراع فان العقل الكلى او الروح العالمية تعتد بينهما الصلح اى تقبل شيئا من هذا وجانبها من ذلك وتجعل منهما مزيجا . وهذا المزيج الحضارى عندما يتقدم قليلا يتحول الى دعوى ثم يواجه هذه الدعوة جوابها ، ثم ينعقد بينهما الصلح بعد نشوب النزاع بينهما مدة ، ويأتى الى حيز الوجود مزيج جديد وهلم جرا . .

فالعملية الجدلية بموجب نظرية هيجل عملية اجتماعية كلية . وبعبارة أخرى ان الحضارة الانسانية بكل شعبها وفروعها فى كل عصر من عصور التاريخ بمثابة جسد حى أو كائن حى ، وليس الأفراد او الطوائف الا بمثابة أعضاء او أجزاء لهذا الجسد فعلى هذا لا يمكن لفرد من الأفراد او لطائفة من الطوائف ان تتحرر من طبيعة عصرها الجماعية او من الروح العامة لمدينة عصرها وحضارته ، فكل انسان مهما كان كبيرا ، ومن المع الشخصيات التاريخية وأبرزها ، ليس فى هذه اللعبة الجدلية أو الصراع الكلى الداخلى الا بمثابة قطعة من قطع البيدق فى لعبة الشطرنج (٣٠) .

والواقع ان خطورة هذه الفلسفة الهيجلية على المدنية الحديثة وعلى الانسانية ترجع الى انها قد جعلت وجهات نظر اهل العلم فى العصر الحاضر عن الدين والأخلاق والحضارة والاجتماع خاطئة من حيث الأساس والمبدأ ، والذين اقتنعوا بهذه الفلسفة سيطر عليهم أمران اثنان .

١ — ان الحضارة بجملةتها فى كل عصر من العصور التاريخية وحدة، وان كل ما يوجد فى عصر من العصور من الأخلاق والقوانين والدين والعلم والفلسفة والعلاقات الدولية انما هو فى حقيقة الأمر مظاهر متنوعة للطبيعة الاجتماعية او الروح العالمية لذلك الزمان .

٢ — ان أى مدنية من مدنات الانسان عندما تتضح وتتبلور وتبلغ ذروة كمالها فان طائفة جديدة من الميول والأفكار والنظريات والتصورات تبرز الى الوجود من بطن تلك المدنية نفسها وتشرع فى محاربة الأفكار

(٣٠) أبو الأعلى المودودى ، المرجع السابق . ص ٢٨ .

والنظريات القديمة التى تخرج الى المسرح مدنية جديدة يبقى فيها كل ما فى المدنية القديمة من العناصر الصالحة ، وتحل محل العناصر غير الصالحة عناصر غالبه من الأفكار والميول والنظريات الجديدة .

ووجه الخطورة على الاجيال الاسلامية من انتشار هذه الفلسفة وغيرها يرجع الى :

١ — ان هؤلاء لا يعترفون بالحضارات القديمة ، ولا يعترفون بأدوار الانبياء والرسل .

٢ — تصورهم ان كل ما يوجد فى عصر خاص من عصور التاريخ من الأفكار والتصورات الدينية والخلقية والقانونية ولد من النظام الاقتصادى الراجح فى ذلك العصر .

ومعنى ذلك أنه كلما تغير أسلوب انتاج وتوزيع أسباب المعيشة للانسان فلا بد أن يصاحبه التغير الشامل فى الدين والأخلاق والقانون . وهذا لا يتفق مع ما جاءت به الشرائع السماوية .

٣ — سيطرة الفكرة التى نادى بها هيجل على عقول الشباب وهى « ان الانسان فى مسرح التاريخ ليس الا ممثلا لا شعور له ، رلا اختيار ولا ارادة له ، وان الله هو الذى يطرح الأفكار المتعارضة على بساط المسرح بوساطة الناس ويجعلهم يقتتلون أولا ، ثم يعقد بينهم الصلح ، ويحدث فيهم صورا جديدة للفكر والخيال ، فهذا أيضا قياس فاسد لا أساس له من الصحة ، ولا تؤيده حقيقة علمية .

معنى ذلك أنهم نفوا عن الانسان الارادة والعقل التى خص الله بها الانسان عن بقية مخلوقاته ، ورفعوه عن مرتبة الحيوان ، وأنه دعا الى أعماله دائما للتفكر والتدبر لمعرفة عظمة الله عز وجل وقدرته ونعمه على عباده وللتمييز بين الخير والشر » (٣١) ولو أن هيجل قد درس القرآن الكريم ، لما لقي فى فهم حقيقة الانسان وادراك القانون الأساسى لارتقاء المدنية الانسانية من العثرات ما قد لقي باللجوء الى الظن والتمسك

(٣١) صلاح الدين المنجد « الاسلام والعقل » ص ٥٩ .

بأذيال التخمين ، لأن ماقد يتقدم به القرآن من علم الانسان وفلسفة التاريخ يحل بصورة صحيحة ، وبأسلوب مقنع جميع تلك المسائل التي قد ارتبك فيها هيجل وغيره من فلاسفة الغرب (٣٢) .

فلا بد على الشباب المسلم ، ألا ينجر وراء هذه الفلسفة الجاهلة التي تخرج الانسان عن دائرة انسانيته وتجعله عبدا لحيوانيته ، وما بالنا لو وجدنا حضارتنا قد امتزجت بها أفكار هدامة مثل هذه ، وجرى وراءها كثيرون ممن لادين لهم ، فسرى أن الفساد والانحلال والجرائم الخلقية ستزيد وتنتشر نتيجة لانتشار الدعوة الى سيطرة بهيمية الانسان على ارادته وانسانيته .

ان الدين الاسلامي وحضارته يرفضان هذه الأفكار لأن الله سبحانه وتعالى وهب الانسان مواهب مختلفة من العقل والوعى وقوة اكتساب العلم والرأى وجعل له غرائزه ليستخدمها وقتما يشاء ، وعليه أن يطوعها لارادته لا يجعلها تسيطر عليه ، لأن الله أعطاه طريقين طريق الخير والشر « وهديناه النجدين » ، وطلب منه أن يميز بينهما ، فصور له سبل كل طريق من هذه ، وعاقبة السير فيه وله أن يختار .

الوجودية وأثرها على الحضارة الإسلامية :

الفلسفة الوجودية هي فلسفة الذات الانسانية المتفردة دون ارتباط بعيرها من الذوات ، وهي فى واقع الأمر ليست فلسفة ، ولكننا لانجد لها اسما فى الواقع يمكن أن يعبر تماما عنها فنستعير لها كلمة فلسفة .

ومن أهم من نادى بالوجودية فى الغرب كير كجارد ، وهيدجر ، وسارتر .

والوجوديون لا يقيمون وزنا للقيم التي تربط الافراد بالمجتمع ، ولا يحفلون بما يوحى به العقل النظام مالم يكن ذلك فقط متفقاً مع أهوائهم

مصادفة ، انما العبرة عند الوجودى الأسيل بالتجربة الشخصية
والمعاناة الذاتية .

ومن هنا تنشأ فكرة اللادينية . اذ الوجودى لا يعترف بشيء غير
مرئى وغير محسوس ، غير واضح فى نفسه فالقواعد والتقاليد والنظم
والأديان هى أفكار متالية وتشريعات وتوجيهات لم يضعها الوجودى .
ولم يساهم فى وضعها فهو لا يعترف بها (٢٢) .

والوجودى لا يلتفت الى الورا لينظر ما خلفه السابقون ، ولا يربط
نفسه بأفكارهم والدين عندهم خرافة لانه نسيج من الاتجاهات العقلية او
الغيبية يجب أن تؤمن بها ولو لم تحسها فى نفسك . وليس معنى هذا
أن الوجودية تسقط عالم الفكر من حسابها وانما لها فى ذلك منطقها الخاص .
فبينما نجد الفلاسفة يجعلون الفكرة سابقة على الوجود اذا بالوجودى
يجعل ذاته قائمة أولا ومنها بعد ذلك تنبثق الاتجاهات الفكرية وقد تسربت
افكرة الوجودية الى كثير من النفوس النى عانت بعد الحرب العالمية
فراغا روحيا هائلا ونهض الذين قضى عليهم أن يستأنفوا الحياء من تحت
انقاض عالمهم وهم يمسحون عن وجودهم غبار الانهيار الذى انهارت معه
اعصابهم . فأصبحت القيم المعنوية .

وكان لابد لكثير من الناس أن يجد له راحة يصنعها بنفسه يستمد
منها فلسفته الجديدة ، فبرزت الوجودية من مخبئها القديم . ووجدت
مرعاها الخصب فى أوساط الشباب .

وقد ساعد على ذلك عجز رجال الدين الذين لم يتمكنوا من الوقوف
أمام هذه الأفكار وقد بدأت تنتشر هذه الأفكار الى الأوساط الاسلامية فى
صور أدبية فى قصص ومسرحيات وروايات عالمية من أهمها ماكتبه سارتر
والبير كامو . فانتشرت هذه الأفكار الشاذة التى تدعو الى الأباحية
فى كل شيء .

وهى تدعو الى الحرية التى ماهى الا عملية عزل مسنمر وانفصال

(٣٣) محمد لبيب البوهى « الوجودية والاسلام » ص ١٨ .

من المجتمع الانسانى وما دامت الوجودية ترى ان الانسان مقضى عيه حتما بالفشل والخسران وان الوجود نفسه باطل الأباطيل ، فما معنى هذه الحرية التى تنادى بها الا أن تكون دعوة الى ممارسة الانحطاط باعتباره الصفة اللازمة للوجود (٣٤) .

وحينما نسلط بعض أضواء الاسلام على الوجودية انما نعى بذلك العقيدة ، فالاسلام رمز للعقائد السماوية ، وبينما يعمل الوجودى على تنقيت المجتمع ونسف تجمعاته ليذهب كل فرد فى طريقه نرى ان العقيدة الدينية تعمل على تجميع القوى الفردية ، فالوجودية تدعو الى الفردية والدين الاسلامى يدعو الى الجماعية والتضحية فى سبيل الغير والتعاون وانكار الذات .

فالوجودى عدو اله ، والذى يعسدى الله ، انما يعسدى كل شىء حتى نفسه .

الماركسية الشيوعية كمشكلة من مشكلات الحضارة :

اكتسب الاعلام الشيوعى منذ السنوات الاولى للثورة الحمراء قدرات لم تعرف من قبل ، اذ أصبح قوة مؤثرة فى صنع الفكر وتوجيه الحركات الثقافية فى انحاء العالم ، ويكفى للتدليل على حجم هذا الاعلام ماورد فى احصاءات الأمم المتحدة أخيرا من أن الاتحاد السوفيتى يمثل المركز الاول فى انتاج الكتب اذ يصدر يوميا ٣٧٠.٠٠٠ كتاب أى ما يوازي ربع انتاج العالم ، ويبلغ ما تنتجه المطابع السوفيتية فى الدقيقة الواحدة ٢٠٥٠٠ نسخة ، ولعل فى هذه الأرقام ما يكفى بل ما يصرح بالمراد . ونجاح الاتحاد السوفيتى فى ادراك هذا المستوى العالمى من الانتاج يعود انى ما نقرر خلال الأيام الاولى لقيام الثورة ، فقد أصدرت الحكومة فى

(٣٤) محمد لطيف البوهى « الماركسية والاسلام » ص ١٠٤ .

١٩١٧/١٢/٢٩ م مرسوماً حددت فيه مبادئ ونظم نشر الكتاب (٣٥) .

ويعتقد الشيوعيون أن الصحافة والكتب من أهم وسائل الثورة النقابية أو بتعبير آخر من أهم وسائل الانقلاب الفكرى الذى ينشدونه ، ولا شك أن الكتب والرسائل المؤلفة بذكاء من امضى الأسلحة فى القضاء على الافكار والنظرات المعارضة ، وبث الآراء والتصورات الماركسية .

وتقول الأرقام : أن عدد الجرائد فى الاتحاد السوفيتى ٧٩٣٧ ، ويبلغ مجموع النسخ من كل طبعة ١٢٠ مليون ، ويصدر منها فى العام الواحد ٢٦ مليار ، ٦٥٥ مليون نسخة ، أما عدد المجلات فقد بلغ ٤٧٠٤ يصدر منها فى كل طبعة ١٣٢ مليون نسخة ، وبديهي أن هذا الانتاج الضخم يتوزع على روسيا وغيرها من المؤسسات الشيوعية فى أرجاء العالم ، وهو يطبع باللغات المحلية واللهجات الوطنية (٣٦) .

ولابد لنا أن نعطى فكرة عن ماهية الشيوعية الماركسية ، وكيف استطاعت أن تنشر فكرها فى العالم حتى أفقدته مثله ودينه وتاريخه بل آدميته .

قامت فلسفة كارل ماركس — وهو يهودى روسى — على أساس الفكر المادى التاريخى وقد أسس عليها حتمياته فى التغير الاجتماعى ، كذلك التبشير بالحكومة العمالية العالمية، وديكتاتورية الطبقة العاملة، وبالمجتمع الانسانى عديم الطبقات .

وتعود فلسفته الى الفكر المادى التاريخى ، لأنها تستخدم تاريخ المجتمع البشرى — كما يدعى — فى علاقة هذا المجتمع بالاعتقادية «المادة» وتقنن تبعاً لذلك قوانين اجتماعية يخضع لها المجتمع فى مستقبله وتطوره .

(٣٥) محمد الفزالى « مبادئ الحق » ص ١٣٩ ، نقلًا عن ابراهيم دسوقي أباطة « رسالة عن المخطط الشيوعى » .

(٣٦) المرجع السابق .

ويعلق زعيم من زعماء الشيوعية على ذلك بقوله « ان على حزب طبقة العمال الا يقيم اعماله على مبادئ العقل البشرى المجردة ، ولكن بقيمها على الأحوال المقررة للحياة المادية للمجتمع باعتبارها التوى الفاصلة للارتقاء الاجتماعى » (٢٧) .

ويقول انجلز من زعماء الماركسية « ان العالم المادى ندركه بحواسنا ، والذي نحن جزء منه ، هو الحقيقة الوحيدة . وليست المادة من انتاج العقل : بل ان العقل ماهو الا اسمى انتاج للمادة . ويذهب الى ان العالم بطبيعته مادى والظواهر المتضاعفة للعالم تشتمل على اشكال مختلفة من المادة فى تحرك وارتباط الظواهر واعتماد بعضها على بعض هو قانون ارتقاء المادة ، وليس من حاجة الى الروح الشاملة ، فهناك ايمان بنظرية انشوء والارتقاء التى قال بها دارون ، ومن ثم فهناك انكار لوجود الله » (٢٨) . .

ومن هذه النظريات نرى ان الائتصاد او المادة هو المحرك للمجتمع فى تغييره وللأفراد فى تطورهم الفعلى ، وفى التأثير فى مجرى حياتهم ، كما تأخذ من أحداث التاريخ فى ماضيه دليلا على هذا الربط بين التغيير الاجتماعى والوضع الاقتصادى ومصدرا ايضا للتنبؤ ، او الحتمية كما يذكر ماركس — بما سيكون عليه المجتمع الانسانى فى غده تبعا للتغير الاقتصادى (٢٩) .

فطالما كان هناك فى الماضى مجتمع يملك مصادر الثروة فيه شخص واحد هو المالك المطلق ثم تحول الى ملاك عديدين هم اصحاب القطاع فى

(٢٧) فؤاد شبل « الدستور السوفيتى » ص ٢٨ .

(٢٨) احمد جمال الدين « نقد النظرية الماركسية » ص ٣٣ .

(٢٩) محمد البهى « تهافت الفكر المادى التشاريخى بين النظرية والتطبيق » ص ١٣ .

الأراضي الزراعية الذين يكونون في مجتمع الاقطاع ، ثم تحول مجتمع هؤلاء الى مجتمع رؤوس الأموال في الصناعة ، فلابد أن يتحول مجتمع اصحاب رؤوس الأموال الى مجتمع آخر يغيره تماما ، وهو مجتمع عمال الصناعات .

ان السبب في تحول المجتمع هو مبدأ النقيض ، أي وجود تناقض بين الشيء ونقيضه وهذا مايدعوا حتما الى انتقال الشيء الى نقيضه .

فمجتمع الملك المطلق كان ومعه نقيضه ، وهو الآخرون الذين لا يملكون شيئا مما يملك ، فتحول الى مجتمع هؤلاء الآخرين المهدمين بسبب العداء بين النقيضين ، والصراع بين الطرفين (٤٠) .

وقد عملت الماركسية على تحقيق هدفها بالوسائل التالية :

١ - الملكية الجماعية لوسائل الانتاج الثلاث : الأرض - رأس المال - العمل وتحريم الملكية الخاصة لهذه الوسائل .

٢ - محاربة الفردية بجميع خصائصها ، وعدم الاعتراف بها في النظام الجماعي .

٣ - تبني الصراع بين الطبقات كوسيلة للتطبيق الاشتراكي ، والمجاهرة بأنه لم يكن جميع الناس اخوة في أي حال من الأحوال في نظر ماركس ، بل كانوا أعداء طبيعيين يتصارعون ، ولذلك كان شعار ماركس في البيان الشيوعي « يا عمال العالم اتحدوا » وتجنب عن قصد أن يقول يابني الإنسان اتحدوا .

٤ - العمل على تغيير العالم بجميع نظمته ، كما صرح بذلك ماركس لتفسيره على ما هو قائم عليه من الخصائص الفردية والدولة السياسية ولا يكون ذلك التغيير عندهم ، الا بتدمير النظام القائم بجميع لوازمه

وخصائصه ، من دين وقانون وأخلاق ، وعدالة ، وعدالة بين الطبقات ، باعتبارها كلها عندهم من خصائص هذا النظام الرجعى والبورجوازى ، وان مراعاة التعاليم الاخلاقية تضعف من حدة الصراع بين الطبقات ، كما اكد على ذلك ماركس نفسه .

ه — ان ذلك التدمير لا يكون الا بعمل ثورى وذلك لقسم الامة ، والاعتماد على الثوريين منها ، واحلال روح الثورة والصراع مكان روح الحب والاخاء .

٦ — تصفية الدولة بعد مرحلة حكم ديكتاتورى يتسلمه طليعة طبقة البروليتاريا وبعد ان لا يبقى فى المجتمع غير طبقة البروليتاريا ليحيا الناس عندئذ فى مجتمعات خيالية غير مركزية تعمل وتنتج ، من نير دولة ولا قيادة سياسية ، ولا قانون ولا نظام الا مايعارف عليه المقيمون فيما بينهم من سلوك طوعى لا اكراه فيه ، ولا سلطة فوقه لتحميه (٤١) .

وزاد فى خطورة الوضع ذلك الصراع الرهيب الذى تمام حينئذ فى اوربا خاصة فى القرن التاسع عشر مابين الكنيسة والاشتراكية ، فقد انهزمت الكنيسة امام الاشتراكية وكانت الاشتراكية تهدف الى القضاء على الكنيسة بوصفها ديناً ، والدين عندهم من خصائص الرجعية والبورجوازية ، فتحملت الكنيسة عندئذ وحدها تلك الصدمة ، ولم تقو على ردها ، وكانت الكنيسة كدين توجه سلوك الامة ، والحكم ، فلما انهزمت كان انهزامها انهزاماً لكل دين (٤٢) .

وبذلك نرى ان الشيوعيين قد نجحوا فى تنفيذ حركتهم على نطاق دولتهم ، وفرضوا نظرية كارل ماركس التى بينا فدواها ، وبذلك نراهم قد عملوا على دراسة الحياة الاجتماعية ففسروا تطور المجتمع وارجعوا

(٤١) محمد معروف الدواليبى « الاسلام امام الرأسمالية والماركسية » ص ١٢ — ١٤ .

(٤٢) المرجع السابق ص ١٧ .

حوادثه الى اسباب مادية بحثه بحيث لا يتركون شيئا منها للمصادفة وللارادة الالهية او للاسباب الخارجة عن الطبيعة ومن ثم نراهم قد أرجعوا كل شيء حتى الدين والأخلاق والفكر والفلسفة والثقافة والقانون والسياسة الى انعكاسات للاحوال الاقتصادية ، والمصالح الطبيعية ؛ وأمدوا جذورها الى الظروف المادية للحياة ، وتاريخ ارتقاء المجتمع عندهم قبل كل شيء تاريخ ارتقاء الانتاج ، واهتموا بتفسير الأحداث التاريخية تفسيراً مادياً ينكر الدين (٤٣) .

أثر الحركة الشيوعية الماركسية على الحضارة والدين الإسلامى :

لو ان الثورة الروسية لم تقم فى أعقاب الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٧ م ، لما حفل الفكر المعاصر فى القرن العشرين بالماركسيه ، ولطغت عليها اتجاهات المثالية والأخلاق الدينية فى هذا الفكر ، ولكن حسن حظ الماركسية انها وجدت فى الانقلاب الروسى قوة مؤازرها ، وتحشد لنشرها أقوى وأحدث أساليب النشر والدعاية .

وجاءت الحرب العالمية الثانية ، وحصل الاتحاد السوفينى فيها على نصر عسكرى وسياسى اضاف قوة جديدة الى القوة السابقة التى آزرت الماركسية ، ثم جاء ما وقعت فيه الدبلوماسية الغربية من مساندة الروس فى هذه الحرب للقضاء على ماسمى وقتذاك بالديكتاتورية العسكرية فى برلين وروما ، وذلك تحت ضغط اليهودية العالمية والكنيسة الكاثوليكية ، فضعف كذلك من قوة المؤازرة للماركسية فى تثبيت دعائمها ونشرها (٤٤)

وقد بدأ السوفييت فى الدعاية للشيوعية بطريقة التهويل والاستخفاف وجذب عقول الشباب محاولين ابعادهم عن الدين والتهوسين منه فى نفوسهم الى جانب جذبهم بالأموال ، وبطرق الاقناع العجيبة تحت مؤثرات مختلفة ، واستغلال الأوضاع الاقتصادية والمطبوعات بطرق جذابة تجذب

(٤٣) احمد جمال « نقد النظرية الماركسية » ص ٣٦—٣٧ .

(٤٤) محمد البهى « الفكر الإسلامى الحديث وهلكته بالاستعمار »

ص ٣٢٨ .

الشباب ، ومحاولة عقد الندوات ، وبث السموم الفكرية فيما بينهم .
محاولين اقناعهم أن هذه الدعوة ما هي الا دعوة اصلاح ، ومحاولة قتل ذويب
الفوارق بين الطبقات للقضاء على الرأسمالية .

والدعاية الشيوعية تركز قوتها في ثلاث نقاط :

- ١ — معارضة ثبات القيم الروحية والأخلاقية والعقلية .
- ٢ — معارضة وضعية المرأة في المجتمع غير الشيوعي .
- ٣ — الاستخفاف بأصحاب المزارع ، وأصحاب رؤوس الأموال وتمجيد
أصحاب العمل البدني (٤٥) .

ونجد هنا في الشرق الاسلامي ان توهين أمر الدين ، ورجال الدين
هو الهدف الأول للدعاية الشيوعية ، لأن الاسلام في هذا الشرق يعتبر
مصدر انواع القيم الثلاث الثابتة الروحية ، العقلية ، والدينية ، ثم هو
مع ذلك مصدر تحديد وضعية المرأة في المجتمع الاسلامي كذلك ، وأخيراً
هو مصدر حق الملكية الفردية سواء للأراضي الزراعية أو للصناعات .

أضف الى ذلك أنهم يعملون على تحرير المرأة بالصورة التي لا يرضى
عنها الاسلام ، ومحاولة بث الدعاية للعمل على القضاء على مآشرعه
الاسلام في حقها ، خاصة ، في موضوع الطلاق وتعدد الزوجات ، وذلك
حتى يخلقوا الفوضى في المجتمعات الاسلامية .

وهناك ظاهرة ثالثة في نشرات الدعاية للشيوعية في الادب المعاصر .
هي ظاهرة تمجيد العمل اليدوي ، وإبراز تفوقه على العمل الفكري ، وبالتالي
تفضيل الطبقة العاملة على الطبقات الأخرى ، وهذه الظاهرة اثر للفكر
الماركسي الذي يرمى الى تحويل الجماعة الى دولة ذات طبقة واحدة ،
هي طبقة العمال ، كما انها مادة للدعاية الشيوعية لكسب الاتباع في
أوسع دائرة ممكنة (٤٦) .

(٤٥) محمد البهي ، المرجع السابق : ص ٢٣٧ .

(٤٦) المرجع السابق . ص ٣٤٩ .

واستطاعت الشيوعية عن هذه الطرق ، وهذه الدعاية أن يفسل إلى البلاد الإسلامية ، وأن تجد لها أنصاراً في بعض طبقات المثقنين الذين اغرنهم الدعاية الأجنبية ، وفي بعض العقول التي لم يمررها الله بالدين ، حاولوا اقناعهم بهذا المذهب الهدام .

وقد حاول الشيوعيون أن ينكروا الدين والفلسفة المثالية بين الفئات التي آمنت بهم ، وأصبحت التضحية وإنكار الذات ، والصبر على الشدائد ، والرضا بالقدر عند العجز عن الدفع ، وأصبحت الأخوة في الوطن ، والإنسانية ، معاني جوفاء لا مدلول لها ، وأصبحت الدعوة إلى الله والتمسك بالذاتية ، كمصدر لإشعاع التوجيه للبشرية عامة دعوة إلى التخدير .

ويؤكد هذا الموقف من الدين الإسلامي ، ما قاله أحد الزعماء الشيوعيين ويدعى مولويتوف « لن تنتشر الشيوعية في الشرق إلا إذا أضلنا الله » . تلك الحسارة التي يعبدها في الحجاز وفلسطين » (٤٧) .

لقد عاды زعماء الشيوعية فكرة الجامعة الإسلامية لتوحيد المسلمين هناك ، ولم تأت عام ١٩٣٣ م حتى أبلغتهم الحكومة على اتخاذ الحروف اللاتينية بدل العربية ، وبذلك قطعوا صلتهم بالعال الإسلامي . وفي عام ١٩٣٨ م أمرتهم باتخاذ الحروف الروسية (٤٨) .

شجعت الماركسية الشيوعية الحيوانية بين صنوف الشباب في جميع جوانبها - شجعتها على ابتلاء المعدة ، وإشباع الرغبة الجنسية في أية صورة ، واحتقار العقل ، وإزراء الطبقة المثقفة ، وإغراء الدولة الطبقة العاملة ، بأن الدولة دولتهم ، حتى تضمن ولاء الكثرة العديدة في الجماعة الإسلامية لنظامها (٤٩) .

وقد عملت الشيوعية على إزالة الملكية الفردية أي كانت صغيرة أو كبيرة ، وتطبيق نظام الأجور من كل حسب حاجته ، مع القضاء على التجارة الداخلية وقبيل نظام البطاقات (٥٠) .

(٤٧) محمد النواوي « بين الشيوعية والإسلام » ص ٣٠ .

(٤٨) المرجع السابق ، نقلاً عن « الشيوعية في الميزان » ص ٥١-٥٣ .

(٤٩) محمد البهي ، المرجع السابق ص ٣٥٥ .

(٥٠) الشيوعية في الميزان ، ص ٥٢ - ٥٣ .

موقف الاسلام من الشيوعية الماركسية :

١ — الاسلام يتفق مع الطبيعة الانسانية وضرورات الحياة في اباحية الملكية الشخصية ، وهذا ما انكرته الشيوعية النظرية كما وضعها كارل ماركس وانجلز ، فالاسلام يسمح لكل انسان أن يتخذ من الوسائل والسبل المشروعة لاكتساب المال وتنميته ، ما يحبه ويستطيعه ، ويتمك بهذه السبل ما يشاء ، والاسلام من حيث أنه دين ترفض عقيدته ونظامه الشيوعية رفضا باتا لأنها فلسفة مادبة الكبان ، وفكرة بلادة العبدة .

فالاسلام يعترف بمبدأ الملكية ، ويضعه تحت الوصاية الحقيقية من عالمه المقرر في قواعد العامة ، ونصوصه الخاصة ، فهو يطلقه ان كانت المصلحة العامة تقضي باطلاته ، ويقبده ان كان الأمر على العكس ، وفي كلتا الحالتين ، فالاسلام واضح في رفضه لكل ذلك باطل ، وهو يسأل كل مالك من أين لك هذا ليعرف أهو حق فبقية له أم باطل ففسده .
أما (٥١) قال تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم ، وأنتم تعلمون » (٥٢) .

والعجيب أن الشيوعية قد تراجعت أخيرا في مرحلتها التطبيقية ، واعترفت بالملكية الشخصية ، ولو في حدود ضيقة تأكيداً لبطلان زعمها النظري ، فقد جاء في الدستور السوفيتي مايلي :

مادة ٧ : لكل عائلة من عوائل الزراعة التعاونية بالانضمام الي دخلها الاسامي الذي يأتيها من اقتصاد الزراعة التعاونية المشترك ، قطعة من الأرض خاصة بها ، وملحقة بمحل السكن ، ولها في الأرض اقتصاد اضافي ، ومنزل للسكني ، ومائدة منتجة وطيور وادوات زراعية بسيطة للملكية خاصة (٥٣) .

(٥١) محمد الغزالي : « الاسلام المفترى عليه بين الشيوعية والراسمالية » ص ١٤٥ — ١٤٦ .

(٥٢) سورة البقرة آية ١٨٨ .

(٥٣) مصطفى السباعي « اشتراكية الاسلام » ص ١٦٥ نقلا عن النسخة العربية من الدستور السوفيتي المطبوعة في موسكو سنة ١٩٤٣ ، والمترجمة عن النسخة الروسية المطبوعة في موسكو سنة ١٩٤١ م .

٢ — أن الإسلام في إباحته للملكية الشخصية ، إنما يسمح للمواهب الإنسانية أن تنطلق في ميدان التنافس والبناء الذي هو بلا ريب أكبر سبب من أسباب تطور الحضارة ، ونمو الانتاج ، والشيوعية تزعم أن هذا التنافس هو الذي يجر البلاء على المجتمع . إذ يؤدي إلى استغلال أرباب الأموال للجماهير أسوأ استغلال ، وهذا إنما يصدق على التنافس الرأسمالي الذي رآته الشيوعية النظرية قاتما في أوربا ، ولكنه لا يصدق أبدا على التنافس الاشتراكي الإسلامي لأنه مقيد أولا بمبادئ التملك . ومقيد ثانيا بإشراف الدولة وتوجيهها ويقتتها . ومقيد بالمثل الأخلاقية العليا التي هي جزء من عقيدة الإسلام . وببقتلة الضمير الديني الذي تعتمد اشتراكية الإسلام عليه أكبر اعتماد . وفي واقع رأس المال الإسلامي في الدولة الإسلامية الأولى وما بعدها أكبر دليل على هذا .

٣ — الإسلام يعمل على تعاون فئات المجتمع المختلفة لا إلى حرب الطبقات كما فعل الشيوعية . فحين يكفل الإسلام الحياة الكريمة للضعفاء والعاجزين والفقراء وغيرهم . ويمنع استغلال الأغنياء وتحكمهم . ويمجر ينابيع الخير في نفوس الناس كافة . أما الشيوعية فأساس دعوتها إثارة ألفتات بعضها على بعض وملء قلوب بعضها بالحق على بعض (٥٤) .

٤ — الإسلام يعتمد على الأخلاق الكريمة ، ويجعلها جزءا من العقيدة ، ويحمل الإنسان على أن يتحلى بها . والشيوعية لا تؤمن بالقيم الأخلاقية العاطفية كالحب والرحمة . والاجتماعية كالصدق والوفاء ولا تنظر إليها إلا في إطار المصلحة الشيوعية . والشيوعي يستخدم المثل العليا التي يؤمن بها الناس في الدعاية لمبادئه للتضليل والتفجير . والشيوعي يدعو إلى الحرية في مجتمع غير شيوعي ليتخذ منها وسيلة لإثارة العمال والطلاب والجماهير ضد الحكم القائم .

٥ — الإسلام يعتبر هو صرح بناء الحضارات منذ عرف الإنسان ، ذلك هو الإيمان بالله خالق الحياة رب العالمين ، العادل الذي لا يظلم . مثقال ذرة والعقيدة الإسلامية توقظ الضمير ، وتهذب النفس وتكبح من جماح أهوائها وشهواتها أو تجعل الإنسان دائما أمام ضميره ، وأمام ربه

فى جميع علاقاته . ويومنتخلى الأمة عن هذه العقيدة — كما تهدف الشيوعية —
فقد سمحت للشر أن يستفحل فى صفوفها (٥٥) .

٦ — الاسلام يعلن ثقته بالانسان وبغرائز الخير فيه ، وانه الى الخير
اتقرب منه الى الشر « كل مولود يولد على الفطرة » (٥٦) وفى قصة خلق
آدم . كما رويت فى القرآن الكريم اشارة واضحة الى هذا .

قال تعالى « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة .
قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها . ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك
ونقدس لك قال انى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم
على الملائكة فقال : انبتونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك
لا علم لنا الا ما علمنا انك أنت العليم الحكيم ، واذ قلنا للملائكة اسجدوا
لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » (٥٧) .

فالانسان — كما تدل عليه هذه القصة — خلق ليكون خليفة عن الله
فى الأرض يعمرها ويملوها بالمعرفة والخير ، ولم يمنعه مافيه من غرائز
الشر أن يستحق هذه الخلافة . ومن أن يسخر الله له جميع القوى .
ويخضع له جميع المخلوقات .

ولهذا يعمل الاسلام على أن يقوى فى الانسان دينه أو يهذب نفسه،
نم هو يكله بعد ذلك الى ضميره فى تنفيذ مبادئه ، أكثر مما يجبره على ذلك
بقوة الدولة ورهبة السلطان .

ولسكن الشيوعية لاتثق بالانسان — لأن تاريخه كله من اوله الى
آخره تسلط وقتال من أجل الأكل والمال؛ انها لاتثق بدينه لأنه يؤمن بخرافة،
ولا تثق بضميره لأن القيم التى يؤمن بها الضمير قيم باطلة ، انها لا تؤمن
بغرائز الخير فيه ، انها نثق بغرائزه الجشعة ، ورغبته فى الاستئثار
والطغيان ، ولذلك نهى لاتسلمه المال لأنه يستعمله فى استغلال الكادحين؛

(٥٥) مصطفى النباعى « اشتراكية الاسلام » ص ١٦٧ .

(٥٦) رواه البخارى ومسلم .

(٥٧) سورة البقرة آية ٣٠ — ٣٤ .

ولا تطلق له الإرادة لأنه ينزع إلى التحكم والاستبداد . ولا تعطيه الحرية لأنه لا يحسن استعمالها .

٧ — الشيوعية تعتبر مأساة الإنسان كلها منذ أقدم الناريخ إلى اليوم مأساة بطن جائع ، ومن ثم فهي تنادي بأنه لا سبيل للسلام والسعادة إلا بنظامها الذي يسلب من الناس أموالهم ويملا بطونهم . ومعنى ذلك أنه ليس في الإنسان رذيلة إلا حب التسلط على الآخرين (٥٨) .

وبخلاصة ذلك أن الإسلام ينكر على الشيوعية موقفها من الأديان . ومهاجمتها في أصولها وفروعها كما ينكر عليها وأدها للحريات : وهذا أهم خلاف بين الإسلام والشيوعية ، أما أساليب الحياة وتنظيمها والرقى بالأفراد والجماعات ، ومحاربة الفقر والبطالة وتأمين الفرد على نفسه ومعيشته وذريته مما جاءت به الشيوعية فإن الإسلام له موقف مخالف نهائيا . فهو يحرم الإنسان ويحترم آدميته (٥٩) .

ولا بد أن ندلل على صحة رأينا في موقف الإسلام من الشيوعية برأي نحدد المستشرقين الغربيين وهو المستشرق « جب » يقول « مازال الإسلام يحفظ التوازن بين الاتجاهين المتقابلين في الغرب . فهو يسلم ويوائم بين الاشتراكية القومية والأوربية . وبين شيوعية روسيا . فلم ينه بالجناب الاقتصادي من الحياة إلى ذلك النطاق الضيق الذي أصبح من مميزات أوربا في الوقت الحالي ، والذي هو اليوم من مميزات روسيا أيضا » (٦٠) .

ويذكر جاك أوستري في كتابه « الإسلام أمام التطور الاقتصادي » :
« ليس هناك في الحقيقة إلا طريقة وحيدة وضرورية لا بد منها للأنماء الاقتصادي كما تريد أن تقنعنا به المذاهب القصيرة النظر في النظامين الاقتصاديين السائدين » (٦١) .

(٥٨) مصطفى السباعي : المرجع السابق ص ١٦٨ .

(٥٩) الغزالي « الإسلام المفترى عليه » ص ١٥٠ .

(٦٠) محمد علي « مولانا » « الإسلام والنظام الجديد » ص ٥٥

(٦١) Jacques Austruy " L'Islam Face au developement

ولذلك الح ، هذا المؤلف في كتابه على المسلمين بضرورة العودة الى الاسلام نفسه والى دراسة قواه الكامنة فيه « بشق الطريق فهو نهوض المسلمين عوضا عن التقليد الأعمى » وجاهر « بأن الاسلام يتمتع بإمكانيات هائلة وأنه اذا ما وجد الطريق الصحيح فإن كثيرا من الصعوبات الاقتصادية التي ظهر للاقتصاديين تعذر التغلب عليها وسوف يحلها الاسلام » (٦٢) .

هذا هو الاسلام بمبادئه التي تناقض المذهب الشيوعي — الذي حاول أن يعمل جاهدا على التوصل في المجتمع الاسلامي لسحق الدين • وبإبادة أفكار المسلمين تحت ستار ما يدعونه من مذاهب فكرية متحررة ومتجددة • وما هي الا فقاعات لا تلبث أن تزول • قال الله تعالى « كذلك يضرب الله الحق بالباطل فأما الزبد فذهب جفاء • وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » (٦٣) .

الراسمالية وأثرها على الحضارة الإسلامية

قام النظام الرأسمالى الغربى على أساس من إطلاق العنان لنشاط الفرد الى غير حد . وللحرية الفردية من غير قيد ، ولاعتبار الصالح الفردى هو الصالح الأعلى .

وبرزت هذه الاتجاهات فى المجال الاقتصادى الى أقصى حد . اذ ترك كل شىء فى هذا المجال لنشاط الأفراد ، ورغباتهم ومصالحهم ، دون أى اعتبار للمجتمع أو للأخلاق أو لأية اعتبارات أخرى يمكن أن نحد من الحرية الفردية . أو من تحقيق الصالح الفردى كما يتراءى للفرد ان يحققه (١) .

ان اول ما يأخذه الاسلام على الراسمالية باعتبارها نظاما جرب وشهد العالم تطبيقه وآثاره ، ان الذى يربح منه طبقة محدودة جدا ، وان هذه الطبقة الراحبة تقبل على الدنيا اقبالا عارما ، موصول اللذة محدود المتعة ، تأكل القراث اكلا لسا . وتحب المال حبا جما .

والاسلام يضيق بالرأسمالية لأنها تضع نظاما جادا لمحاربة الفقر ، بل لم تؤسس حكمها على فكرة اراحة الناس منه ، كما ان النظام الرأسمالى بهوى بالضعفاء والمحتاجين فى مكان سحق ، ولا يتعرف اليهم الا ادوات انتاج يحترقون فى النار التى تطفى للمسادة ، ثم تتحول بوقودها الآدمى الى عالم من التراب (٢) .

ونريد ان نعطى لمحة تاريخية عن نشأة الراسمالية . فقد ظهرت فى أوربا عقب الثورة الصناعية التى بدأت فى القرن الثامن عشر فى انجلترا أولا ثم فى بقية أوربا الغربية بعد ذلك .

(١) سيد قطب « الاسلام ومشكلات الحضارة » ص ٩٧ .
(٢) محمد الغزالي « الاسلام المفتدى عليه » ص ١٩١ - ١٩٢ .

وقد أدت الثورة الصناعية الى قضاء الآلة نهائيا على العمل اليدوى فى الصناعات . وشل الانتاج اليدوى فى مواجهة الطاقة الكبيرة لصنع الآلة ، وتحور العمال اليدويون ، وقد كانوا ملاكا فى مصانعهم الصغيرة من قبل الى أجراء لدى اصحاب الصناعة الآلية الكبيرة .

وفىما بين المصانع الآلية كان المصنع الكبير فيها بطاقته الواسعة فى الانتاج اقل تكلفة منه فى المصنع الأصغر ، لذا لم يستطع المصنع الآلى الصغير أن يستمر طويلا فى مواجهة المصنع الكبير ، وأثر صاحبه بسبب عوة المنافسة وضررها عليه ان ينضم الى المصنع الكبير ويدخل فى حمايته . وتكونت بذلك الشركات المساهمة الكبيرة .

وهكذا أيضا بين الشركات المساهمة الكبيرة كانت المنافسة فى رخص تكلفة الانتاج ، ولكن هذه المرة ليست عن طريق كثرة الانتاج — بجائب جودته — ولكن عن طريق تخفيف التكلفة خارج المصنع . سواء فى شراء المواد الخام او فى تسويق مصنوعات المصنع فى الأسواق المحلية أو الخارجية والعامل الأساسى فى التكلفة هو — النقل — وضمان وسائل عدم التلف للسلع ، وفائدة القروض التى يقترضها المصنع أو الوسيط بين المصنع والأسواق وهو التاجر (٣) .

فكلما كانت أجور النقل ، وفائدة القرض اقل ، وكلما كان الخطر الناشئ عن تلف السلع المصنعة أو الخام فى نطاق ضيق أو منعما تماما، كانت التكلفة اقل وبالتالي كانت المنافسة اقوى للصناعة التى قلت تكلفتها تبعاً لذلك على المنافسة ، اتحدت بعض الشركات الصناعية المساهمة ، على أن تباشر خدمات النقل أو التأمين على السلع أو القرض لتسويقها . وأصبحت هذه الشركات داخل اطار الصناعة ، ثم فى تطور العمل فيها أصبحت نوعية ، وتقوم بخدمات لغير المساهمين فيها ، فأصبح منها البنوك وشركات التأمين وشركات السكك الحديدية والسفن والبريد ووسائل النقل الأخرى . والشركات الصناعية التى أصبحت خدماتها الخارجية ذاتية من نقل وتأمين وقروض طغت فى منافستها على بعض الشركات الأخرى،

(٣) محمد البهى « تهاافت الفكر المادى » ص ٢٠ .

وعظم أثرها في الإنتاج وفي الأسواق المحلية ، ولها وراء البحار ،
والبعض منها امتد نفوذها الى الاحتكار اما في نوع من الإنتاج او في تجارة
سلعة معينة من سلع المواد الأولية او في بعض الخدمات الخاصة كالنقل
والتأمين .

وتبعاً لهذا التمرکز أصبح رأس مال الصناعة ، ويتبعه غالباً رأس
مال التجارة ورأس مال الخدمات المالية في يد قلة من أصحاب رؤوس
الاموال ، وبالتالي تجمعت لديهم الأرباح الواسعة في استثمار القارتين
الافريقية والآسيوية وفي تسخير المواطنين فيهما في خدمة الصناعة
الأوربية الغربية .

وأصبح في أوربا ثراء فاحش يتصرف فيه عدد قليل من الأثرياء .
كما نشأت حضارة غربية مادية في المدن والمرافق التي تساعد الإنسان
الأوربي صاحب الثراء على الاستمتاع بالحياة المادية في صورها
المختلفة (٤) .

ونمت هذه القلة من أصحاب رؤوس الاموال في الصناعة الغربية
وقف مد الثراء الفاحش ، سواء اكان من الأرباح المباشرة او غير المباشرة ،
كما وقف عليها الاستمتاع بترف الحياة المادية .

وكما قوى تيار هذا المد للثروة البشرية — اذ ذاك — في اتجاهه
للتكدس تحت اقدام هذه القلة في عددها من أصحاب رؤوس الاموال
الصناعية زاد نفوذها في السياسة الدولية ، وفي توجيه الفكر والتعليم ،
وكما ازداد من عداهم فاقة وحرماناً وضعفاً في رعاية صحتهم وأحوالهم
الاجتماعية .

كان عمال المصانع اثرب للآخرين عدا أصحاب رؤوس الاموال
الى الاحساس بالوضع المزدوج المتناقض الناتج من تكديس الأرباح في
أيدي قلة من الأفراد وهو :

١ — وضع الثراء الواسع والترف الذي هو المبعث بعينه في جانب .

(٤) محمد البهي ، المزج السابق ص ٢١٠ .

٢ — الحرمان وفقد الرعاية الاجتماعية ، والاعتبار التشرى فى جانب آخر (٥) .

وكانت نتائج الثورة الصناعية مايلى :

١ — استثمارهم لبلاد آمنة مطمئنة ، وحرمانها من ثروتها الطبيعية، وبخس المجهود البشرى لأبنائها المواطنين فيها ، وذلك لأن الطاقة الانتاجية للصناعة تضخمت الى حد أن أصبحت عاجزة عن استيعاب طاقتها الانتاجية الكاملة فالسوق الداخلية صارت غير كافية لاستنفاد ما انتجه المنتجون بالأسعار التى يرون . بحكم جشعهم الباغى — انها صارت مجزیه — ومن أجل الاحتفاظ بهذه الأسعار الفاحشة استقر رأى المنتجين بعد ان تجمعوا فى كتل احتكارية على أنه لامناص لهم من سلوك أحد طريقين . اما خفض الانتاج ، وهذا ينقص من كمية أرباحهم . واما خلق أسواق اجنبية نستوعب فائض الانتاج ، وتكفل لهم الحد الأقصى من الأرباح .

الى جانب حاجة الاقتصاد الغربى الى ميادين اجنبية لاستثمار فائض المدخرات لأن الأرباح الفاحشة التى تؤول الى أصحاب الصناعات الكبرى لا يمكن توظيفها فى السوق الداخلى الا بفائدة منخفضة فى حين انها تغل فائدة مرتفعة فى البلاد المتخلفة اقتصاديا .

الى جانب حاجة الصناعة الكبيرة فى الاقتصاد الغربى الى الموارد الطبيعية فى البلاد المتخلفة اقتصاديا ، وأصحاب الأموال لا ضابط له ، ولا قيد عليه ، يريدون الحصول على هذه الموارد بأبخس الأثمان تدعيما لأرباحهم الفاحشة والسبيل الى ذلك هو حمل حكوماتهم على بسط نفوذها السياسى على هذه الاقاليم (٦) .

٢ — ارهاق العمال فى المصانع وحرمانهم نعمة الاقتناء بعد حرمانهم من نعمة التعليم .

(٥) المرجع السابق ص ٢٣ .

(٦) محمد عبد الله العربى « الاقتصاد الاسلامى » ص ٣١٤
محاضرة « القاها فى الموسم الثقافى لجامعة الأزهر سنة ١٩٦٠ م .

٣ — تكديس الثروات في أيدي قلة قليلة من الأفراد لثروات لا تنتهي هي في واقع الأمر اغتصاب لما تملكه الملايين الأخرى من أموال وطاقات.

٤ — وتمكنا من سلطة الحكم في المجتمع ، ومن توجيه سياسته لضمان بقاء العامل في وضعه الاجتماعي ، وبقاء البلاد الأفريقية والآسيوية فيما وراء البحار مستعمرات للمواد الخام بأثمان زهيدة ، وللطاقات البشرية الرخيصة في نفقاتها .

ووصلت الرأسمالية الصناعية في القرب إلى ثروتها في الآثار والنتائج ، وهي آثار ونتائج كلها سلبية على البشرية ، حتى ما كان منها أرباحاً طائلة لأصحاب رؤوس الأموال القليلين (٧) .

منذ ذلك نرى أن النظم الرأسمالية ما هو إلا استغلال الإنسان لأخيه الإنسان وهو الذي يجمع على الاحتكار الذي نهى عنه الإسلام .

ومن أهم النتائج التي صاحبت نشأة الرأسمالية إنشاء المصارف والبنوك . التي ترتب عليها جعل العمال والصناع والتجار وأصحاب المصانع مجرد أجراء للصيرفة الذين قاموا بتأسيس البنوك ، وجذبوا إليها أموال حملة الأسهم والمودعين ، ليستغلوها لصالحهم ، إذ تعود عليهم حصيلة تشغيل هذه الأموال ماعدا النصيب الضئيل الذي يصرف لحملة الأسهم ، وللمودعين في بعض الحالات بينما يكسب العمال والصناع والتجار والمستهلكون وأصحاب المصانع أنفسهم كذلك. للوفاء بالفوائد الربوية التي تعود في النهاية إلى الطغمة القليلة من المالكين الذين يمولون الصناعة والتجارة عن طريق الاقتراض ويقبضون وهم قاعنون — ثمرة كد الجميع في نهاية المطاف (٨) .

إن مشكلة النظام الرأسمالي لا تتمثل فقط في المظهر البارز الذي يوجه إليه النقد ، وهو تسخير الشعوب بالحكومات ، هي طبقة مستترة وراء أكداس من النظريات الاقتصادية ووسائل الدعاية والتعويض ، والأساتذة

(٧) البيه « تهافت الفكر المادي » ص ٢٣ .

(٨) سيد قطب « الإسلام ومشكلات الحضارة » ص ١٨ .

الكبار والجامعات والقوانين واللوائح في جميع أرجاء الأرض . طبقة المزارعين ، الطبقة التي تؤسس بنوك الاقراض ، وتمتلك سندات التأسيس .

ومصاحب النظام الرأسمالي الاتحلال الأخلاقي أولا : نحت تأثير النظريات المختلفة الاتجاهات . سواء نظريات الحرية المقردة التي لايجوز أن يأخذها أحد أو قيد أو نظريات حيوانية الإنسان ومادية الكون (٩) .

انتشار البنوك التي تتعامل بالفائدة :

انتشر حفظ ودائع الأفراد والشركات والحكومات في البنوك بفوائد محددة . كما انتشر منح الناس قروضا بالملايين . ولكن مما يؤخذ على هذا الموضوع هو تحديد الفائدة : فالاسلام ينص على أن رأس المال والعمل يجب أن يشتركا في الربح والخسارة ، فلا يأخذ رأس المال فائدة دائما ، حتى ولو كان ذلك يؤدي إلى خسارة العمل (١٠) .

ولا يستطيع أحد في عصرنا الحديث أن ينكر أن البنوك في وضعها الحالي تؤدي للمجتمع خدمات قيمة سواء في ميدان التجارة الداخلية أو ميدان التجارة الخارجية .

ولكن ؟ من أين تأتي البنوك بالأموال التي توجهها في انجاز عملياتها المختلفة ، وعلى الأخص في تمويل المشروعات ؟ بعضها يأتي من رأس مال البنك ، أي من قيمة الأسهم التي اكتتب بها المساهمون ، ولكن أكثرها يأتي من ودائع المودعين .

في النظام الرأسمالي يودع الناس فائض أموالهم النقدية في البنوك مقابل فائدة منخفضة السعر يقررها البنك لودائعهم ، ثم يقوم البنك بالاقراض من هذه الودائع لعملائه بفائدة مرتفعة ، ويكسب البنك الفرق بين السعرين ، ويعتبر البنك ودائع المودعين كأنها رصيد واحد ، متجدد نزل يقرض منه المقترضين بالفائدة المرتفعة ، وكلما رد مقترض قيمة قرضه

(٩) سيد قطب « المرجع السابق » ص ٩٩ .

(١٠) على عوض « الاقتصاد في ضوء الإسلام » ص ٩٤ .

اعاده البنك الى هذا الرصيد ، ويكرر المرة بعد المرة الاقراض منه ، والاعادة اليه ، ومن هنا تأتي الأرباح الضخمة للبنوك في النظام الرأسمالي . وهي بآمن من كل مخاطرة مطمئنة الى استرداد قروضها وفوائدها وعلى بمصمم من كل خسارة (١١) .

هذه الوظيفة المصرفية ربوية ، وهي علاوة على هذا التحريم الشرعى ثبت للاقتصاديين أنها تلحق أضرارا جسيمة بالاقتصاد القومى ، فان البنوك فى استغلالها للودائع على هذا النحو ، إنما تخلق نقودا مصطنعة هي مايسمونه « بالائتمان التجارى » وهي فى هذا الخلق تفتصب وظيفة الدولة المشروعة فى خلق النقود بما يحف بها وبما يوازنها من مسؤوليات ، وكما قال الاقتصادى الأمريكى هنرى سيمونز معلقا على الأزمة الاقتصادية العالمية التى خيمت على أكثر الدول سنة ١٩٣٠ وما يليها « لسنا نبألغ اذا قلنا ان أكثر عامل فى الأزمة الحاضرة هو النشاط المصرفى التجارى ، بما يصد اليه من أسراف خبيث ، وتقدير مضموم فى تهيئة وسائل التداول النقدي ، ولا نشك فى أن البنوك بمعاونة الاحتكار سوف توالينا بأزمات أشد وأقسى اذا لم تتدخل الدولة فى الأمر واستعانت فى حكمة ومسئولية وظيفتها فى ضبط أداة التداول (١٢) » .

فالثابت اذا بحكم الواقع المعاصر هو أن البنوك بالدور الذى تقوم به فى احلال الائتمان المصرفى محل العملة النقدية . اعتمادا على رصيد الودائع التى لديها ، واطمئنانها الى استمرار تدفقه ، تؤدى للمجتمع نفعا فى تيسير التعامل التجارى ، ولسكنها فى الوقت نفسه تلحق الضرر بالمجتمع الذى ينشأ من مصدرين الأول : ماتصيبه من اغتناء غير مشروع بسبب حصولها المحتوم على فوائدها المقررة على المفترضين واجتنابها المساهمة فى مخاطر مشروعاتهم . الثانى : ميلها فى أوقات الرخاء الى التوسع فى الاقراض بفتح الاعتمادات التى تربو على رصيدها أضمافا مضاعفة ، وميلها فى أوقات الركود الى التضييق فى الاقراض والكف عنه خوفا من احتمالات الخسارة والعمل على استرداد قروضها ، وارغام

(١١) محمد عبد الله العربى « الاقتصاد الإسلامى » ص ٢١٩ .

(١٢) محمد عبد الله العربى « المرجع السابق » ص ٢٢٠ .

المتقرضين على السداد . فهذا البسط والتبض الذى تتحكم فيه ارادة
القائمين على البنوك هو من اهم العوامل التى تؤثر السكان الاقتصادى .
وينفذ الى منابع الازمات (١١٢) .

غالبينك على المجتمعات الرأسمالية بتحويلها للمشروعات من طريق
أربعة الودائع تستحدث نفعا ، وتستحدث ضررا فى آن واحد ، والنظام
الاسلامى حريص كل الحرص على انتقاء الضرر ودفعه ، واجتلاب النفع
واستبقائه .

هذا من ناحية اما من الناحية الشرعية ، فالاسلام ينظر الى هذه
الفائدة على أنها ربا . ومن مبادئه الأساسية تحريم الربا والفائدة ماكان
منها للاستهلاك ، وما كان منها للإنتاج . سواء أكان سعر الفائدة بسيطا
ام كبيرا . وذلك صريح وواضح فى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا
الله وذروا ما بقى من الربا » (١٤) وقوله تعالى « وذلك بأنهم ثالوا إنما
البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا » (١٥) وقوله أيضا وفيه
إبرهان الفائق والدلالة الصحيحة على تحريم الربا « وان تبزم فلكم عزة ورس
أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » (١٦) أما ما يطرح به من قوله تعالى
« لا تأكلوا ربا اضعافا مضاعفة » (١٧) فالمقصود هنا فائدة الفائدة أى الربح
المركب ، وهو ضم الفوائد الى أصل الدين بحيث يصبح الكل بمثابة رأسمال
واحد منتجاً لفوائده القانونية او الاتفاقية . ولقد اثبت علم المال الحالى
أن الدين بهذه الطريقة أى بطريقة فائدة الفائدة يتضاعف ، حتى ان المبلغ
الذى يفترض بفائدة ٥٪ يتضاعف الى مثله فى مدة ١٤ سنة تقريبا ، وهذا
اذا كان سعر الفائدة ٥٪ ، ولكن اذا بلغ سعر الفائدة ١٠٪ او ١٥٪
او ٢٠٪ او ٢٥٪ مثلا وهذا ما يحدث كثيرا ، فان المبلغ يتضاعف فى مدة
تقل عن ٥ سنوات او تزيد قليلا (١٨) .

(١٣) المرجع السابق ص ٣٢١ .

(١٤) سورة البقرة آية ٢٧٨ .

(١٥) سورة البقرة آية ٢٧٥ .

(١٦) سورة البقرة آية ٢٧٩ .

(١٧) سورة آل عمران آية ١٣٠ .

(١٨) سيد احمد . « الاقتصاد فى ضوء الاسلام » ص ٥٩ .

هذا هو المقصود من قوله تعالى « أضعافا مضاعفة » أى أضعافا بالنسبة لقيمة رأس المال المقرض ، وذلك لأن الدين الإسلامى دين أبدي لم ينظر الى شكل الفائدة ، وأقسامها وأنواعها على ما هي عليه فى الماضى والحاضر فحسب ولكنه نظر أيضا لما سيحدث فى المستقبل وحرمة جميع أشكالها وأنواعها وأقسامها وقد حرم الإسلام الفائدة أو الربا لأسباب كثيرة سياسية واقتصادية وتعاونية واجتماعية وخلقية .

فترى من الناحية السياسية ان الأجانب عندما بدأوا غزوهم الاقتصادى القائم على الفوائد الربوية والقروض ، كثيرا ما يكون الأساس الثابت للاحتلال والاستعمار . اذ أول ما فعله المستعمر خصوصا فى بلدان الشرق هو انه اقترض الشرقيين بفوائد باهظة ، وما هى الا سنوات قليلة حتى انتقلت الثروة وعوامل الانتاج من زراعية وصناعية وتجارية من أيدي أهلها الى أيدي المستعمر (١٩) .

أما من الناحية الاقتصادية ، فان الفائدة تؤدي الى تضخم الثروة . والإسلام يكره تضخم الثروة فى جانب وعدم وجودها فى الجانب الآخر وهذا صريح فى قوله تعالى « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » (٢٠) .

وهناك سبب آخر وهو حفظ التوازن بين رأس المال وبين العمل فلا يسمح لرأس المال ان يستبد وبأخذ أكثر مما يجب ، ولا يرضى أن يأخذ العمال أقل من ناتج عملهم . كما ان الفائدة سواء أكانت بسيطة أم مركبة تؤدي الى إفلاس بعض التجار وخصوصا الذين تصيبهم وقتا ما ضائقة مالية . واذا عمل بمبدأ الفائدة، فانه يقتضى على التعاون ، وذلك لأنه يقتضى الإسلام الذى يحث على التعاون بين الناس .

أضف الى ذلك أن الإسلام اذ يحرم الفائدة ، فانه بتحريمه هذا يحاول ان يحفظ التوازن بين الجانب المادى ، والجانب الروحى بحيث لا يسمح لأى من الجانبين ان يطفئ على الآخر ، الى جانب أن الفائدة تؤدي الى استغلال ضوابط المجتمع ، وبيع المساعدات بمقابل ، سواء أكانت هذه

(١٩) المرجع السابق ، ص ٦٠ .

(٢٠) سورة الحشر آية ٧ .

انضوائى استىلاكىة أم انتاجىة . وبذلك تتمزق الانسانىة ، وىصبع افرادها أشبه بـحىوان الغلب ، الغنى يطمع فىفترس الفقىر ، والفقىر ىحقـد فىفترس الغنى ، ولكل سلاحه الذى ىقتل به أخاه (٢١) .

وتـد حاولت النظرىات الراسمالىة التى وفدت على حضارتنا الاسلامىة أن تجـد لنفسها منفا ، وأن تحلل كـثرا من نظمها حتى تأخذ بها الدول الاسلامىة فنقول « ان التحـدىـد تفرضه الحاجة الى التىسر » .

ولكن لا لأنه لىس فى نظام الفائدة أى تىسر ، وقد ارتفعت الشكوى فى الغرب من نظام الفائدة ، وهاجمه علماء متخصصون فى الفلسفة والاجتماع ، والاقتصاد ولارائهم وزن كبرى ، وذلك فى البلاد الراسمالىة فضلا عن الجمهورىات الاشتراكىة التى سبقت الى الغاء المعاملات بالفائدة .

وعلى أية حال لىست فى الراسمالىة ، ولا فى الاشتراكىة أى فلسفة خاصة تفوق نظرة الاسلام الى الأمور الانسانىة (٢٢) .

الى جانب انه من الكذب ، القول بأن نظام الفائدة ىحمى المقترض البصفر الضعفى من جبروت المقترض الفنى القادر ، فهذه مجرد دعاية يهودىة تجوز على بعض الناس .

وفى ظل نظام الربا والفائدة ىزداد العبء الملقى على كاهل المقترض بثلاثة عوامل رضىة .

(أ) الضمان الذى يقدم ، فكلما قلت ثروته ، قل ضمانه ، وزاد سعر الفائدة الحقىقىة .

(ب) حجم القرض ، فكلما قل حجم الدين أو المبلغ المتعاقد علیه زاد سعر الفائدة .

(ج) مدة القرض اذ الفائدة على القروض القصىرة الأجل اىسر من

(٢١) محمود شلتوت « الاسلام عقىدة وشرىعة » ص ٢٧٣ .

(٢٢) عىسى عبده ابراهىم « وضع الربا فى بناء الاقتصاد القومى » محاضرة القاها فى الموسم الثقافى لجامعة الأزهر سنة ١٩٦٠ ، ص ١١٤ .

نظيرتها على الديون الطويلة الأجل هذا في حالات ، وفي حالات أخرى
ينعكس الوضع وتقل الفائدة اذا طالبت مدة القرض . وفي هذا تفصيل في
الدراسة الاقتصادية لسوق رأس المال .

على أن سعر الفائدة يتأثر أيضا بندرة رأس المال ، بمعنى أنه كلما
اشتدت الندرة النسبية للمدخرات المتاحة للتوظيف ، ارتفع سعر الفائدة .

وفكرة الاسلام في تحريم الربا أبعد كثيرا مما ظن الذين افترضوا بجواز
فائدة المودعات لدى البنوك وصناديق البريد وغيره من المنشآت ، ففكرة
الاسلام تتلخص في أن نظام النقد بجميع صورته لا ينبغي أن يكون إلا للدولة ،
ومن ثم يكون سك النقود ، وإصدار العملة الورقية ، وخلق النقود
انحسابية بالائتمان مثلا ، ومن ثم تكون المصارف ، وهيئات تكوين رؤوس
الأموال كشركات التأمين وتوظيف المدخرات منشآت لا يجوز للفرد ولا
لشركة أن تملكها .

والفائدة الثابتة هي استمرار لصورة من صور الربا ، هي بقية من
بقايا سيطرة رأس المال ونهم الحيازة ، ولم تحقق من الآثار الاقتصادية
إلا الفساد ، ذلك لأنها قرينة التحكم في رأس المال ، واتخاذها للبطش
بالمجتمع (٢٢) .

أثر الربا على السلوك الإنساني وعلى المجتمع :

الربا يؤدي إلى انتشار الأمراض الأخلاقية بطريقة غير مباشرة ،
وذلك لأنها تؤدي إلى حبس ثروة المجتمع في أيدي قليلة مترفة ، الأمر الذي
يترتب عليه انتشار الدعارة ، وكثرة المنكر ، وشرب الخمر ووجود الحقد
والضغائن والاحن ، وغير ذلك من الأمراض الأخلاقية ، وسبب ذلك أن
هذه الطائفة تملك طاقة مالية كبيرة نتيجة التعامل بالربا .

وهناك أمراض اجتماعية أخرى مثل السرقة ، وضياع المروءة وغيرها
وغیرها مما يؤدي بنا إلى الهلاك تحقيقا لقوله تعالى « وإذا أردنا أن

(٢٣) محمود شلتوت « الاسلام عقيدة وشرعية » ص ٢٧٣ .

نيلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا « (٢٤) .

والذى يعمل بهذا النظام « نظام الفائدة الربوية » عندما يقيم مشروعاً من المشروعات لا يفكر الا فى المشروعات التى تكفل تغطية الفوائد الربوية وتكفل له أيضاً فائضاً من الربح ، والمشروعات التى تخدم الجنس ، والتى تقوم على إثارة الميل الى الترف وتلبيتيه وهى أدنى المشروعات الى الربح (٢٥) .

ومن ثم يصبح من السياسة الثابتة لأصحاب المال « الصيارفة ، وبيوت المال ومؤسسى البنوك ، وحملة السندات التأسيسية ومعظمهم من اليهود فى العالم ، كما يصبح من سياسة الكثيرين من أصحاب المشروعات الذين يقترضون من هذه المؤسسات بالربا ان ينشروا فى المجتمع الانسانى حالة من الانهيار الخلقى ، ومن الترف ومن التفاهة ، تسمح بأن تروج فيه ، مشروعات الترفيه الجنسى فى شتى صوره « (٢٦) .

وهكذا تصبح صناعة الافلام المستهتره ، والمحلات العامة التى تنتشر فيها الفساد ليلاً ونهاراً ، الى جانب الصحافة التى تدعو الى الفساد ، والرذيلة والتى تهتم بأمور الفن والفسق والفنانين ، وتجارة الرقيق ، والخمر والمخدرات ، كما تصبح صناعة ادوات الترف وما وراءها من تقاليد المجتمع المستهتر والحفلات والسهرات الى آخر مظاهر الانحلال والترف التى تقوم عليها مئات الصناعات فى العالم ، تصبح هذه كلها فى خدمة الرأسمالية ، ويكون لرأس المال فى هذه الانظمة القوة التوجيهية لأنه هو وحده الذى يتحكم فى المجتمعات اللادينية ، فليس المال هو الذى يفسد المجتمع ، وانما المنهج والمذهب والنظام والتصور الذى يحكم مجتمعاً من المجتمعات .

(٢٤) سورة الاسراء آية ١٦ .

(٢٥) سيد قطب « الاسلام ومشكلات الحضارة » ص ١٠٠ .

(٢٦) المرجع السابق .

٠ الاحتكار كآثر من آثار الرأسمالية :

اساس الرأسمالية الاحتكار الذى نهى عنه الاسلام ٠ فى اكثر من موضع وذلك لان فيه اهدارا لحرية التجارة والصناعة ٠ فالمحتكر لم ينح لكل الناس أن يصنع صنيعة ٠ فهو يتفرد بالسلعة ٠ ينحكم فى السوق ٠ ويفرض مآشاء من الأسعار ويحدد الكمية المباعة ٠ ويقتل منافسيه ٠ فيكون سببا فى عدم تجويد السلع ومحو مبدأ تكافؤ الفرص بين الافراد ٠ ونكليف الناس فوق طاقتهم ٠ وقد يضطر المحتكر لى يفرض السعر الذى يريد الى اعدام كميات كبيرة من السلع يحتاج اليها الناس ٠ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الجالب مرزوق ٠ والمحتكر ملعون » وقوله « من احتكر فهو خاطيء » وقوله عليه السلام « من احتكر طعام أربعين يوما فقد برىء من الله وبرىء الله منه » فالاحتكار له أضرار جمة نطفى على بعض الفوائد التى يذكرها له بعض الاقتصاديين (٢٧) ٠

قال الله تعالى « ولا تأكلوا أموالكم بينكم ب ساطل وتدلوا بها الى أحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون » (٢٨) ٠

الليبرالية التقدمية

الليبرالية لفظ له اكثر من مدلول فى اللغات الأوربية ومن هنا كانت الصعوبة فى وضع تعريف منطقى جامع يحدد مدلولها بدقة ٠

حتى اشتقاق كلمة ليبرالى نفسها اختلفوا فيها : هل هى مأخوذة من كلمة « ليبرنى » التى معناها الحرية ٠ او من اصل اسباني ٠

وعلى اى حال فان الليبرالية التى شاعت فى بلادنا العربية هى الليبرالية الانجليزية وهى تركز على مفهوم التحرر من تدخل الدولة فى تصرفات الأفراد ٠ سواء أكان هذا فى السلوك الشخصى للنرد أم فى حقوقه الطبيعية أم فى نشاطه الاقتصادى « أخذا بمبدأ دعه يعمل

(٢٧) على عوض « الاقتصاد فى ضوء الاسلام » ص ١٢٨ ٠

(٢٨) سورة البقرة آية ١٨٨ ٠

ودعه يمر « Laisse Faire - Laisse Passé (٢٩) والظاهر من تاريخ الليبرالية : أنها كانت رد فعل لتسلط الكنيسة والاقطاع فى العصور الوسطى بأوربا ، مما أدى الى انتفاضة الشعوب وثورة الجماهير ، وبخاصة الطبقة الوسطى والمناداة بالحرية والاخاء والمساواة كما وضع ذلك فى الثورة الفرنسية .

والمعروف ان البلاد العربية الاسلامية قد تعرضت لموجات الاستعمار كما ذكرنا آنفا : لذلك بدا هذا الاستعمار يتلاعب بمصائر هذه الشعوب ، ويختار حكامها أو يوجههم ، ويدير دفة الأمور .

ولهذا سار الحكم فى هذه البلاد فى الاتجاه الليبرالى الديمقراطى الراسمالي الغربى ، الذى يؤيده الاستعمار المتسلط ، كما تؤيده جمهرة المثقفين الذين تعلموا على يديه ، والذين رأوا ان هذا النظام الجديد يحمل معانى التقدم والحرية والتطور والتجدد ويقاوم الجهل والجمود ، والتخلف والاستبداد ، الذى اتسمت به عصور الانحطاط السابقة (٣٠)

ولم يتح لهم من العلم النافع ما يعرفون به حقيقة دينهم « الاسلام » الذى يؤمنون به اعتقادا ويجهلون شريعة ونظاما ، وفلسفة وحضارة ، كما لم يكون لديهم من دوافع الرغبة فى معرفته ما يجعلهم يطلبون العلم عند اهله العارفين به وقليل ما هم .

ومن اهم مظاهر هذه الحركة الليبرالية التقدمية فى بلادنا الاسلامية هو تشجيع الاقليمية والعنصرية ، والبعد بالمسلمين عن الوحدة والاتحاد ، وغرس روح الانفرادية . فأصبح العداء بين الشعوب بعضها وبعض واضحا ، بل بين أبناء الوطن الواحد أكثر وضوحا .

وقد قرر القرآن الكريم والسنة الشريفة ان المسلمين أمة واحدة « يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » ومن لم يصبح ناصحا — أى مخلصا باراً — لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم فليس منهم »

(٢٩) موريس كرانستون « المصطلحات السياسية » ص ٤٦ .

(٣٠) يوسف القرضاوى « الحلول المستوردة » ص ٤٩ .

ولكن النزعة الوطنية والقومية جعلت المسلم يفكر في وطنه قبل عقيدته . ويقدم الكافر اذا كان من عنصره أو وطنه على المسلم من عنصر آخر أو في بلد آخر ، ويسمى هذا أجنيا ويعامله معاملة الأجانب (٢١) .

ومما هو معروف « ان الغرب يوم استضعف الأمة الإسلامية في أفريقيا وآسيا منذ القرن التاسع عشر ، وبدا عصر الصناعة الحديثة دخل ديارها بجنوده واحتكر ثرواتها لصالح مصانعه برؤوس أمواله . وسخر أبنائها في خدمة الاقتصاد الأوربي بنفوذته السياسي . ثم أرسى قواعد نظامه الإداري والسياسي وثبت نظامه الاقتصادي الرأسمالي . وطارد القيم الأصلية للمجتمع ، واستبدل بها النظام العلماني في التعليم ، ونظريات الفقه الأوربي في التشريع ، وقيم التبعية للغرب في التوجيه . ولقد وصل الوضع في كل مجتمع إسلامي أفريقي أو آسيوي استعمره الغرب الأوربي لصالح صناعته ورؤوس أمواله إلى تمكين الأجانب من اغتصاب الثروة القومية بمساعدة الدولة العسكرية وعلى الأخص مصادر الثروة المدنية والأراضي الزراعية الجيدة والمرافق الحيوية العامة ، وتسخير المسلمين في تنمية رؤوس الأموال الأجنبية بدون مقابل أو مقابل أجور زهيدة ، واستنزاف الدخل القومي باحتكار التجارة الخارجية في المحاصيل الرئيسية والسلع المصنعة للاستهلاك الضري ، ورهن الأراضي والأموال العقارية بالفائدة المركبة وإقامة البنوك ليسير الحوالات المالية وإعادة نقل رؤوس الأموال إلى الخارج من فائض العائد الوافير لخدمة البناء الأوربي ، على حساب افتقار الشعوب الإسلامية من ثرواتها الخاصة ، وطاقات أبنائها البشرية ، وطالما ان عمليات التصدير والاستيراد تساعد على انجاز البنوك ، فهي ثغرة واسعة لتهريب الأموال أو إعادة ماورد منها وأرباح الباقي من ثمرتها وعائدها ، ولقد خان القطاع الاقتصادي في المجتمع الإسلامي المستعمر ، هو القطاع السري المفلت الذي لايدخله الوطنيون ، إلا لأداء خدمات محدودة ، وفي غالب الأحيان تكون خدمات اضافية ، والوطن في هذا القطاع كان الثروة والمجهود البشري

فى العمل والعائد منه كان الفقر والمذلة على المواطنين « (٣٢) .

وقد كان لهذه الأفكار الليبرالية اثرها الهدام على الناحية الاجتماعية للشعوب الاسلامية فقد أصبح الأغنياء — نتيجة للتخلى عن الاسلام ودخول الأفكار والنظريات الغربية الى العالم الاسلامى — طبقة تتوارث الفنى والثروة . كما جعل من الفقراء طبقة تتوارث البؤس والشقاء ، أولئك كتب لهم ان يعيشوا فى حياة الترف ناعمين وهؤلاء كتب عليهم ان يعيشوا فى اكواخ الحرمان لاهثين ، وكان هذا الترف فى جانب الأقلية العاطلة ، والحرمان فى جانب الأكثرية العاملة ، نذيرا بانهيار المجتمع واثرافه على حاوية الهلاك والدمار ، وصدق الله العظيم اذ يقول « واذا أردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (٣٣) .

ولا عجب ان شاع شرب الخمر ، ولعب الميسر ، وأصبح فى المجتمع الاسلامى حانات وأندية يمارس فيها هذا الرجس من عمل الشيطان .

ولا غرابة كذلك اذا شاعت الفاحشة وانتشر وباء الزنى سرا وعلانية وصار فى بلاد الاسلام مراقص وكباريهات قائمة لتسهيل العبث والفجور ، وعملت المؤسسات المشبوهة المخربة عملها فى التهوين من فضيلة العفاف ، وفى التحريض على التحلل من عرا الأخلاق ، وفى تيسير كل السبل للشهوات والفرائز الحيوانية ، ولتخدمت كل الوسائل من الصورة والخبر ، والاغنية والقصة والتمثيلية والزى المفزى والسهرات المختلطة .. الخ (٣٤) .

والحقيقة ان موضوع المرأة كان من أهم الموضوعات التى تأثر بها المجتمع الاسلامى أمام الغزو الغربى . يقول « جان بول رو » فى كتابه « الاسلام فى الغرب » :

« ان التأثير الغربى الذى يظهر فى كل المجالات ويقلب ، رأسا على عقب ، المجتمع الاسلامى لا يبدو فى جلاء أفضل مما يبدو فى تحرر المرأة » .

(٣٢) محمد البهى « الاسلام فى الواقع الأيديولوجى المعاصر » ص ١٧٠ — ١٧١ .

(٣٣) سورة الاسراء آية ١٦ .

(٣٤) يوسف القرضاوى « الحلول المستوردة » ص ٧١ .

والحقيقة التي لا بد من ذكرها أن النظريات التي سادت في المجتمعات الإنسانية في القرن التاسع عشر — والتي أشرت إليها آنفاً — مثل نظرية دارون وكارل ماركس وغيرهما إذا كانت قد أثرت على الإنسان ، وعقيدته ، فلا بد أنها قد أثرت كذلك في النظرة إلى المرأة وفي العلاقات بين الجنسين ، وعملت على تحطيم كل قوائم الأخلاق ، وأطلقت الجنسين في حيوانية مطلقة (٣٥) .

ولعل خروج المجتمع الغربي عن سلطان الكنيسة كان له أثر كذلك في إطلاق العنان لهذه المناسد الأخلاقية ، ولعمليات الاختلاط بين الجنسين ، والحرباء المفرطة ، وما أدت إليه من انصراف إلى الجنس ، والتركيز على هذا الموضوع سواء بالنواحي الإعلامية من صحافة ، وإذاعة ، وتليفزيون ، رسيما ، وقصص وروايات ومؤلفات شهامة . ، أو بإطلاق الحرية إلى أبعد الحدود حتى صار الفتى والفتاة حين ينطلقان مع شهوة الجسد . لا يحسن من منهما أنه قد أتى منكراً يحاسبه عليه أحد ، لا ضميره ، ولا المجتمع ولا الدولة والدين (٣٦) .

وهذه الأفكار الغربية « الليبرالية » التي طغت على المجتمع الإسلامي ، خاصة مليخص العلاقة بين الجنسين ، قد جعلت الإنسان ينزلق إلى الدرك الأسفل بإنسانيته إلى أدنى المستويات . ، وفي حين أن الإسلام يعترف بالطاقة الجنسية من حيث المبدأ أصرح اعتراف يمكن أن تصبو إليه الإنسانية ، ولكنه لا يعترف بها ضرورة هابطة ، بل على العكس من ذلك يزفعها ويظهرها ، ويسلط عليها النور .

ويتصور الإسلام وجود علاقة بين الرجل والمرأة على أنه الشيء الطبيعي الذي ينبغي أن يكون ، فهو يقرر أن الله جعل في قلب كل منهما هوى للآخر وميلاً يقول القرآن « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » (٣٧) ولكنه يذكرهما بأنهما يلتقيان لهدف حفظ النوع وتلك حقيقة لا أحسبها موضوع

(٣٥) سيد قطب « الإسلام ومشكلات الحضارة » ص ٧٤ .

(٣٦) محمد قطب « الإنسان بين المادية والإسلام » ص ١٧٦ .

(٣٧) سورة الروم آية ٢١ .

جدال ، فمن المسلم به لدى « العلم » ان للوظيفة الجنسية هدفا معلوما .
وليست هي هدفا في ذاتها . فقول القرآن « نساؤكم حرث لكم » (٢٨)
فبحدد بذلك هدف العلاقة بين الجنسين بتلك الصورة الموحية ، صورة
الأرض التي تحرث لوضع البذرة وتعهدها حتى تنبت ، وتأتى بثمره جديدة
من نفس النوع (٣٩) .

وبهذه الصورة الموحية يتبين رأى الاسلام منذ البدء فهو يرى ان
للشهوة هدفا محددًا ، ولا يوافق على ان ارضاء الشهوة هو فى ذاته الأول
والآخر .

آثار الحضارة المادية

على عقائد المسلمين

ان المشكلات التى واجهت المسلمين ، وواجهت حضارتهم لم تقف
عند حد مآذكرناه من ذبوع نظريات ، وافكار ومبادئ هدامة ، عملت على
هدم الانسان عن طريق هدم أخلاقه ، وعقيدته ، وفكره ، ومحاولة تحريك
شهوآته وابعاده عن الدين .

ليس هذا فقط ، ولكن استكمالا لهذه السياسة المسادية البحتة ،
لقد عمل الغرب على تشجيع اناس خارجين عن الدين على ان يقوموا
بحركات تحمل اسم الدين — والدين منها براء — من أجل محاربة الاسلام ،
والتشكيك فيه ، والتهوين من أمر العقيدة لدى الأفراد .

ولذلك رايت استكمالا لهذا الموضوع الا اختتمه دون ان أعرض صورة
أو صورتين لهذه المساوىء والمشاكل التى صاآفت الأمة الاسلامية من فعل
التأثير الغربى ، واخترت لذلك حركتى القاديائية التى نشأت فى الهند ،
والبهائية التى عمت العالم الاسلامى أجمع .

(٣٨) سورة البقرة آية ٢٢٣ .

(٣٩) محمد قطب ، المرجع السابق ص ١٩٤ .

أ - القاديانية :

ننتسب هذه الفرقة الى ميرزا غلام احمد القاديانى من قاديان باقليم البنجاب بالهند .

وترجع دعوة هذا الرجل الى التعاليم التى بثها من قبل فى هذا الاقليم السيد احمد خان بهادور الذى كان عميلا للانجليز هناك ، وعمل من قبل على تشجيع اقامتهم فى البلاد ، وتشجيع مخططاتهم من اجل القضاء على الاسلام والمسلمين بالهند ، وقد نادى هذا الرجل بدعوة تقديمية فى الهند — من اجل ارضاء الانجليز — فقال بأنه لاوجود الا للطبيعة ، وليس لهذا الكون اله حكيم ، وان جميع الانبياء كانوا طبيعيين لا يعتقدون بالاله الذى جاءت به الشرائع ، وأخذ يغرى أبناء الأغنياء من الثسبان انطاشين (٤٠) .

فحركة احمد خان كانت تقوم على الافتتان بالعلم الطبيعى والحضارة الغربية المادية كما يفتتن فى عصرنا الحاضر بعض المفكرين بما يسمى «العلم» وبالمركبات الحضارية التى قامت عليه ، والافتتان بالعلم الطبيعى او بالطبيعة كما يقال يؤدى الى خفة وزن القيم الروحية والمثالية ، وهى القيم التى تقوم عليها رسالة الادبان السماوية التى ينادى بها الاسلام اوضح تمثيل (٤١) .

لذلك جاء غلام احمد بعد ذلك حاملا نفس مبادئ احمد خان ، وبدأ يعمل هو الآخر لخدمة المادية الغربية ، والأفكار الجديدة التقدمية التى ليس لها هدف الا هدم الاسلام .

ولكن غلام احمد حاول ان يتطور بدعوته عما قام به احمد خان من قبل ، وذكر ان عيسى عليه السلام بعد ان بعث من موته الظاهري هاجر الى كشمير فى الهند لينشر تعاليم الانجيل فى البلاد ، وأنه توفى بعد ان بلغ من العمر ١٢٠ سنة ، وأن قبره لم يزل موجودا هناك ويدعى ميرزا

(٤٠) محمد البهى « الفكر الاسلامى الحديث » ص ٣٩ .

(٤١) محمد البهى ، المرجع السابق ص ٤١ .

غلام أحمد أنه « المهدي » ويذكر أنه حل فيه عيسى ومحمد على السواء فهو نبي . ومع أنه لم يدع أنه عيسى بن مريم نفسه فقد ادعى أنه زميله في الرسالة (٤٢) وأعلن قدومه برسالة جديدة . بعد أن خالف الأولين والآخرين في أن محمدا خاتم النبيين .

وقد ألفى النبي الهندي شريعة الجهاد في سبيل الله وشرائع أخرى كثيرة ، وذلك طبعاً لحساب الاستعمار الانجليزي (٤٣) .

يقول الأستاذ المودودي :

« أول ما يميزهم عن المسلمين ويبعدهم عنهم هو ما جاءوا به من التفسير المبتدع « لختم النبوة » وقد خالفوا فيه تفسير جميع المسلمين المتفق عليه بينهم فما زال المسلمون يعتقدون منذ ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن ولا يزالون يعتقدون إلى اليوم أن سيدنا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم هو خاتم النبيين فلا نبي ولا رسول بعده إلى يوم القيامة ، وذلك هو المعنى الذي فهمه الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً من قول الله عز وجل في كتابه الكريم « ما كان محمداً أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (٤٤) ، وهم الذين قاتلوا كل من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو المعنى الذي مازال المسلمون يفهمونه في جميع العصور المتعاقبة ، فلم يقبلوا من بين أنفسهم رجلاً ادعى النبوة أما القاديانيون فقد فسروا « خاتم النبيين » لأول مرة في تاريخ المسلمين بأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء أي « طابعهم » فكل نبي يظهر الآن بعده تكون نبوته مطبوعاً عليها بخاتم تصديقه صلى الله عليه وسلم « ومن أقوالهم » قال المسيح الموعود عليه السلام في خاتم النبيين: أن المراد به أنه لا يمكن أن تصدق الآن نبوة أي نبي من الأنبياء إلا بخاتم « صلى الله عليه وسلم » وكما أن كل قرطاس لا يكون مصدقاً مستنداً إلا

(٤٢) محمد الغزالي « دفاع عن العقيدة والشريعة » ص ٢٤٢ .

(٤٣) المرجع السابق .

(٤٤) سورة الأحزاب آية ٤٠ .

حين يطبع عليه بالخاتم فكذاك كل نبوة لا تكون مطبوعا عليها بخاتمته
وتصديقه صلى الله عليه وسلم تكون غير صحيحة (٤٥) .

ومن اقوالهم « ان جميع المسلمين الذين لم يشتركوا في مبليعة
المسيح الموعود كافرون خارجون عن دائرة الاسلام ، ولو كانوا لم يسمعوا
باسم المسيح الموعود » (٤٦) .

يقول ابو الحسن الندوي « من كبار علماء الهند في كتيب له عنوانه
« القاديانية ثورة على النبوة المحمدية والاسلام » .

« قد تحقق علميا وتاريخيا ان القاديانية وليدة السياسة الانجليزية .
نفذ اهم بريطانيا واقلقها حركة المجاهد الشهير السيد الامام « احمد بن
عرفان الشهيد » سنة ١٨٤١ م ، وكيف الهب شعلة الجهاد والفداء ، وبث
روح النخوة الاسلامية والحماسة الدينية في صدور المسلمين في الربع
الاول من القرن التاسع عشر المسيحي وكيف التف دوله وحول زعامته
آلاف المسلمين عانت منهم الحكومة الانجليزية في الهند مصاعب عظيمة ،
فكانوا موضع اهتمامها » .

وقال في موضع آخر :

« ان القاديانية تنتشر في العالم الاسلامي الفوضى الفكرية ، وعدم
الثقة بمصادر الاسلام الصحيحة ومراجعته وسلته ، وتقطع صلة هذه
الامة عن ماضيها وعن خير ايامها وافضل رجالها ، وتفتح باب الادعاء
والمتطفلين على مصراعيه وتسئ الظن بقوة الاسلام ، وحيويته وانتاجه
وتئيس المسلمين من مستقبلهم » (٤٧) .

ويرى الدكتور محمد اقبال « ان القاديانية محاولة منظمة لتأسيس
طائفة جديدة على اساس نبوة منافسة لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم » .

(٤٥) محمد الفزالي ، المرجع السابق ص ٢٤٣ نقلا عن ملفوفات
احمدية « بترتيب محمد منظور الهى القادياني » ص ٢٩٠ .
(٤٦) « ميرزا بشير الدين » مرآة الصدق ص ٢٥ .
(٤٧) محمد البهي « الفكر الاسلامي الحديث » ص ٤٥ - ٤٦ .

ويقول « ان كل مجتمع ينفصل عن الاسلام ، وله طابع دينى يقوم على اساس نبوة جديدة ، ويعلن كفر جميع المسلمين الذين لا يصدقون بهذه النبوة المزعومة يجب ان ينظر اليها المسلمون كخطر جدى على سلامة الاسلام (٤٨) .

ومن هذه الفرقة الخارجة عن الدين ، نرى كيف تمكن الانجليز من زعزعة العقيدة الاسلامية فى الهند ، وبث الفرقة بين المسلمين ، وتشكيكهم فى عقيدتهم ، واحلال نقائص الباطل ، محل مثل الحق .

البهائية

البابية او البهائية مذهب انتحله رجل يدعى مرزا على محمد ولد فى ٢٠ اكتوبر من سنة ١٨١٩ م ؛ كان ابوه تاجرا فى بلدة شيراز جنوب ايران ، توفى والده وهو صغير فكفله خاله ، وقد تعلم القراءة اللائقة به الى سن الخامسة عشرة ثم اشتغل بالتجارة وتزوج فى سن الثانية والعشرين .

وفى سن الخامسة والعشرين ادعى انه هو « المهدي المنتظر » ، ويرجع ذلك الى ان بلاد فارس كانت كلها تلهج بقرب ظهور المهدي . لذا سمي نفسه « بالباب » وتبعه اناس كثيرون الى ان قامت حكومة ايران بقتله فى ٩ يولية سنة ١٨٥٠ م (٤٩) .

بعد مرور تسعة عشرة سنة من وفاة الباب ظهر رجل من اتباعه والمؤمنين به يدعى مرزا حسين على ادعى : ان الباب ماكان الا مبشرا به ، وانه اى حسين على المذكور ليس نبيا ولا مهديا فقط ؛ بل هو مظهر الالوهية التى تجلت وظهرت فى جميع الانبياء والمرسلين مثل آدم وذريته وبوذا وغيره ، فهو موسى وعيسى ومحمد وسمى نفسه بهاء الله ؛ وان

(٤٨) محمد الفزالى ، المرجع السابق ص ٢٥٢ .

(٤٩) عبد العزيز نصحي « البهائيون من اخطر المعاول لهدم

الاسلام » ص ٩ .

مظهره سيتجلى ويظهر في خلفائه مثل ابنه البكر عباس المسمى عبدالبهاء، وخليفة عباس وهو ابن بنته شوقي افندى (٥٠) .

وقد بذل الغرب جهدا مكثفا في مساندة البهائيين كي يعلو صوئهم وتتسع دائرتهم ، وذلك بعد ان طردتهم حكومة ايران لما قاموا به من اعمال وحشية في البلاد ضد مخالفيهم . فقام الغرب بمساعدتهم على ان يتخذوا من مدينة عكا بفلسطين وطنا لهم ، فبذلك زرعوهم في داخل جسد الامة الاسلامية ، خاصة وان البهائيين يذكرون انهم مسلمون ، وبذلك بفتنون المسلمين ، ويشككونهم في حقيقة دينهم ومبادئه .

يذكر محمد فاضل عن فظائع البابيين مايلي (٥١) « لما استفحل امر الباب وعلقت بقلوب الناس دعوته ، وصار اتباعه يعدون بالآلاف ، وبات همهم الأكبر ان ينصروا هذا البهتان وينشروه في سائر ارجاء الفرس بداوا بتحقيق امانيتهم هذه ، بأن وقعوا الرعب والفزع في القلوب ، فسكانوا يطلعون بوسائل تستى من الحيل والدسائس على سرائر الناس وخبائياهم من كان يؤمن بالطعن في معتقداتهم ، لم يلبثوا ان يقتلوه ، وتفشى منهم التعدي والغدر حتى كانوا يتشكلون بأشكال متعددة كالسائلين ونحوهم ليتمكنوا من الفتك بمن ظنوا به او توهموا فيه ان يشير بسوء الى ديانتهم فسفكوا بذلك دماء كثيرة ، ماجنت ذنبا ولا جريرة ، الا ان آمنت بالله ، وكفرت بالطاغوت ، فهم في هذا الدور من فظائعهم كانوا اشبه بالفداوية الذين اشتهر امرهم على عهد الفاطميين خلفاء مصر ، بل الفداوية كانوا خيرا منهم واخف وطأة .

ثم ثاروا على الحكومة وجهروا بدعوتهم على ملا من الاشهاد ، وزادوا فجورا على فجورهم ، وامتلأوا شرورا فوق شرورهم ، فسكانوا يمثلون بالناس تمثيلا فظيعا ، ويعذبونهم تعذيبا وخيما لا يرحمون صغفرا لصغره ، ولا كبيرا لكبره ، ولا امرأة لضعفها ، ولا جنينا في بطنها ، فالكمل سواء في نظرهم ماداموا لا يؤمنون ببابهم ، فكانوا يسلون اللسنة

(٥٠) المرجع السابق .

(٥١) محمد فاضل « الحراب في صدر البهاء والباب » - ص ١٨٨ .

وبسملون العيون ويسلخون الجلود ، ويكونون الجسوم ويشوهون الوجوه ،
يقطعون الأيدي والأرجل من خلاف ، ويبتزون أئداء المراضع ، ويشقون بطون
الحوامل ويتلقفون الأجنة على أطراف أسنة الى غير ذلك من ضروب التمثيل
وصنوف التعذيب .

ودين البهائيين ينحصر فيها يأتي :

١ — ان جميع الأديان هي من الله الذي ظهر في الأنبياء كما تظهر
الشمس في المرآة ، وان جميع كتب هؤلاء الأنبياء لم يعثروها تحريف
او تبديل ، انها بشرت به « اي بالبهاء » .

٢ — ان جميع الأديان أصبحت لا تصلح لاصلاح العالم الآن فيقتضي انزال
دين جديد يوافق هذا العصر ، عصر التقسيم المادي العظيم ، عصر
الاختراعات الجديدة ، ولذلك جاء « بهاء الله » هذا بدينه الجديد
الموافق لهذا العصر الجديد (٥٢) .

٣ — ان رسوم العبادات من صوم وصلاة أصبحت لاتوافق الناس في هذا
العصر المادي ، فلتكن لهم صلاة ، وصيام آخران ، ثم غير نظام
السنة ، فجعلها تسعة عشر شهرا بدلا من اثني عشر شهرا ، وكل
شهر تسعة عشر يوما وسماها بأسماء أخرى مثل شهر البهاء والجلال
والعظمة الى آخره ، وسبى أيام الاسبوع بأسماء أخرى ايضا مثل
يوم النضال والعدل والاستجلال الى آخره (٥٣) .

ويزعم البهاء ان النقص في الدين الاسلامي ينحصر فيما يلي :

اولا : الدين الاسلامي يأمر بالحروب والدين البهائي يبطل الحروب ،
وهي دعوى كاذبة ، فان الدين الاسلامي دين السلام ، وابطال الحروب

(٥٢) عبد العزيز نصحي « البهائيون من اخطر المعاول لهدم
الاسلام » ص ١٠ .

(٥٣) المرجع السابق ، .

الافى حالات الضرورة ، قال تعالى : « يا ايها الذين آمنوا اخلوا فى
اسلم كافة » (٥٤) .

٢ — يقولون ان الدين البهائى يمتاز عن الدين الاسلامى بالدعوة الى
عصبة امم وحكمة تحكم لمنع المشاحنات بين الدول ولتبع الحروب ، او
محاربة الدولة الباغية لمقابلتها وارغامها على السلام ، فتتقطع الحروب
من العالم .

فهل هذه افكار جديدة على الاسلام ؟ وقد قال الله تعالى « وان
طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احدهما على
الأخرى ، فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى امر الله » (٥٥) .

٣ — يقولون ان الدين البهائى ساوى بين الرجل والمرأة فى جميع
الحقوق الشرعية والسياسية والميراث ، فى حين الدين الاسلامى نافى
من هذه الوجهة .

كيف اذا يكون هذا الزعم البهائى ، فهو باطل كاذب لأن الدين
الاسلامى قد ساوى بين الرجل والمرأة فى جميع الحقوق المدنية والسياسية،
واذا فرق فى شىء فلاختلاف طبيعة المرأة عن طبيعة الرجل (٥٦) .

٤ — ان الدين البهائى يريد ان يساوى بين الاغنياء والفقراء حتى
لايكون غنى مفرط او فقر مدقع .

اين اذا الجديد فى ذلك لأن الدين الاسلامى هو الذى شرع التشريع
العادل الذى لايبقى معه فقر مطلقا .

٥ — ابطال الشرع البهائى تجارة الرقيق ، وامر بعنقه ، ويقولون
ان الدين الاسلامى اباحه .

(٥٤) سورة البقرة آية ٢٠٨ .

(٥٥) سورة الحجرات آية ٩ .

(٥٦) أنظر عبد العزيز نصحي « البهائيون » ص ١٦ .

(م ١٦ - الاستشراق)

والحقيقة أن هذا كذب لأن الدين الاسلامى هو أول من حث على ابطال الرقيق « وخفف وطأة الاسترقاق ، ورغب الناس فى ابطاله .

٦. — قول البهائيين ان العقوبات فى الدين الاسلامى لا يمكن تطبيقها فى هذا العصر ؛ عصر الرحمة والانسانية ، فلا يجوز قطع يد السارق او رجم الزانى ؛ ولذلك فان الدين البهائى قرر عقوبات مالية مثل هذه الذنوب (٥٧) .

٧ — يقول البهائيون : ان من ميزة دينهم جمع الناس على لغة واحدة ، وجعلهم كأبناء طبقة واحدة ، ولكن الحقيقة ان الدين الاسلامى سبقهم فى ذلك ، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس منا من دعا الى عصبية » .

٨ — يقول البهائيون « ان العبادات فى الدين الاسلامى شاقة ومرهقة ، ولا هوادة فيها او يتيسر بخلاف الدين البهائى الذى فضل السعى وراء العيش والكسب على هذه العبادات المرهقة .

كيف والاسلام يقول « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » (٥٨) .

ومن عقائد البهائيين :

يعتقد البهائيون بالتناسخ والحلول معا فيقولون ان الله حل فى البهاء ، وان روح البهاء انتقلت منه الى ابنه عبد البهاء ومنه الى ابن بنته شوقى فإله البهائيين يسكن الأرض ، وله أن يزيد وينسخ فى الدين البهائى ما يشاء انه ولى الأمر ، وهذه القاعدة أخذوها من المسيحيين الكاثوليك فى اعتقادهم ان الباب خليفة المسيح وله أن يزيد وينقص فى الدين المسيحى (٥٩) .

والبابية على اختلاف فرقها ضرب واحد ونسيج غير مختلف ، أخذت أصولها عن الباطنية الذين منهم الاسماعيلية والقرامطة والدروز ،

(٥٧) المرجع السابق ص ١٨ .

(٥٨) عبد العزيز نصحى ، المرجع السابق ص ٢٣ .

(٥٩) المرجع السابق .

والنصيرية ، مهى تؤله البشر ونأمر بعبادتهم ، وتنكر البعث والنشور والوعد والوعيد والجنة والنار والملائكة والجن ومعجزات الأنبياء وتخصم وتؤول ذلك تأويلاً تتبرأ منه اللغة والدين كقولها ان احياء الموتى لعيسى عليه السلام لم يكن على الصورة المغمومة من احيائه العظام النخرة ، والرفات الباليات ، بل المراد احيائه النفوس من موت الجهل وبعثها من قبور الغى والضلال الى حظيرة المعرفة والهدى ونور الوحي والايمان ، وان عصا موسى عليه السلام لم تكن كذلك على مايعتقده الناس من انقلابها حية تسعى ، بل هى عصا معنوية يراد بها الدين الذى بعث به موسى ليظهره على الدين كله (٦٠) .

وتقول البهائية بصلب المسيح وتسلم بالوهيته ، وتقرر انه البهاء وان القيامة قد قامت بظهوره ، وظهور الباب وتحكم بنبوة بوذا وكنفوشيوس وبرهمه وزرادشت .

وللبهائيين فى مصر دعاة واتباع من فرقة المرزا عباس ينصبون للمؤمنين حبائل الكيد ويشككونهم فى دينهم ، ويورون عليهم الشبهات ، وبزخرفون لهم الاباطيل (٦١) .

ومن العجيب أن ينقاد المسلم لهذه الاباطيل ، ويؤمن بها لم تقم عليه بينة من البينات ، وقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بضاء نقية ليلها كنهارها . قال عليه السلام « تركت فيكم ما ان تمسكتم به لم تضلوا بعدى ، كتاب الله وسنتى » وتوله تعالى « ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر » فأولئك حبطت اعمالهم فى الدنيا والآخرة . وأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون « (٦٢) .

(٦٠) محمد فاضل « الحراب فى صدر البهاء » ص ٢٠ .

(٦١) محمد فاضل ، المرجع السابق ص ٢١ .

(٦٢) سورة آل عمران آية ٢٢ .

ومن المؤكد أن الذين عملوا على نشر هذه العقائد الهدامة بين صفوف المسلمين هم الغربيون الساديون الذين حاولوا هدم الإسلام من طريق هدم مبادئه ، فإذا نظرنا في مبادئ البهائيين نجد أنها جميعها تسقط فرائض الإسلام ، وما أكدته الإسلام من حقائق .

وقد قام عبد البهاء وهو « عباس بن حسين المرزا » بزيارات لمختلف أنحاء أوربا مجد فيها الاستعمار والصهيونية ، ونشر في صحف هذه البلدان اجابات عن أسئلة كثيرة وجهت إليه ، ومجدت هذه الصحف البهائية لأنها تستهدف التقريب بين الشرق والغرب والعمل في سبيل أن يصبح العالم أمة واحدة شعارها الحب والسلام ، فيطرب الغربيون وسواهم من عدو العرب والمسلمين ، لدعوة هذا الشرقي المسلم الكبير — كما يزعمون — ويكتبون عنه المقالات الحسان (٦٣) .

وفي خلال رحلته هذه قام بزيارة أمريكا . يقول ميرزا محمد مهدي خان (٦٤) « وقد كان سفره الى الاقطار الغربية بناء على دعوة الاحباء والقسوس والرؤساء الدينيين باصرار عظيم ، وحينما كان يخطب فيهم كان الجميع سواء من الاحباء والأغيار يستمعون لخطبته بفراحة الفرح والانبساط والانشراح ويتلقون دروسه الغالية بالقبول والولاء والانجذاب ولم يعترض منهم أحد بل كانوا كلهم أذانا مصغية .

ومما يستحق الذكر أن أحد الفلاسفة العظام المدعو فامبري ، قال يوما لحضرته « انى أنا فامبري لم يكن لى جراءة على ذكر المسيح فى كنائس اليهود باحترام ، ولكن انت بهذه الشجاعة ، وهذه القوة اثبتت فى معبد اليهود أن المسيح كان كلمة الله وروح الله » .

(٦٣) عبد الرحمن الوكيل « البهائية » ص ١١٥ .

(٦٤) ميرزا محمد مهدي خان « مفتاح باب الابهول » ص ٥ .

وبمثل هذه السياسة ، والمحبة عبر الأجانب عن محبتهم وتشجيعهم لعبد البهاء الذى كان حليفا قويا لهم ، وقد ظهر هذا واضحا اثناء الحرب العالمية الأولى : فقد كان عبد البهاء يدمر القوى المعنوية ، ويبشر بقرب النجاة والخلص — على يد الحلفاء — من طغيان الترك .

وعندما دق الجنرال اللبى أبواب فلسطين بجيوش الحلفاء كان عبد البهاء فى منتهى الفرح والسعادة ، وعندما سقطت حيفا عبرت البهائية عن فرحتها بقولها : « وكان الابتهاج عظيما عندما استولت الجنود البريطانية والهندية عليها » (٦٥) .

فمن ذلك نرى ان الغرب حاول تحطيم الاسلام بشتى الوسائل والصور بالأمكار الهدامة ، والنظريات العقائدية التى عملت على تحطيم نفوس الشباب ، وضباعهم ، دينيا وفكريا ونفسيا . ذلك فاننا لابد ان نأخذ حذرنا من كل مانقرأ وما نسمع وما نرى ، وأن نكون جنودا مسلمين مهمتنا الدفاع عن ديننا الحنيف ، ومجتمعنا الاسلامى ، وحضارتنا الاسلامية التى ستكون باذن الله شعلة مضيئة لن تنطفئ ، مادام كتاب الله هو كتابنا والاسلام ديننا .

ولابد ان أختتم هذا الموضوع ببعض محاولات للإصلاح علينا تجنبنا الزلل ، وتحميننا من الأفكار التى تدعى صفة التقدمية ، والتى تدعى صفة التحرر ، فنحن فى غنى عن أى فكر مستورد لأن دين الاسلام دستور مكتمل البنود والنصوص .

آراء فلاصلاح :

١ — التمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

٢ — تدريب الأفراد على السلوك الدينى والتربية الصحيحة التى نرفع
المستوى النفسى والاجتماعى للفرد وتحوله الى صاحب مبادئ ومثل
عليا يعيش لها ويضحى من أجلها .

٣ — ان يصحب برامج التعليم برامج للتربية الاسلامية لتشرف على
السلوك الفردى والجماعى ، وتجعل الحياة الخاصة والعامة
محكومة بأداب الاسلام وتوجيهاته .

٤ — تدريس الوظائف التربوية للبيت المسلم حتى نستطيع تخريج اجيال
تعرف ربها ودينها ومعاشها ، ومعادها على قواعد مدروسة
مغروسة فى الدم .

٥ — الربط ما بين البيت المسلم وقضايا المجتمع الكبرى حتى لا يحيا بيت
لمى جو منافعه الخاصة جاهلا او جاحدا ما وراءها ، ولو ان كل دولة
مسلمة انشأت وزارة للأسرة والشباب لضمنت هذا الارتباط .

٦ — ابطال العادات التى أخذ بها المسلمون فى تقاليد الزواج من مغالاة
فى المهور واسراف فى الحفلات العامة وتكديس للأثاث وتنافس فى
الكماليات ، واعادة الزواج الى معناه السهل القديم ليكون عصمة
وسياجا للدين والدنيا .

٧ — توثيق الصلة بين المرأة ويناابيع الثقافة الدينية والمدنية .

٨ — اعادة الحياة للعلاقة بين النساء وبيوت الله فى الصلوات .

هذه بعض محاولات الإصلاح التى لا تتأتى الا بعقد خلق مجتمع
اسلامى بمعنى الكلمة لأن الكتب والخطب وافلام الدعاية والبعثات التبشيرية
الاسلامية ، لن تفلح فى الدعاية للاسلام بدون وجود مجتمع يعيش على
نهج الاسلام وتتمثل فيه خصائص هذا النهج ، وتتمثل فيه صورة الحياة
فى الاسلام .

ان كيفية قيام المجتمع الاسلامى لايتأتى الا اذا ارفعنا بتصوراتنا ، وافكارنا وأخلاقنا وسلوكنا وواقفنا الحضارى الى مستوى الاسلام . كما يجب ان تبدأ الشعوب الاسلامية نهضة صحيحة تكون امتدادا لتاريخها وابرزا لشخصيتها ، ولا يعنى هذا عدم الاستفادة من تجارب الآخرين ومعارفهم ، كلا ، فالاستفادة والاتصال والتجارب العملية مطلوبة فنتفع بترات التقدم الصناعى ، وننتفع من خيرات غيرنا فى آفاق الحياة العلمية . ونفى إطار صلب من شرائعنا وشعائرننا .

والله من وراء القصد وهو ولى التوفيق .

د. عفاف صبرة

قائمة المصادر والمراجع

- ١ — إبراهيم خليل أحمد « المستشرقون والمبشرون في العالم الإسلامي »
القاهرة سنة ١٩٦٤ م.
- ٢ — إبراهيم عبد المجيد اللبان « المستشرقون والإسلام »
القاهرة سنة ١٩٧٠ م.
- ٣ — ابن الأثير « على أحمد بن أبي الكرم » ت ٦٣٠ هـ.
« الكامل في التاريخ »
بيروت سنة ١٩٦٧ م.
- ٤ — ابن حزم « أبو محمد علي بن أحمد » ت سنة ٤٥٦ هـ.
« جمهرة أنساب العرب » تحقيق ليفي بروفنسال
القاهرة سنة ١٩٤٨ م.
- ٥ — ابن عبد البر « الحافظ يوسف بن عبد البر » ت سنة ٤٦٣ هـ.
« الدرر في اختصار المغازي والسير » تحقيق شوقي ضيف
القاهرة سنة ١٩٦٦ م.
- ٦ — ابن القيم الجوزية « أبو عبد الله محمد بن أبي بكر » سنة ٧٥١ هـ.
« الطرق الحكمية في السياسة الشرعية »
القاهرة سنة ١٩٥٣ م.
- ٧ — ابن كثير الدمشقي « عماد الدين أبو الفداء » ت ٧٧٤ هـ.
« البداية والنهاية »
بيروت سنة ١٩٧٧ م.
- ٨ — ابن ماجه « السنن » تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي
القاهرة سنة ١٩٥٢ م.
- ٩ — ابن هشام « أبي محمد عبد الملك بن هشام » ت سنة ٣١٣ هـ.
« السيرة النبوية » تحقيق فهمي السرجاني
القاهرة سنة ١٩٧٨ م.
- ١٠ — أبو داود السجستاني « سنن أبي داود » تحقيق محمد محسن الدين
القاهرة سنة ١٩٣٥ م.
- ١١ — أبو يوسف « القاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم » ت سنة ١٨٢ هـ.
« كتاب الخراج » تحقيق تقي الخطيب
القاهرة سنة ١٣٩٧ هـ.
- ١٢ — أحمد زكي « الرق في الإسلام »
القاهرة سنة ١٨٩٢ م.
- ١٣ — أحمد شلبي « مقارنة الأديان »
القاهرة سنة ١٩٧٣ م.

- ١٤ — أحمد غلوش « الخمر والحياة »
القاهرة سنة ١٩٥٣ م .
- ١٥ — أحمد فائق رشد « الكواكب الدرية فى تاريخ ظهور البابيه
والبهائية » تأليف العلامة ميرزا عبد المحسن آواره
القاهرة سنة ١٩٢٤ م .
- ١٦ — أرنست رينان « دين الاسلام والعلم » تعريب على يوسف
القاهرة د.ت
- ١٧ — الببائى الحلبي « الاسلام » مجموعة اساتذة د.ت .
- ١٨ — البخارى « محمد بن اسماعيل البخارى » ت ٢٥٦ هـ .
« صحيح البخارى بشرح الكرماني »
القاهرة سنة ١٩٣٨ م .
- ١٩ — البيهقي « أبى بكر أحمد بن الحسين » « السنن الكبرى »
حيدر آباد سنة ١٣٤٤ هـ .
- ٢٠ — أوليري « الفكر العربى ومكانه فى التاريخ » ترجمة تلام حسان
وآخرون
القاهرة د.ت .
- ٢١ — توفيق سبع « قيم حضارية فى القرآن الكريم »
القاهرة سنة ١٩٧٢ م .
- ٢٢ — توماس ارنولد « الدعوة الى الاسلام » تعريب حسن ابراهيم
حسن
القاهرة سنة ١٩٧٠ م .
- ٢٣ — جمال الدين الفندى « قصة الكون »
القاهرة ١٩٥٦ م .
- ٢٤ — جوستاف لوبون « حضارة العرب » ترجمة عادل زعيتر
القاهرة سنة ١٩٥٦ م .
- ٢٥ — حسين الداغستاني « كتاب كشف الظلمه عن معتقدات البابيه »
القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ .
- ٢٦ — حسين الهرأوى « المستشرقون والاسلام » .
القاهرة سنة ١٩٦٨ م .
- ٢٧ — رضوان شافعى « التوفيق العلمى بين الحضارة والاسلام »
القاهرة سنة ١٩٢٥ م .
- ٢٨ — زكريا هاشم « المستشرقون والاسلام » المجلس الأعلى للشئون
الاسلامية
سنة ١٩٦٥ م .
- ٢٩ — سارتون جو ريج « مقدمه لعلم التاريخ » .
مترجم .

- ٣٠ — سارتون جورج « العلم القديم والمدنية الحديثة » ترجمة عبدالحميد صبره
القاهرة سنة ١٩٦٠ م .
- ٣١ — سيد احمد « الاقتصاد فى ضوء الاسلام »
القاهرة سنة ١٩٥١ م
- ٣٢ — سيد قطب « الاسلام ومشكلات الحضارة »
القاهرة د.ت
- ٣٣ — سيد قطب « فى ظلال القرآن »
القاهرة ١٩٧٨ م .
- ٣٤ — الشاطبى أبى القاسم ابراهيم بن موسى اللخمي ت ٧٩٠ هـ
« الموافقات » ج ٢ — القاهرة د.ت
- ٣٥ — صلاح الدين المنجد « المجتمع الاسلامى »
بيروت سنة ١٩٦٩ م .
- ٣٦ — صلاح الدين المنجد « المنتقى من دراسات المستشرقين »
القاهرة سنة ١٩٥٥ م .
- ٣٧ — الطبرانى « الاوسط »
- ٣٨ — الطبرى « أبو جعفر محمد بن جرير » ت سنة ٣١٠ هـ .
« تاريخ الامم والملوك »
القاهرة سنة ١٩٦٣ م .
- ٣٩ — عائشة عبد الرحمن « المرأة المسلمة بين أمس واليوم » سلسلة
الاسلام « نشر البابى الحلبي » د.ت
- ٤٠ — عباس العقاد « عقائد المفكرين »
القاهرة سنة ١٩٦٠ م .
- ٤١ — عباس العقاد « مايقال عن الاسلام »
القاهرة سنة ١٩٦٦ م .
- ٤٢ — عباس العقاد « حقائق الاسلام وأباطيل خصومه »
القاهرة سنة ١٩٦٥ م .
- ٤٣ — عبدالجليل شلبى « الاسلام والمستشرقون »
القاهرة سنة ١٩٧٧ م
- ٤٤ — عبد الرحمن الوكيل « البهائية »
القاهرة سنة ١٩٣١ م .
- ٤٥ — عبدالرزاق نوفل « الاسلام والعلم الحديث »
القاهرة سنة ١٩٥٨ م
- ٤٦ — عبد العزيز اسماعيل « الاسلام والطب الحديث »
القاهرة سنة ١٩٤٥ م .
- ٤٧ — عبد العزيز نصحي « البهائيون من اخطر المعاول لهدم الاسلام »
القاهرة د.ت
- ٤٨ — عبد الفتاح العبدى « فلسفة هيجل »
القاهرة سنة ١٩٧٠ م .

- ٤١ — عبد الكريم الخطيب « الاسلام فى مواجهة الماديين والملحدين »
— القاهرة سنة ١٩٧٣ م .
- ٥٠ — عبد الوهاب عزام « الاسلام والعلم » — سلسلة الاسلام ، نشر
البابى الحلبى . د.ت
- ٥١ — عفيف طباره « روح الدين الاسلامى »
القاهرة سنة ١٩٦٠ م .
- ٥٢ — على عبد الواحد وافى « نظام الأسرة فى الاسلام » سلسلة الاسلام
نشر البابى الحلبى د.ت
- ٥٣ — على عبد الواحد وافى « حقوق الانسان فى الاسلام »
القاهرة د.ت
- ٥٤ — على عوض « الاقتصاد فى ضوء الاسلام »
القاهرة سنة ١٩٥١ م
- ٥٥ — عيسى عبده « وضع الريا فى بناء الاقتصاد القومى » محاضرات
الموسم الثقافى جامعة الأزهر ١٩٦٠ م .
- ٥٦ — فؤاد شبيل « الدستور السوفيتى » .
القاهرة سنة ١٩٦٠ م .
- ٥٧ — فيليب حتى « تاريخ العرب » .
مترجم — القاهرة سنة ١٩٤٨ م .
- ٥٨ — لين بول « العرب فى اسبانيا » .
ترجمة على الجارم .
القاهرة سنة ١٩٤٤ م .
- ٥٩ — الماوردى « أبو الحسن على بن محمد » ت سنة ٤٥٠ هـ .
القاهرة سنة ١٩٧٨ م .
- ٦٠ — مجمع البحوث الاسلامية « البابية أو البهائية » — الأزهر
سنة ١٣٨٩ هـ .
- ٦١ — محاضرات الموسم الثقافى لجامعة الأزهر سنة ١٩٦٠ م .
- ٦٢ — محمد أبو زهره « الاسلام عقيدة وشريعة » سلسلة الاسلام .
نشر البابى الحلبى د.ت .
- ٦٣ — محمد أحمد باشميل « الاسلام ونظرية دارون »
بيروت سنة ١٩٦٨ م .
- ٦٤ — محمد البهى « الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار »
القاهرة سنة ١٩٧٥ م .
- ٦٥ — محمد البهى « تهافت الفكر المادى التاريخى »
القاهرة سنة ١٩٧٥ م
- ٦ — محمد البهى « الاسلام فى الواقع الايدولوجى المعاصر » .
القاهرة سنة ١٩٧٥ م .

- ٦٧ — محمد المنصوقى « الاسلام والمستشرقون » .
القاهرة سنة ١٩٧٢ م .
- ٦٨ — محمد المننى « المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء »
القاهرة سنة ١٩٦٢ م .
- ٦٩ — محمد معروف الدواليبى « الاسلام أمام الرأسمالية والماركسية »
القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
- ٧٠ — محمد عبد الله العربى « الاقتصاد الإسلامى » — سلسلة
محاضرات الموسم الثقافى لجامعة الأزهر سنة ١٩٦١ م .
- ٧١ — محمد على « مولانا » « الاسلام والنظام الجديد »
بيروت سنة ١٩٤٦ م .
- ٧٢ — محمد الفزالى « الاسلام والأوضاع الاقتصادية »
القاهرة سنة ١٩٥٢ م .
- ٧١ — محمد الفزالى « الاسلام المفترى عليه أمام الرأسمالية والاشتراكية »
القاهرة سنة ١٩٥٣ م .
- ٧٤ — محمد الفزالى « قذائف الحق »
القاهرة سنة ١٩٧٥ م .
- ٧٥ — محمد الفزالى « دفاع عن العقيدة والشريعة »
القاهرة سنة ١٩٦١ م .
- ٧٦ — محمد غلاب « الاسلام من خلال مبادئه التأسيسية »
القاهرة سنة ١٩٦١ م .
- ٧٧ — محمد غلاب « نظرات استشرافية » .
القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
- ٧٨ — محمد فاضل « الحراب فى صدر الباب والبهاء »
القاهرة سنة ١٣٢٩ هـ .
- ٧٩ — محمد فريد وجدى « دائرة مسارف القرن العشرين » :
٨٠ — محمد فؤاد عبد الباقى « المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم »
القاهرة سنة ١٩٣٨ م .
- ٨١ — محمد قطب « الانسان بين المادية والاسلام »
القاهرة سنة ١٩٧٨ م .
- ٨٢ — محمد لبيب البوهى « الوجودية والاسلام »
القاهرة سنة ١٩٦٠ م .
- ٨٣ — محمود فيالب « الطب والأطباء »
القاهرة سنة ١٩٧٠ م .

- ٨٤ — محمود شلقوت « الاسلام عقيدة وشريعة »
القاهرة سنة ١٩٧٧م
- ٨٥ — محمود النواوى ، خفاجى « بين الشيوعية والاسلام »
القاهرة سنة ١٩٦٠ م .
- ٨٦ — محبى الدين الالوانى « الاسلام وتطورات العالم » — القاهرة
سنة ١٩٥١ م .
- ٨٧ — مصطفى خالدى وآخر « التبشير والاستعمار »
بيروت سنة ١٩٧٠م
- ٨٨ — مصطفى السباعى « من روائع حضارتنا »
القاهرة سنة ١٩٥٨م
- ٨٩ — مصطفى السباعى « اشتراكية الاسلام »
القاهرة سنة ١٩٦٢م
- ٩٠ — مصطفى الجيب « الكوميونيين عند العرب »
القاهرة سنة ١٩٦٨ م .
- ٩١ — منير البعلبكي « دفاع عن الاسلام » .
تأليف فانجليرى لورافيشيا
بيروت سنة ١٩٦٨ م .
- ٩٢ — مودودى « أبو الأعلى » « الاسلام فى مواجهة التحديات »
الكويت سنة ١٩٧١ م .
- ٩٣ — موريس كرانستون « المصطلحات السياسية » .
مترجم .
- ٩٤ — ميرزا بشير الدين « مرآة الصديق » .
القاهرة د . ت
- ٩٥ — ميرزا محمد مهدى خان « مفتاح باب الأبواب »
القاهرة سنة ١٣٢١ هـ .
- ٩٦ — نجيب العقينى « المستشرقون »
القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
- ٩٧ — نديم الجسر « قصة الايمان » — القاهرة د . ت
- ٩٨ — يوسف القرضاوى « الحلول المستوردة »
بيروت سنة ١٩٧١ م .
- ٩٩ — يوسف القرضاوى ، وآخرون « الاسلام بين شبهات المضالين »
الأزهر سنة ١٩٦٠ م .

المراجع الأجنبية

- 1) — A. Carlel
The Herows and Hovows Warship.
London 1939.
- 2) — A. Guillume.
The Legacy oj Israel.
London 1953
- 3) — Finlay.
History ol the Byzantine empire.
Oxford. 1877.
- 4) — Garriss on.
The marh af faith.
N.Y. 1967.
- 5) — Holm yard.
Chemistry to the time of Dalton.
London 1919.
- 6) — ilen Lictenstadter.
Islam modenn age.
London 1963.
- 7) — Jessup H.H
FiFty three years in syria. 2. Uols
London 1910.
- 8) — M. Hart.
The loo A Ran king of the most mfluntial persons in
history.
Lc ndon 1978
- 9) — Moore.
A History ol chemistry.
London. 1929.
- 10) — Roland. Oliver.
A short history of Africa
London 1958.
- 11) — Runciman.
A history of the crusades.
London 1957.

فهرس الموضوعات

٦ — ٣	مقدمة
٣٦ — ٧	الفصل الأول : التطور التاريخى لنشأة حركة الإسلام
٤٧ — ٣٧	الفصل الثانى : الإسلام والتبشير
٦٢ — ٤٩	الفصل الثالث : الإسلام وموقف المستشرقين منه
٧١ — ٦٣	هجوم المستشرقين على الإسلام
٧٤ — ٧١	موقف المستشرقين من السنة النبوية
٨٠ — ٧٤	الفقه الإسلامى والمستشرقون
٩٠ — ٨٠	المستشرقون وانتشار الإسلام
٩٧ — ٩١	الإسلام والتجديد
	الفصل الرابع : المستشرقون والنظم الإسلامية
١٠٨ — ١٠١	المستشرقون ونظم الحكم فى الإسلام
١٢٠ — ١٠٩	المستشرقون والنظم الاقتصادية فى الإسلام
١٥٣ — ١٢١	المستشرقون والنظم الاجتماعية فى الإسلام
١٦٢ — ١٥٦	الفصل الخامس : الإسلام والعلوم الحديثة
١٦٣ — ١٦٢	علم الجغرافيا الطبيعية
١٦٧ — ١٦٤	الإسلام وعلم الفلك
١٦٨ — ١٦٧	الإسلام وعلم النبات والحيوان
١٧٤ — ١٦٩	الإسلام وعلم الطب
١٧٦ — ١٧٤	الإسلام وعلم الكيمياء
	الفصل السادس : الإسلام ومشكلات الحضارة والمدنية
١٨٨ — ١٧٧	الحديثة
١٩٦ — ١٨٨	نظرية دارون
١٩٨ — ١٩٦	نظرية فرويد وأثرها على الحضارة الإنسانية
٢٠٢ — ١٩٨	ذبوع نظرية هيجل
٢٠٤ — ٢٠٢	الوجودية وأثرها على الحضارة الإسلامية
٢١٦ — ٢٠٤	الماركسية الشيوعية كمسكلة من مشكلات الحضارة
٢٢٩ — ٢١٧	الراسمالية وأثرها على الحضارة الإسلامية
٢٣٤ — ٢٢٩	الليبرالية التقدمية
	آثار الحضارة المادية على عقائد المسلمين
٢٣٨ — ٢٣٥	القاديانية
٢٤٥ — ٢٣٨	البهائية
٢٤٧ — ٢٤٥	آراء للإصلاح

